

حسين أحمد أمين

الإسلام في عالم متغير  
ومقالات إسلامية أخرى

مكتبة مدبولي





# الإسلام في عالم متغيّر ومقالات إسلاميّة أخرى

حسّين أحمد أمين





# الإهداء

الى امرأتى

أحب الناس الى

القرارا بدين ليس بوسعى ، ولا وسع بناتنا الثلاث

– هبة ورائية ونسرین – أن نوفيّه •



# صدمة الغزو الفرنسى وبداية انفتاح مصر على الغرب ١٧٩٨ - ١٨٠١

« ٠٠٠ وعاد اهل البلد من بولاق الى المدينة فى بكاء  
ونحيب ، يلطمون وجوههم ويقولون : يا ويلنا ، قد وقعنا  
فى اسر الفرنج ! »

نقولاً الترك

« وكان صراخ عظيم فى مصر »

سفر الخروج ١٢ : ٣٠

## ١

ما بين « كتاب الاعتبار » و « عجائب الآثار »

خلف لنا الامير اسامة بن منقذ ( ١٠٩٥ - ١١٨٨ م ) فى « كتاب  
الاعتبار » ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى ( ١٧٥٦ - ١٨٢٥ م ) فى كتابه  
« عجائب الآثار » ، صورتين بالفتى الاهمية والطرافة لحدثين تاريخيين بارزين  
عاصراهما ٠ وقد جمع بين الحدثين انهما يمثلان عدوانين اوروبيين مفاجئين  
على الشرق ، وان العدوانين فتحوا عيون كل من اهل الشرق واهل الغرب ،  
على حد سواء ، على اوضاع غير مألوفة البتة فى حياة الطرف الآخر ٠ غير أن  
القرون السبعة التى تفصل بين الحدثين كانت قد شهدت من التطورات

الهائلة هنا وهناك ما جعل الصورتين تختلفان اختلافا جوهريا في خلفيتهما الحضاريتين .

فأما ما شاهده الأمير الشاعر فالشطر الأول من الحروب الصليبية في الشام . وبالرغم من أن الشعوب الإسلامية في وقته كانت قد أنهكت نظمها السياسية الفرقة ، واستنزفت طاقاتها الحروب فيما بينها ، فقد ظلت نظمها الحضارية أرقى في مجالات شتى من النظم الحضارية في الغرب . وكان بوسع أسامة أن ينظر الى الغزاة الأوروبيين نظرة استعلاء ، وأن يصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل » (١) ، وأن يقول ان « كل من هو قريب العهد ( منهم ) بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين عاشروا المسلمين » (٢) ، « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة » (٣) ، وأن « طبهم ساذج جاهل بالمقارنة مع الطب العربي » (٤) ، و « محاكماتهم غبية غريبة » (٥) . وهو مع ذلك يدعو الفرسان الداوية (٦) « بأصدقائي » (٧) ، ونسمع صديقا افرنجيا له يدعو « بأخي » ، ويرجو أسامة أن يسمح لابنه « مرهف » بأن يرافقه الى بلاده ، يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، واذا رجع كان مثل رجل عاقل . فيتعجب أسامة من غباء الرجل وكلامه الذي « ما يخرج من رأس عاقل » ، فان ابني لو أسر ما بلسخ به الأسر أكثر من رواجه الى بلاد

- (١) أسامة بن منقذ : « كتاب الاعتبار » - مطبعة جامعة برينستون بالولايات المتحدة ، ١٩٣٠ ، ص ١٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٦) Templars

(٧) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

الافرنج « (٨) .

وأما ما شهدته الشيخ المؤرخ ( الجبرتي ) فسنوات الحملة الفرنسية على مصر التي وصفها بأنها « سنو الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع » (٩) . وهو في نظريته الى الافرنج وعاداتهم ليس أقل وقاراً من أسامة ، وليس بأخف حدة في استنكاره لبعض مظاهر سلوكهم . غير أننا ننبين مع هذا اختلافاً كبيراً بين موقفيهما . ان كل ما يستنكره الجبرتي من الفرنسيين ان هو ناجم في رأيه عن « كفرهم » ، وعن أنهم ليسوا من أهل الدين الحق ، بينما يجد وقاره حيالهم سنداً له في إيمانه بأنه من أهل هذا الدين . أما أسامة ، فهو وإن نعت الافرنج بالكفرة ، واستنزل عليهم لعنة الله (١٠) ، فإن وقاره ازاءهم منبثق الى حد كبير عن تفوق حضارة قومه . كان بوسع الجبرتي أن يحتقر اقبال الفرنسيين على شرب الخمر ، وأن يستنكر سفور نسائهم وقلة حيائهن ، غير أنه لم يعد بالوسع أن يصفهم بالبهايم ، أو أن يقول ان محاكماتهم غبية وطبهم ساذج (١١) . بل أصبح اذا رأى سلعة

(٨) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٩) الجبرتي : « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ، لجنة البيان العربي بالقاهرة . ١٩٥٨ - ١٩٦٧ ، الجزء الرابع ، ص ٢٨٤ .

(١٠) « كتاب الاعتبار » ، ص ١٢٨ و ١٣٩ .

(١١) راجع الرسالة التي وجهها شيوخ الديوان بمصر الى ديجينيت Desgenettes

رئيس أطباء الحملة الفرنسية يشكرونه فيها على رسالته التي أرسلها اليهم من داء الجدري السائد في مصر في ذلك الحين . وقد وصف الجبرتي رسالة الطبيب بأنها لا بأس بها في بابها ، وقال ان ديجينيت بعث الى كل من الشيوخ « نسخة على سبيل المحبة والهدية لسلامتها للناس ، ويستعملوا ما أشار اليه فيها من العلاجات لهذا الداء المفضال » ( « عجائب الآثار » : ١٩٩ ) . أما رسالة الشيوخ فقد ورد نصها في صحيفة « لا ديكاد اجيبشيين »

Décade Egyptienne ( الجزء الثالث ، ص ١٩٦ ) ، وهو :

مصرية جيدة الصنع يقول ان من يشاهدها لا يشك في انها من صنع الافرنج (١٢) ، وأن من يذهب الى بلادهم « تهذب أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم ، وكثرة أموالهم ، ورفاهيتهم وصنائعهم ، وعدلهم في رعيته مع كفرهم » (١٣) . لقد شهدت القرون السبعة انقلابا في الأوضاع وتغيرا في الموازين . وعاد الافرنج الذين بهرهم في عصر أسامة ما أنجزته حضارة الاسلام ، واقتبسوا منها ما رأوه جديرا بالاعتباس ، عادوا بعد تلك القرون السبعة الى الشرق ، ناظرين الى أهله نظرة علماء الأنثروبولوجيا الى قبائل البدائيين (١٤) .

« من محفل الديوان العالي بمصر المحروسة ، خطابا الى السيتوين ( المواطن ) الحاجة دجنط ، رئيس الأطباء الفرنساوية ، جعل الله الخير على يديه . أما بعد الدعا لكم بخير ، فانه سابقا وصلت من بينتكم وهي الرسالة التي عم نعمها بين الخاص والعام من أهالي مصر من جهة الرسالة والكتاب الذي اللغته ( كذا ) في علاج الجدرى وأسبابه ، واصلاح غذائه ، وتدبير ادويته ، وقطع ضرره . وقد شكر الناس جميعا كمال عقلكم وحسن صنيعكم ، وعلموا مزيد ائقائكم في علم الحكمة والطب ، وفرح الناس جميعا بهذا الكتاب ، وادخلوه عندهم ليحفظوا انفسهم من هذا الداء العضال الكثير المنتشر في اقليم مصر . وكثرت دعوات الناس الصالحة لكم ، وشكروا احسانكم ومعروفكم ، وعلموا أن الفرنساوية لهم خبرة ومعرفة واتقان بعلم الطب . وكان السبب في اعتراف الناس بذلك هو هذا الكتاب . ولا تقطعوا عن الناس معارفكم وعلومكم . قال النبي صلى الله عليه وسلم « خير الناس من نفع الناس » ، ومن علم علما وعلمه حصل له الثواب الكثير والاجر العظيم من الله . والسلام عليكم ورحمة الله » .

هذا في الوقت الذي كان المجمع العلمي الفرنسي في مصر يذكر أطباء الحملة بأن مصر « كانت مهد الطب القديم ، وربما بقيت فيها آثار من حكمة القدماء . فالواجب دراسة أنواع التطبيب البلدى بعناية » .

( كريستوفر هيرولد : « بونايرت في مصر » ، ترجمة فؤاد انداوس . دار الكتاب العربى بالقاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤١ ) .

(١٢) عجائب الآثار ٧ : ٢٠٥ .

(١٣) المرجع السابق ٦ : ٣٤٣ .

(١٤) يقول الرحالة الدنماركى نيبور Niebuhr في كتابه «Travels Through Arabia and Other Countries in the East»

طبعة ادنبرة ١٧٩٢ : ١ : ٢٢٨ - ٢٢٩ ، الذى زار مصر فى ١٧٦١ - ١٧٦٢ وقضى بها نحو عام : « ان العرب ينظرون الينا نظرتنا الى الصينيين ، ويرون انفسهم أكثر استنارة وابداعا منا ، معتقدين أنهم يشرفونا اذ يحلوننا فى المرتبة الثانية بعدهم » . غير أنه هنا يتحدث عن سكان شبه الجزيرة العربية ، ويضيف ( ص ٢٤٨ ) قوله انه لاحظ أن العرب يفدون أكثر تحضرًا كلما بعد المسافر عن مصر .



## الصدمة الناجمة عن تفوق السلاح الغربى

كانت الانتصارات الحربية والسياسية التى حققها الاسلام فى حقبة التاريخية الأولى ، قد غرست فى نفوس الشعوب الاسلامية شعورا من الاطمئنان والرضا عن النفس ، لم تر معها حاجة الى تقليد ما ابتدعه الغرب منذ بداية عصر نهضته من أسلحة وأدوات ونظم وافكار ، كوسيلة للتصدى لهذا الغرب ذاته . وهى حاجة شغلت تفكير بطرس الاول فى روسيا وكيفت سياساته بأسرها ، بعد مرور أقل من قرن على احتلال الفزاة البولنديين الغربيين لموسكو فيما بين عامى ١٦١٠ و ١٦١٢ . وقد كانت ذكرى هذه الانتصارات الاسلامية هى أيضا مما جعل الغرب يتردد طويلا فى شأن الانتقال من طور الدفاع الى طور الهجوم ، خشية ان تتكرر هزائمه فى الحروب الصليبية المتتالية . غير انه ما أن أحرز الغرب انتصاره الحاسم عام ١٦٨٣ على الأتراك العثمانيين المهاجمين عند فيينا ، حتى بدا يدرك حقيقة ضعف خصمه ، ويتطلع الى الهجوم المضاد .

وقد تأخر هذا الهجوم المضاد مع ذلك قرابة قرن من الزمان . لانشغال الدول الأوروبية بتأسيس مستعمرات لها فى كل من آسيا والعالم الجديد ، ولأنها كانت تخشى ان يؤدى هجومها على أملاك « الرجل الضعيف » والشروع فى اقتسامها ، الى ضعف الدولة العثمانية ضعفا يفرى بها روسيا فتسعى الى ان تجد لنفسها منفذا الى البحر الأسود فالبحر الأبيض المتوسط . فما أن اشتعلت نيران الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٨ ، وتوالت على العثمانيين الهزائم الساحقة طوال السنوات الست التى استغرقها القتال ، حتى أدركت تركيا انه لا مفر من أن تحذو حذو بطرس ، وأن تسمح بادخال اصلاحات

— ١٠ —

عسكرية على النمط الغربى . وكان أول من نهض بهذه الاصلاحات السلطان سليم الثالث الذى تولى السلطنة عام ١٧٨٩ ، اى قبل تسع سنوات فقط من قيام قطر أوروبى آخر — هو فرنسا — بغزو أحد اقاليم دولته (١٥) .

وقد جاء هذا الغزو ثمرة لمخططات عديدة قديمة تهدف الى اقتسام الامبراطورية العثمانية ، اشترك فى وضعها باهوات وملوك واباطرة ودبلوماسيون ورحالة ومنجمون وحالمون وعلماء اللاهوت ، وكان معظمها يجعل مصر من نصيب فرنسا . وقد اقترح الفيلسوف الالماني لايبنتز ( ١٦٤٦ — ١٧١٦ ) على لويس الرابع عشر غزو مصر ، كى يحول انظار الملك الفرنسى عن الراين ، ويصرفه عن غزو هولندا فيدفع الخطر عن البلد الذى ولد فيه . قال للملك : « ان مصر هولندا الشرق ، فاذا كانت لفرنسا السيادة على تلك البلاد كانت لها الكلمة العليا فى البحر المتوسط ، وقبضت على طريق الهند ، وبعبارة أخرى ، على تجارة العالم » (١٦) . كما نصح السياسى الفرنسى شوازيل ( ١٧١٩ — ١٧٨٥ ) لويس الخامس عشر ان يسعى الى تملك وادى النيل كى يعوض ما خسره فى أمريكا وجزر الهند الغربية من مستعمرات . فكان الغزو الفرنسى لجزيرة كورسيكا خطوة فى هذا الاتجاه . وفى عهد لويس السادس عشر قدمت الى الملك مذكرات عديدة حول الموضوع ، وأرسل بعض الضباط الى مصر لدراسة امكان غزوها . وظهر فى فرنسا عام ١٧٨٧ كتاب لفرانسوا فولنى ، صديق بوناپرت ، يصف فيه رحلته الى سوريا ومصر ، ورغم أنه لم يقترح فيه غزو مصر ، فقد ساهم كتابه فى تبييد الاساطير الشائعة عن قوة الممالك العسكرية . وفى

(١٥) راجع فى هذا الفصل الثانى من كتاب ارنولد توينبى

«The World and the West»

(١٦) مقال سابا جيشى فى كتاب « حضارة مصر الحديثة » . نشره المؤسسة الاممية

بالقاهرة عام ١٩٣٣ . المطبعة المصرية . ص ١٩٣ .

٩ فبراير ١٧٩٨ ، قدم القنصل الفرنسى السابق فى مصر ، ماجالون ، مذكرة الى حكومته عن غزو مصر باعتباره انجع وسيلة لضرب النفوذ البريطانى فى الشرق . وقد اتخذ المشروع طابعا رسميا بتولى تاليران وزارة الخارجية الفرنسية . فقد اخبر بوناپرت بان الحكومة مهتمة بكل بلدان حوض البحر المتوسط ، وخاصة مصر التى يمكن ان تحل كمستعمرة محل جزر الأنتيل فى تزويد فرنسا بالصادرات ، وأن تنقل الى فرنسا تجارة الهند (١٧) .

أما عن الحكم المالىك فى مصر فلم يكونوا قد كونوا لأنفسهم بعد اية صورة عما وصل اليه الغرب من تفوق فى فن الحرب . وعندما حذرهم الانجليز قبل وصول أسطول بوناپرت بايام قلائل من الخطر الذى يتهدهم ، لم يابهوا لهذا التحذير ، وكانوا على ثقة تامة فى قدرتهم على صد غزو من ظنهم « أشباه الخواجات التجار الذين نراهم بيننا » (١٨) ، فاكثفوا بارسال قنطارين من البارود الى الاسكندرية (١٩) . يقول الجبرتى : « وأما الأمراء فلم يهتموا بشئ من ذلك ، ولم يكثرثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم انه اذا جاءت جميع الافرنج ، لا يقفون فى مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم (٢٠) . وحتى بعد وصول مراكب الفرنسيين الى الاسكندرية ، ونزول جندهم الى البر ، بحيث « لم يشعر أهل الثغر وقت الصباح الا وهم كالجراد المنتشر حول البلد » فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولم يثبتوا لحربهم (٢١) ، نجد

---

(١٧) راجع لى هذا الموضوع الفصل الأول من كتاب شفيق غريال «The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehmet Ali» 1928, Routledge.

(١٨) كلوت بك « لحة عامة الى مصر » ٢ : ٢٥٩ .

(١٩) المرجع السابق ٢ : ٢٦٠ .

(٢٠) « عجائب الآثار » ٤ : ٢٨٥ .

(٢١) المرجع السابق ٤ : ٢٨٥ .

- ١٢ -

مراد بك ، حين أنبىء قبل التحامه لأول مرة بالفرنسيين بأن جيش بوناپرت لا يكاد يملك خيالة ، يضحك عاليا ويقول انه سيسيرهم كما يشرح الشامام (٢٢) .

كانت هزيمة لويس التاسع عند المنصورة لا تزال ماثلة في ذاكرة المماليك ، وهى هزيمة حلت بجيش الافرنج في وقت كانوا فيه دون المسلمين في مضمار الحضارة والحرب . فان كانت فرنسا قد تركت مصر لشأنها بعد ذلك لمدة خمسة قرون ونصف قرن ، فقد استطاعت في تلك الحقبة أن تطور من نظمها وجيشها الى حد بعيد ، بينما بقى المماليك على حالهم دون تغيير يذكر ، اللهم الا احلالهم البنادق الانجليزية محل أقواس آسيا الصغرى . وقد افترض المماليك حين أتاهم نبأ وصول بوناپرت ، أن فرنسا باقية - شأنهم - على حالها وقت الصليبيين . وعندما قابلوهم مقابلتهم للصليبيين ، اذا بهم لا يصادفون رجالا عاديين ، وانما مخلوقات مسلحة بقوى لا تدركها عقولهم ، ولا يقهرها سلاحهم . وقد سحقتهم هذه المخلوقات سحقا شدهت له عقلية المشرق (٢٣) . وكانت موقعة امبابة ( فى ١٨ يوليو ١٧٩٨ ) التى هزم فيها المماليك « أحسن الفرسان طرا على وجه الأرض » (٢٤) ، خاتمة المعارك التى أديرت وفق القواعد العسكرية المعروفة فى العصور الوسطى .

كان أمراء المماليك « متنسافة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آرائهم ، حريصين على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم » . وهم مع ذلك « مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ... »

(٢٢) « بوناپرت فى مصر » : ١٢٨ .

(٢٣) راجع مقدمة أرنولد توينبى لكتاب شفيق غربال المذكور آنفا .

(٢٤) كلوت بك « لحة عامة الى مصر » ٢ : ١٤٠ ، راجع ما كتبه مونتى عن فرسان

المماليك فى المقال ٤٨ عن أحصنة القتال .

مغمورون فى غفلتهم» (٢٥) . وكان لابد لهم من أن يروا الفرنسيين وهم يصطفون فى مربعاتهم حتى تأخذهم تلك الحيرة التى يحسها كلب الصيد حين يصادف قنفذا لأول مرة فى حياته . أما عامة الشعب فكانوا أقل ثقة واستخفافا بالقاديين . فقد كثرت بينهم المقالات والأراجيف (٢٦) ، « ورفعوا الأصوات بقولهم : يارب يا لطيف ، ويا رجال الله ، ونحو ذلك ، وكانهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم . فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ، ويقولون لهم ان الرسول والصحابه والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحرب وضرب الرقاب ، لأ برفع الأصوات والصراخ والنباح ، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه » (٢٧) .

وأما علماء القوم ومشايخهم فانهم حين برز مراد بك وجيشه لقتال الفرنسيين ، صاروا يجتمعون « بالأزهر كل يوم ، ويُقروء البخارى وغيره من الدعوات ٠٠٠ ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الاسماء ٠٠٠ وصمد عمر أفندى ( مكرم ) نقيب الأشراف الى القلعة ، فانزل منها يرقا كبيرا أسمته العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق ، وأمامه وحوله الوف من العامة بالنبايت والمصى ، يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور ٠٠٠ وجلس مشايخ العلماء بزواية على بك ببولاق يدعون ويستهلون الى الله بالنصر » (٢٨) .

وفى رأينا ان « الصياح والجلبة والصراخ والنباح » لم يكن مبعثها الخوف ، اللهم الا ان كان ثمة خوف من الوقوع فى أسر الفرنج كفرقة غير

(٢٥) عجائب الآثار : ٤ : ٢٩٥ .

(٢٦) المرجع السابق : ٤ : ٢٨٥ .

(٢٧) المرجع السابق : ٤ : ٢٩٦ .

(٢٨) المرجع السابق : ٤ : ٢٩١ - ٢٩٣ .

مألفين . بل اننا نشك حتى فى أن المصريين كانوا يشعرون بمثل هذا الخوف الأخير . كتب الكولونيل لوجيه فى يومياته أثناء زحف الحملة الى القاهرة يقول : « اننا نسير بحذاء النيل ، مخترقين منطقة طيبة الزرع . . . والسكان يصطفون على جانبي الطريق ليرونا فى سيرنا ويحيونا . . . الفلاحون يرتدون ثيابا حسنة وعليهم سيماء الرزاة والمهابة . . . أما النساء فيطلقن زغاريد كهديل الحمائم ليعبرن عن سرورهن » (٢٩) . فحكم العثمانيين والمماليك الذى عهدوا فى ظله شطف العيش ما كان مما يؤسف على زواله ، أو يتوقع ما هو أسوأ منه . « فقد اعتاد المصريون النظر دون اكتراث الى تغير ساداتهم . واذ ضمن لهم بؤس حالهم أن أى تغير يطرأ لن يكون تغييرا الى ما هو أسوأ ، فانه ليس ثمة دولة تقارب مصر فى سهولة حدوث الانقلابات بها فى القمة ، وليس ثمة شعب يماثل المصريين فى قلة احتفالههم بعواقب هذه الانقلابات . وهم فى أوقات الأزمات والمحن أميل الى أن يصابوا بتراخ شامل فى الشعور والفكر ، لا تثيرهم عندئذ الا أقاصيص الخوارق غير الممكنة ، والحكايات عن عجائب الماضى وغرائب الأقطار البعيدة » (٣٠) .

وانما كان الصياح والصراخ نابعين فى الغالب عن صدمة الحدث ، أو ميل الى التفرج عن ملل جائم ، أو اضطراب الى ممالاة الأمراء . وقد كتب بونابرت الى حكومة الادارة ببافيس حين استقر بالقاهرة يقول : « ان هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى أخذناها عنها من رحالتنا . انها أمة هادئة بأسلة معتزة بنفسها » . وكتب أخوه لويس الى جوزيف بونابرت يقول : « ان فى الشعب رباطة جأش مدهشة . فلا شيء يهزمهم . وليس

---

(٢٩) « بونابرت فى مصر » : ١١٧ . أما نزال ١ : ٢٩ فيصف صوت الزغاريد بصياح

الدجاج .

(٣٠) انظر فى هذا كتاب شفيق غربال ٢٠٨ - ٢٠٩ .



الموت عندهم بأكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الانجليزى «(٣١) .  
هو اذن ، كما وصف الشاعر ميلتون الشعب الروسى ، «شعب  
لا يهاب الموت ، لان حياته ليست بأفضل كثيرا منه» (٣٢) .

### ٣

#### الانطباعات الأولى

« ... غير ان البشر جميعا يتخلون عن دهشتهم شيئا فشيئا »

#### لوكريتيوس

« شوارع ضيقة قذرة غير مرصوفة ، وبيوت مظلمة متداعية ، وإبنية  
عامة تبدو كأنها السجون ، وحوائث أشبه بمرايط الخيل ، وجو عبق بعطر  
التراب والقمامة ، وعميان وعور ورجال ملتحمون وأشخاص يرتدون أسمالا  
محشورون فى الشوارع ، أو قاعدون يدخنون قصباتهم كالقردة أمام مدخل  
كهفهم ، ونساء قليلات منكرات الصورة مقززات ، يخفين وجوههن العجفاء  
وراء خرق نتنه ، ويبدن صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة ، وأطفال  
صفر الوجوه ، رقاق الأجساد ، ينتشر الصديد على جلدهم ، وينهشهم  
الذباب » (٣٣) .

(٣١) « بنابرث فى مصر » : ١٠٠ .

(٣٢) راجع ما ذكره كلوت بك ( ٢ : ١٥٥ - ١٥٦ ) عن هدوء المصريين المحكوم عليهم  
بالاعدام وعدم اكترائهم بحبل المشنقة : « وانك لتعتقد اذا رأيتهم أنهم ليسوا المقصودين  
بتنفيذ الحكم .. لقد كنت أرى المحكوم عليهم بالاعدام يسرون نحو آلة التنفيذ من غير اكترات  
وبدون أن تبدو على وجوههم علامات الانفعال أو الذعر ، بل ويتحدثون بهدوء مع حراسهم .  
أما الجمهور فللما نسوقه الرغبة الى ذلك المكان لمشاهدة التنفيذ ، كما تفعل الجماهير عندنا ..  
ويصمد المحكوم عليهم بالاعدام فى سلم آلة التنفيذ بغير تردد .. ويمدون عنقهم .. بدون  
أن يبدو على وجوههم أثر الخوف ، حتى ان المتفرس فيهم لا يفرق بين حالتهم فى موقفهم أمام  
الموت وسالتهم المادية قبله » .

(٣٣) « بنابرث فى مصر » ١٨٧ - ١٨٨ .

هذه هي الصورة التي وجد الميجور ديتروا القاهرة عليها حين دخلها الجيش الفرنسي في أواخر يوليو ١٧٩٨ . وهو يستطرد فيصف أسباب التسلية واللهو فيها مما لا يرقى فوق لعب الحواة ورقص الراقصات الذي لا يوحى بفرح أو انشراح والذي « يبدأ شهوانيا ثم ما يلبث أن يصبح داعرا لا يحمل للنظر غير تعبير مبتذل عن نشوة الحس » (٣٤) . ويقول عن بعض احتفالات أهل العاصمة ان الألوف ساروا في مواكب يحملون المشاعل والشموع الكبيرة ، وهم يتشدون « أغاني كلها نشاز ، ترافقها موسيقى أكثر نشازا ، ويتصايحون ويزعقون ويحدثون ضجيجا شنيعا (٣٥) . ترى في الميادين العامة الدبة والقردة المدربة والمغنين والمغنيات . . . والحواة يأمرن الثعابين فتختفي ، والأطفال يرقصون رقصات غاية في الفجور . . . وفي المساء ظهر الدراويش ، والشعب يجلس هؤلاء المتعصبين الذين يطلقون شعورهم ويسيروا عراة تقريبا . . . واجتمع الأتقياء في حلقات يجلس فيها الرجال متلاصقين وقد عقد كل منهم ذراعه بذراع صاحبه . ثم بدأوا يهتزون في حركة عنيفة ذات اليمين وذات اليسار ، حتى خارت قواهم » (٣٦) .

أما قائد الحملة ، بوناپرت ، فقد كتب الى حكومة الادارة يوم دخوله

---

(٣٤) المرجع السابق ١٨٩ ، والوصف لفرنسي آخر هو دينون . ويلاحظ ان معظم الرحالة الأوروبيون وصفوا الرقص في مصر بأنه بدى يخدش الحياء . ( راجع كلوت بك ٢ : ١٢٨ ، وادوارد لين ، ونيبور ١ : ١٤٢ ، ووسائل فلوير ) . بيد أن نيبور يضيف أن استنكار الشرقيين لرقص الأوروبيين مع النساء ليس أقل من استنكار الأوروبيين لبذاءة الرقص الغربي، ويقول ان أحد الأتراك الذين شهدوا الكرنفال بإيطاليا ظن أن الأوروبيين يصابون بمس من الجنون في موسم معين من السنة !

(٣٥) راجع في مقابل ذلك وصف كراهة المصريين للموسيقى الغربية في كلوت بك ٢ : ١٢٤ ونيبور ١ : ١٣٢ - ١٣٣ . وقد صرح أحد المصريين لنيبور بقوله : « موسيقاكم هوجاء بغيضة ، ولا يمكن لماقل أو وقور أن يستمتع بها » . أما جيراردو نيرفال ١ : ١٢٧ فيصف الموسيقى المصرية بأنها « نغمات حزينة من آلات تحاكي صرير الأبواب أو صوت عربة تجر عجلات جديدة » !

(٣٦) « بوناپرت في مصر » ٢٠٧ .

أكثر من ثلاثمائة ألف نفس تضم أقبح ما تضم مدينة من غوغاء» (٣٨) .  
القاهرة يقول : « من الصعب أن يجد الإنسان بالدا أكثر غنى ، وشعبا أشد  
بؤسا وجهلا وضراوة » (٣٧) . وفى رسالة أخرى : « ان القاهرة التى يسكنها  
غير ان صدمة اللقاء الأول لدى كل من الطرفين ما لبثت حداثتها ان  
تضاءلت (٣٩) . فالجندي الفرنسى الذى يقال ان ابراهيم بك صوره المصريين  
على انه « شيطان طول أطافره قدم » ، تبينوا أنه فتى طيب القلب  
ما لم يستفز ، قليل الاعتداد بكرامته ، ظمآن للشراب . ولا شك أنه قد  
راعهم ان يجدوا القائد بونابرت يحضر أمامه جنديا فرنسيا انزع خنجره  
من عربى مسالم ، فيامر باعدامه بالرصاص فورا . وأما الوجوه التى تقز  
الميجور ديتروا منها عند قدومه ، فقد كتب عنها لويس بونابرت فى رسالته  
المشار إليها يقول : « أما طلعتهم فمهيبة ، وسحننا نحن ، حتى أقواها  
وأبرزها ملامح ، تبدو كوجوه الأطفال اذا قيسست بسحنهم » . ويعلق الجندي  
مبيه على ثياب القوم بقوله : « قد يبدو زى الأهالى لأول وهلة عديم الشكل .  
ولكنى بعد ان تأملته جيدا أدركت أنه أكثر وقارا من زيننا » (٤٠) . بل انه

(٣٧) المرجع السابق ١٤٠ .

(٣٨) المرجع السابق ١٨٧ .

(٣٩) كان أهل الاسكندرية دون سواها كبرى الإحاطة بأحوال الإفريق المتوردين عليها  
المنجارية . ويقول نيبور ١ : ٣٦ - ٣٧ انه لم يصادف فى أى مكان مثل ذلك العدد العفر من  
الناس - كما بالاسكندرية - ممن يلبسون الماسا سلبا باللفات الأوروبية . حتى لفات أوروبا  
الشمالية . « وقد تعود سكان الاسكندرية الالتحاق كبجاره فى سفن المسبحين . وبعد ان  
بروا العالم ويملكون بعض اللغات . يعودون الى وطنهم ويصبحون رسلا او مترجمين للأمم  
الى خدمتها . » ( والواقع ) ان المصريين الماصرين أصح من غيرهم من المساحين للمعامل  
التجارية مع الأوروبيين حيث أنهم أقل ، بلقا بأحكام دينهم وعاداتهم » .

(٤٠) « بونابرت فى مصر » ١٠٠ - ١٠١ . وقد أتى دور أيضا أعجابه الشديد بالسلطة  
المجلىة التى يستمد بها رقى المصير من قوى فزون بكسره فطمح الرى الأوروسى . ويقول ان عروس  
الغايوس السحرى فى مصر « دائما تتناول ملابس الأوروبيين وعاداتهم بالمسحة » . وأن  
الأوروبيين كانوا يحرصون للشهائيات فى مصر بسبب هذا الرى الا فى الاسكندرية لمود

حتى اللواط بالاكراه الذى تعرض له من وقع من الفرنسيين فى أيدي البدو .  
والذى أثار دهشتهم فى البداية وقلل من اعجاب تلاميذ روسو برجل  
الطبيعة ، ما لبثوا أن تقبلوه على أنه من الأخطار التى يتعرض لها المحاربون  
فى بلاد الشرق (٤١) .

« ومشت الفرنسيات فى الأسواق من غير سلاح ولا تعد ، بل صاروا  
يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه بأعلى ثمن ٠٠٠ قياسا على  
أسعار بلادهم ، وأمان بضائعهم . فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم .  
واطمأنوا لهم ، وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج  
٠٠٠ وفتح غالب السوق الحوانيت والمقاهى ٠٠٠ ثم ان عساكرهم صارت  
تدخل المدينة شيئا فشيئا ، حتى امتلأت منهم الطرقات ، وسكنوا فى  
البيوت ، ولكن لم يشوشوا على أحد ، ويأخذون المشتريات بزيادة عن  
ثمنها . ففجر السوق ، وصغروا أقراص الخبز وطحنوه بترابه ، وفتح الناس

أهلها على مشاهدة الفرنج ١ : ٢٤ ثم ١٤٤ - ١٤٥ . ويقول نيرفال ١ : ٢٢٢ ان اللباس  
الأوروبى يبدو مسخيا فى نظر الشرقيين لدرجة أنهم يحتفظون دائما فى المدارس بقبعة افرنجية  
يضعونها على رؤس الأطفال الكسالى أو غير المطيعين . وهى بمثابة الطرطور بالنسبة للتلميذ  
التركى .

(٤١) والظاهر ان اللواط الذى عرفه الفرنسيون فى مصر لم يكن كله بالاكراه ! فالجبرى  
يحكى عن علاقة بين الشيخ الخشاب سكرتير الديوان بشاب فرنسى « من رؤساء كتابهم كان  
جميل الصورة ، لطيف الطبع ، عالما ببعض العلوم العربية ، مائلا الى اكتساب النكات  
الادبية ، فصيح اللسان بالعربى ، يحفظ كثيرا من الشعر . فلتلك المجانسة مال كل منهما  
للآخر ، ووقع بينهما توادد وتصافى ، حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر . فكان  
( الخشاب ) تارة يذهب لداره ، وتارة يزوره هو » . وأورد الجبرى بعض ما نظمه الخشاب من  
« الغزل الفائق » فى هذا الشاب ، ومنه :

فيه خلعت عذارى بل حلا نسكى  
مضى اذديارك لى أديك من ملك  
لسانه ، وهو يثنى الجيد من ضحك  
منه عساكر ذلك الأسود الحلك

علقت له لؤلؤى الثغر باسمه  
ملكته الروح طوعا . ثم قلت له  
فقال لى وحييا الراح قد علقت  
إذا غزا العجر جيش الليل وانهمزمت

« عجائب الآثار » ٧ : ٣٣٧ .

عدة دكاكين بجوار مساكنهم ، وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة ، وخمائر وقهاوى ، وفتح بعض الأفرنج البلديين (٤٢) بيوتا يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائقهم فى بلادهم (٤٣) . . . . . ويعمل على بابه علامة لذلك . . . . . فيدخلون الى ما يريدون من المجالس ، وفى وسطه دكة من الخشب ، وهى الخوان التى يوضع عليها الطعام ، وحولها كراسى فيجلسون عليها ، ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم ، فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه . وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ، ويذهبون لحالهم « (٤٤) » .

وقد شغف الفرنسيون من مدنيين وعسكريين على السواء بركوب الحمير ، « فان للفرنسيين بذلك عناية عظيمة ومغالة فى الأجرة ، بحيث أن الكثير منهم يظل طول النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أن يجرى بها مسرها فى الشارع ، وكذلك تجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمير ويجهدون فى المشى والاسراع ، وهم يفتنون ويضحكون ويتمسحرون ، ويشاركهم المكارية فى ذلك » (٤٥) .

ويشرح الرسام ريجو فى سلسلة من الدراسات حول الطبيعة والبشر فى مصر ، فيلفت نظره ملامح « قائد قافلة نوبية يدعى عبد الكريم لشدة وضوح الخلق النوبى فى هيئته . فعزم ريجو على رسمه وشرع فى اجتذابه الى منزله . . . . . وبعد مفاوضة طويلة جاء عبد الكريم الى حجرة رسم ريجو مصحوبا بحاشية من مواطنيه يبلغ عددها قرابة عشرة أشخاص ، ومتخذاً

(٤٢) يقصد بالأفرنج البلديين من كانوا مقبين منهم بصر وقت وصول الحملة .

(٤٤) يمتن الطعام .

(٤٤) عجائب الآثار ٤ : ٣٠١ - ٣٠٤ .

(٤٥) المرجع السابق ٥ : ١٧ - ١٨ .

احتياطات رجل قد اقتنع بأنه جذب إلى فخ ٠٠٠ وأظهر النوبى رضاه عن الرسم التخطيطى ، وكان يشير بإصبعه إلى أجزاء الرسم ، وهو فى الحجم الطبيعى ٠٠٠ ويقول « طيب » . ولكن حين أتم الفنان التلوين كان الأثر مخالفا لهذا تماما ، فلم يكده عبد الكريم يلقي بصره على الرسم حتى تراجع بعنف وهو يصيح صيحات الفزع ٠٠٠ وفتح باب حجرة الرسم وهرب بأقصى سرعة ٠٠ وقال فى الحى انه قادم من بيت أخذوا فيه منه رأسه ونصف جسمه ! « (٤٦) » .

ويطلع المصريون شيئا فشيئا على عادات القادمين الغرباء ، ويتبنى بعضهم - خاصة القبط - بعض هذه العادات . وقد جمع يعقوب القبطى الذى جعله الفرنسيون « سارى عسكر القبطه » جمع شبان القبط ، وحلق لحاهم ، وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية ، مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة . مع ما يضاف اليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم ، وصيرهم عسكره وعزوته ٠٠ وبنى له قلعة ٠٠ رتب على أبوابها ٠٠ عددا من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على الطريقة الفرنساوية « (٤٧) » . كما شرع الفرنسيون فى تدريب بعض المغاربة على « كيفية حربهم وقانونهم » ومعنى اشاراتهم فى مصافاتهم « للاستعانة بهم فى جيشهم » . فيقف المعلم والمتعلمون مقابلون له صفًا ، وبأيديهم بنادقهم ، فيشير اليهم بالفاظ بلغتهم ، كان يقول « مردبوش » فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها ، ثم يقول « مرش » فيمشون

(٤٦) « كورسه دو لسجيت » عدد ٢٥ . والقصة نذكرنا بقوله صامويل حونسون فى

خطاب له الى بوزويل بتاريخ ١٧٨٠

(٤٧) عجائب الآثار : ٥ : ٢٣٩ .

«There is a superstitious reluctance to sit for a picture»



صفوناً (٤٨) .

أما العلماء والمشايخ فإنهم بعد تحققهم من انتصار الفرنسيين ، اجتمع عدد منهم بالأزهر للتشاور ، ثم اتفقوا على ارسال رسلهم الى بونابرت للاستفهام عن قصده . « فقال ( لهم بونابرت ) على لسان الترجمان : وأين عظمائكم ومشايخكم ؟ لم تأخروا عن الحضور الينا لترتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ وطمنهم وبش في وجوههم . ثم قال : لابد أن المشايخ يأتون الينا لترتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور . ولما رجع الجواب بذلك ، اطمأن الناس ، وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومي وآخرون الى الجيزة ، فتلقاهم ( بونابرت ) وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فاعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال : لى شىء يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ، ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة . فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والامان . فحضروا الى مصر ، واطمأن يرجوعهم الناس ، وكانوا فى وجل وخوف على غيابهم (٤٩) .

ويبذل الفرنسيون جهدا صادقا للتقرب من الشعب ، خاصة المشايخ والأعيان . والواقع أنه رغم ما ذكره ادواردلين (٥٠) عن أن أبرز جانب من شخصية المصريين هو الاعتزاز بدينهم ، والايمان بسموه فوق سائر العقائد ، وأنهم ينظرون الى غير المسلمين على أنهم ضائعون جديرون بالاحتقار ، ( و « يقرنون اشارتهم الى غير المسلمين بشتائم مثل الكلب أو الكافر » ) (٥١) ،

(٨) : المرجع السابق : ٤ : ٣٣٦ .

(٩) : المرجع السابق : ٤ : ٢٢٩ - ٣٠٠ .

(٥٠) «Manners and Customs of Modern Egyptians» طبعة Everyman's

ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٥١) كلوت بك ٥٥٣ .

فهم متسامحون معهم بقدر احتقارهم لهم ، يعاملون المسيحيين - خاصة ان كانوا أوروبيين - بأدب ، ويحادثونهم فى ود ظاهر يخفى ما قد تكنه بعض القلوب سواء بدافع الأدب أو المصلحة .

ففى رمضان « صار الفرنساوية يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للافطار والسحور ، ويعملون لهم الولائم ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعاداتهم ، ويتولى أمر ذلك الطباقون والفراشون من المساكين تطمينا لخواطرهم ، ويذهبون هم أيضا ويحضرون عندهم الموائد ، ويأكلون معهم فى وقت الافطار ، ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم . ووقع منهم من المسايرة للناس وخفض الجانب ما يتعجب منه . والله أعلم » (٥٢) .

وفى العيد « ركب أكابر الفرنسييس وطافوا على أعيان البلد ، وهنؤهم بالعيد ، وجاملهم الناس بالمدارة أيضا » (٥٣) . وسال صارى عسكر ( بونابرت ، المشايخ ) عن المولد النبوى ، ولماذا لم يعملوه كماداتهم . فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال ، فلم يقبل ، وقال : لابد من ذلك . واعطى لهم ثلثمائة ريال فرانساً معاًونة ، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل . واجتمع الفرنسيات يوم المولد ٠٠٠ وضربوا طبولهم ودبأدهم ٠٠ وعدة آلات ومزامير مختلفة الاصوات مطربة ، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسوارينخ تصعد فى الهواء » (٥٤) . وبعد ذلك بأيام أمر بونابرت بتشهيل مهمات الحج .

ويدرك الفرنسيون سريعا مدى شغف المصريين بالاحتفالات العامة

(٥٢) عجائب الآثار ٥ : ٢٥ .

(٥٣) المرجع السابق ٥ : ٢٦ .

(٥٤) المرجع السابق ٤ : ٣١٠ .

بسبب قلة صلاتهم الاجتماعية ووسائل لهوهم ؛ فباتوا يحرصون على اشراكهم فى احتفالاتهم هم . وفى ذكرى قيام جمهوريتهم أقاموا احتفالا ببركة الأزبكية ، « وضربوا فى صبيحته مدافع كثيرة ٠٠٠ وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم ٠٠٠ واصطفوا صفوفًا على طرائقهم المعروفة بينهم . ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين ٠٠٠ ثم ان العساكر لعبوا ميدانهم ، وعملوا هيئة حربهم ، وضربوا البنادق ، وقرأ عليهم كسير قسوسهم ورقة بلغتهم لا يدري معناها الا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ (٥٥) ٠٠٠ ورجع صارى عسكرى الى داره فمد سباطا عظيما للحاضرين ٠٠٠ وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسوارينج » (٥٦) .

وقد اضطر المشايخ فى وليمة بونايرت - لأول مرة فى الغالب - الى الأكل بالشوكة والسكين (٥٧) .

مثل هذه الاحتفالات كان بونايرت يرى فيها فرصة لربط الشعب المصرى بالعادات والنظم الفرنسية . وقد شاء ، بما أوتيهِ من طبيعة بهلوانية ، أن يذهل القاهريين ، فأمر بأن تلصق فى الأسواق أوراق مطبوعة « مضمونها : أن فى يوم الجمعة ( أول ديسمبر ١٧٩٨ ) قصدنا أن نطير مركبا ببركة الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية (٥٨) . فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم . فلما كان ذلك اليوم قبل العصر ، تجمع الناس ٠٠٠

---

(٥٥) لم تكن هذه المظلة سوى الخيمة سوى اعلان من بونايرت الى المشى فراء أحد ضباطه ( راجع وصف صحيفة « كورس دو ليجنس » للحفل ) .

(٥٦) « عجائب الآثار » ٤ : ٣١٦ .

(٥٧) « بونايرت فى مصر » : ٢١٢ .

(٥٨) المقصود هنا اطلاق بالون فى الجو . وكان الفرنسيون قد عبروا الماشى قبل ذلك فنه عدة مرات . أما فى هذه المناسبة التى يحدث عنها الجبرى فقد أطلعوه خالدا من الركاب « لأن أحدا لم يرد الطلوع بطيران قد يحط به وسط خيام البدو ! » ( « بونايرت فى مصر » : ٢١٢ - ٢١٣ ) .

ليروا تلك العجيبة ، وكنت بجمالتهم ، فرأيت قماشاً على هيئة الأوية على عمود قائم ، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دائرة الغربال ، وفي وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان ، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها الى الدائرة ، وهي مشدودة ب بكر وأحبال ، وأطراف الأحبال بأيدي أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها . فلما كان بعد العصر بنحو ساعة ، أوقدوا تلك الفتيلة ، فصعد دخانها الى ذلك القماش وملاه فانتفخ ، وصار مثل الكرة . وطلب الدخان الصعود الى مركزه فام يجد منفذاً ، فجذبها معه الى العلو ، فجذبوها بتلك الأحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض ، فقطعوا تلك الحبال فصعدت الى الجو مع الهواء ، ومشت هنيئة لطيفة ، ثم سقطت طارتها بالفتيلة ، وسقط أيضاً ذلك القماش ، وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المبصومة (٥٩) . فلما حصل لها ذلك انكشف طبعهم لسقوطها ، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ، ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات . بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح» (٦٠) .

وكبار المشايخ أيضاً يولون الولائم لبونابرت وكبار رجال حملته .  
- فالشيخ المهدي يدعوهم الى حفل عرس أحد أولاده (٦١) ، والشيخ البكري يدعوهم للعشاء عنده في ذكرى المولد النبوي (٦٢) . وقد أوردت صحيفة « كوربيه دوليجيت » وصفا مفصلاً للوليمة التي أومها الشيخ السادات

(٥٩) منشورات مطبوعة .

(٦٠) « عجائب الآثار » : ٤ : ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٦١) المرجع السابق : ٥ : ٧٤ .

(٦٢) المرجع السابق : ٥ : ٨٠ .

للجنرال بونايرت وصحبه بمناسبة مولد السيدة زينب . قالت الصحيفة :

« وفي المنظرة ، قدم الطعام على عدة صوان سهاة الحمل والنقل ، يستطيع عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصا أن يصطفوا حولها . وكانت حافة هذه الصواني محلاة بكمية كبيرة من خبز رخو ، قليل السمك ، منتفخ كالعجة ، وباطباق من الخضر الباردة استمرت مكانها طوال وقت تناول الطعام . أما مركز الصواني فقد شغل على التوالى بحوالى ثلاثين طبقا قدم الواحد تلو الآخر بسرعة ، ولم يستمر أحدها فى مكانه أكثر من دقيقتين . فكان طبق من اللحم يرفع ليحل مكانه طبق من الخضر أو من الحلو أو من الزبد . . . . . وحين فرغت هذه السلسلة ، قدم أرز بلبن من أنواع مختلفة . . . . . وتبع الحشاف بأنواعه هذا الأرز ، وهو لا يشبه فى شيء المشروبات المثلجة التى نناولها فى أوروبا ، فهو ماء مسكر وضمت فيه بعض الروائح العطرية مع بعض الفاكهة مثل الموز ونواة الفستق . . . . . »

« وكان الطعام قد قدم وتبع بالأحاديث . . . . . قال الجنرال بونايرت للشيوخ ان العرب كانوا قد ازهروا العلوم والفنون التى عرفت أيام الخلفاء ، ولكنهم أصبحوا اليوم فى جهل مطبق ، ولم يتبق لهم شيء من معارف أجدادهم . فاجاب الشيخ السادات بأن القرآن بقى محتويا على كل المعارف . فسأل الجنرال عما اذا كان القرآن يعلم كيف يصهر المدفع . فاجاب كل الشيوخ الموجودين بجرأة أن نعم ، (٦٣) . »

غير أن الحديث عن هؤلاء المشايخ والعلماء المصريين ، وعن علاقة الفرنسيين بهم ، يحتاج الى بيان واف .

---

(٦٣) كوربيه دو ليجيب - العدد ٢٢ ص ٢ ، والترجمة من كتاب « تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية » للدكتور ابراهيم عبده - مكتب الآداب بالقاهرة - طبعة ١٩٤٩ .

## الركود الفكرى فى ظل العثمانيين

قبل أن يبرز فجر عصر النهضة فى أوروبا ، كان الشرق والغرب يكادان أن يسيرا متحاذيين • ثم جاءت النهضة فإذا الغرب يأخذ مجرى حضاريا مبائنا ، يقفز فيه الى الأمام قفزات مفعمة بالنشاط والحيوية والتطلع ، ويضع أسسا جديدة لحياة جديدة قوامها تحكيم العقل ، وتحرير العواطف من قيود التقاليد ، واخضاع كل قضية للبحث والتجربة والمناقشة ، فى حين انحسر المد الشرقى فى مجالات العلوم والآداب والصناعة وسائر ضروب الحضارة • وبمضى السنين والقرون ، عظمت الفجوة بينهما ، وزاد انفلاق الشرق على نفسه فلم يتصل بالغرب الا اتصالا عذائيا حربيا ، أو اتصالا تجاريا ضعيف الأثر ، فلم تسر اليه عبر الحواجز والأبواب الموصدة عدوى ما يحدث فى الغرب من تغييرات غيرت وجه حياته تغيرا شاملا •

وفى رأينا أنه لولا هذا الانفلاق ، لأخذ التأثير المتبادل بين الجانبين طريقا صحيحا مشرا ، ولتحقق التطور فى الشرق على نحو متدرج يتسم بالتمييز والتمثل الهادى غير المتعجل أو الأهوج ، ولما أطارت الصدمة العنيفة التى حدثت عند العودة المفاجئة الى الاتصال ، لب الشرقيين ووقارهم ، وأفقدتهم توازنهم وثقتهم فى أنفسهم ، حين رأوا من الغرب فى ميادين العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب ، انجازات • لا تسعها عقول أمثالنا (٦٤) •

\* \* \*



كانت الكوارث المتلاحقة التى شهدها المصريون ، من تدمير وخراب وفقر وطواعين ، قد قتلت نفوس افراد الشعب ، بينما قتل السجن والتعذيب نفوس اصحاب اية دعوة جريئة غير مألوفة من العلماء ، وكان رجال الدين الذين يحترمهم الشعب البائس ويسمع لأوامرهم ونواهيهم ، يسخرهم الحكام كيفما شاءوا . فكان الصمت والاستسلام ، وكان الاعتقاد بأن الظلم من غضب الله ، والفقر قدر مكتوب ، وبقي أمر الفكر فى يد الفقهاء والصوفية ، الفقه قد تحول الى شكل ، والتصوف الى شعوذة ، وكان هؤلاء جميعا قادة الشعب روحيا ، والحكام الطغاة قاداته اداريا ، وتصالح هؤلاء وهؤلاء على اماتة نفسية الشعب .

واستمر المصريون فى ظل حكم العثمانيين فى دائرتهم المغلقة ، يحاكون حياة الشرق الاولى من غير روح ، فذهبت الحياة الفكرية فى البلاد ، واصبح طابع نتاجها طابع تقايد للسابقين ، او جمع لما قال الاولون ، ثم اذا هو قد اضحى تقليدا للتقليد ، وصورة ممسوخة لادب ممسوخ ، ونفسا ينبعث من صدر شيخ فان ، او حركة معادة كحركة الماء على سطح البحيرة الراكدة . وقد نهب العثمانيون عند فتحهم مصر خزائن كتبها القيمة ، ونقلوا كثيرا من الادباء والعلماء والمهندسين والوراقين وارباب الصناعات الى بلادهم . وكان الجو السياسى والاجتماعى فى عهدهم خانقا ، وعيشة الشعب ضنكا ، مما لم يترك فضل طاقة لفكر او غيره . واذا لم يكن فى الدولة العثمانية باسرها حتى وقت مجيء الحملة الفرنسية سوى مطبعتين ، ليس فى مصر واحدة منهما ، واذا كان انتشار القراءة والكتابة محدودا لا يحسنهما غير بعض المشايخ والاقباط ، لم يكن بوسع الادباء أن يعتمدوا فى الكسب على غير من بيده مقاليد الأمور من الحكام . غير أن مقاليد الأمور كانت قد اضحت فى ايدى اترك حولوا الدواوين الى اللغة التركية ، لا يحسنون

العربية ، ولا يفرقون بين البليغ والأنوك ، ولا يشذوقون أدبا ، بل ولا يشيبون شاعرا مادحا الا عن تقليد . فليس عجيبا اذن أن تتقاصر الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة (٦٥) .

صار الأدب فى عصرهم فاتر الحرارة مهلهل النسج . قد ظن أهله أن قيمته فى كثرة حايته ، فأقبلوا يتفننون فى زيادة هذه الحلية حتى ثقلت عليه وأعجزته عن الحركة وأفقدته روحه . فأما الشعر فكان تقليدا ، يقرأ « الشاعر » من المتأخرين ما تصل اليه يده من دواوين السابقين ، ويستل معانيهم ، ويصوغها صياغة من عنده هى فى الأغلب أقل قيمة من صياغة من سبقه وإن زاد فى حليتها . وهو يقلد وإن لم يذق ، يكون رجس دين فيتغزل فى الخمر ، وعفيفا فيتغزل فى الغلمان ، وفى وسط المدينة فيبكي الأطلال . وإذا فقد المعانى والعواطف عمد الى الزينة يفرط فيها لتكون عوضا عما فقد . وتسابق الشعراء فى استكشاف أنواع البديع وتسميتها حتى أوصلوها الى أكثر من مائة وأربعين نوعا . كما أكثروا من المقطعات فى وصف الأشياء المألوفة ، كوصف سجادة أو مسبحة ، وفى الحوادث التى تعرض كوصف سقوط مئذنة وقتل زنديق ، ومن الأبيات فى الأغاز وغير ذلك من الموضوعات التى لا يمكن أن تتمتع بروح شاعرية عالية . وزاد اتجاه الشعراء الى المدائح النبوية بسبب ما غلب على الناس من الالتجاء الى الدين لفساد الدنيا ، وبسبب شيوع التصوف وما حرموه من عطاء الأمراء على مدائحهم ، فأصبح كل شاعر يرى واجبا عليه أن يقول فى هذا الباب .

وأما الشطر الأكبر من النثر الفنى فكان عبارة عما يسمى بالآخرانيات ، وهى فى العادة مكاتبات بين أصدقاء من الكتاب فى عتاب أو اعتذار أو تعزية

---

الأدب فى العالم ، لاجد أمين وزكى نجيب محمود . لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٤٥ .

(٦٥) راجع فى هذا الموضوع الفصل الرابع عشر من الجزء الثانى من كتاب « قصة

او تهنئة او شكر على هدية ، يلتزمون فيها السجع ويفرقون فى البديع ، ويراعون الشكل اللفظى أكثر من المعنى والموضوع ، بل وقد يديرون المعنى ليتفق مع البديع والسجع . فان تجاوزنا الاخوانيسات نجد الفلسفة قد اهتمت تماما باعتبارها نمطا من الزندقة ، ونجد حركة التأليف حركة دينية بحتة ، يؤلف العلماء فى التفسير والحديث والفقه للباعث الدينى ، وفى اللغة والنحو والصرف باعتبارها من وسائل فهم القرآن والحديث . وكان كثير من العلماء البارزين شيوخا فى الأزهر وغيره من المساجد والمدارس يتعيشون على أوقافها ، ويقراءون من كتب مكتباتها يستعينون بها على التأليف .

وكان فى ذلك العصر نوع من الشعر الشعبى ، هو الموشحات والأزجال والدوبيت والمواويل ، تحرر من التقيد باللفظ الفصيح والنحو السليم والقوافى والأوزان . وكان هذا النوع أكثر قبولا عند العامة ، بل وبعض الخاصة ، وأنبض بالحياة . وترى لهذا الشعر العامى امثلة كثيرة فى القصص الشعبية من أمثال سيرة عنتر ، وقصة أبى زيد الهلالي ، وقصة الأميرة ذات الهمة والظاهر بيبرس والوزير سالم والزنتى خليفة ، ثم ألف ليلة وليلة ، وهو كتاب لم يعره أدباء العربية التفاتا الا بعد أن ذاع فى أوروبا وقدر هناك تقديرا كبيرا . وكانت هذه القصص تسلى جهود الشعب وتغذى خياله وعواطفه ، يقرؤها من يعرف القراءة ، ويستمتع اليها الناس فى المقاهى والدور من قارئین يحترفون قراءتها . وهى - وإن فضلت المقامات من ناحية فنها - لا تعد راقية أمام الذوق الفنى المهذب . ونلاحظ فى ذلك العصر بوجه عام انفصالا شديدا بين أدب الخاصة وأدب العامة ، فى الوقت الذى بدأت الهوة بينهما تضيق فى الأدب الغربى .

ومن ناحية أخرى نجد الناس فى مصر وقد راوا من غير الممكن الاستمتاع

بالحياة فى ظل ظلم الحكام واختناق الحريات السياسية والاجتماعية والفقر السائد ، قد غرقوا فى التفكير فى الآخرة الى حد التخريف ، وفشا التصوف سواء بين الخاصة والعامة ، وكانما صار امامهم فى السماء بعد أن يثسوا من العدالة فى الأرض . ولم يجرؤوا أن يشوروا فى وجه الحكام ، بل قنعوا بالسلامة فى ظل الأمل . وضعفت عقولهم عن التمييز بين الحق والباطل ، فملأوا التصوف بالأوهام ، بل وأدخلوا فيه ما لم يفقدوه من حب اللهو ، فكان فيه الغناء والموسيقى والرقص والعباب البهلوان . وامتلات البلاد بآرباب الطرق ومشايخ الصوفية ومدعى الولاية ، كما امتلات كتب أئمة الصوفية ، كالشعرانى وغيره بالحكايات عن مشاهداتهم الروحانية ، وأحاديثهم مع الملائكة والأنبياء ، بينما كان المشعوذون « يدورون فى الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون » . وتعتقدهم العامة « (٦٦) » ، مما أثار ثائرة الفرنسيين عند قدومهم ، فأودعوا بعضهم فى المارستانات ، وتخلصوا من الباقين باخراجهم من البلد .

## ٥

### قادة الراى العام

من حكم العرب : « شر الأمراء أبعدهم من العلماء ، وشر العلماء أقربهم الى الأمراء » . والواقع أنه لولا أن الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » لم يقتصر على الحديث عن مشاهير مشايخ عصره وعلمائه من القرييين الى السلطة ، وخلف لنا صورا مشرقة لبض العلماء المغمورين ممن فروا بعلمهم ودينهم من شرارك المال والجاه والسلطان ، وفضاوا حمول الذكر على الاتجار بالحياء ، ولولا أن حياة هذا المؤرخ الفذ نفسه وخلقه ودينه هى أنصغ

صورة للعالم الشريف الحر شهدها الفكر المصري الحديث ، لخرجنا من دراسة تاريخ ذلك العصر والعصر الذي تلاه ، بانطباع غير جميل البتة عن خلق أهل العلم ورجال الدين فى زمنه .

فان نحن اخترنا ، كأمثلة نستدل بها على ما نقول ، خمسة من أبرز المشايخ الذين عاصروا الحملة الفرنسية ( وأربعة منهم أعضاء فى الديوان ) . نجد الشيخ خليل البكرى مشهورا بين الناس « بالرعونة وبارتكابه أمورا غير لائقة » (٦٧) ، مشغولا بهوى الفلمان (٦٨) . ويروى أحد مماليكه - وهو رستم رضا الذى أصبح فيما بعد مملوكا لبونا برت واصطحبه بونا برت معه الى أوروبا - أن الشيخ البكرى ألف كل ليلة أن يشمل بشرب خمر مزجت فيه زجاجة من البرجندى بأخرى من البراندى (٦٩) . فلما وصل الفرنسيون ، وفر السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الى الشام ، تداخل الشيخ معهم تداخلا قبيحا وخضع لهم ، فجعلوه من أعظم رؤساء الديوان ، « وافر الحرمة ، مسموع الكرامة ، مقبول الشفاعة عندهم » ، وقلدوه نقابة الأشراف التى كان يطمع اليها منذ زمن . فما تقلدها حتى استولى على وقفها وايرادها . وكانت له ابنة تدعى زينب ، كانت وقت دخول الفرنسيين فى نحو السادسة عشرة ، « خرجت عن طورها فى أيام الفرنسيين » (٧٠) ، وقيل انها « كانت تذهب الى الفرنسيين بعلمه » ، كما قيل فى رواية ينقصها السند الكتابى انها أصبحت لفترة من الفترات عشيقة لبونا برت ، وأنها عرفت فى أيام مجدها بفتاة القائد المصرية (٧١) .

(٦٧) « عجائب الآثار » ٧ : ٥٠ - ٥٢ .

(٦٨) الجبرى . « مظهر التقديس مذهاب دولة الفرنسيين » لجنة البسان العربى بالقاهرة . ١٩٦٩ ، ص ٣٣٤ .

(٦٩) بونا برت فى مصر : ٢٥٥ .

(٧٠) « عجائب الآثار » ٧ : ٥٠ - ٥٢ .

(٧١) بونا برت فى مصر : ٢٨٢ .

أما الشيخ سليمان الفيومي (٧٢) ، فكان « في أول عمره يمشى خلف حمار الشيخ الصعيدي » ، ثم « اختلط ببعض الأعيان ٠٠٠ وبهم توصل الى نساء الأمراء والسعى في حوائجهم وقضاياهم وصار له قبول زائد عندهم ٠٠٠ وتجمل بالملايس وركب البغال واحدق به المحدثون ، وتزوج بامرأة ٠٠٠ سكن بدارها فماتت فورثها ، وبنى له دارا عظيمة بحارة عابدين واشتهر ذكره ٠٠ واقبلت عليه الهدايا من الأمراء والحريكات والأغوات والأقبساط وغيرهم واعتنوا بشأنه ، وزوجته الست زليخا زوجة ابراهيم بك الكبير بنتت عبد الله الرومي ، وتصرف في أوقاف أبيها ٠٠٠ وكان يدخل الى بيت الأمير ، ويعبر الى محل الحريم ، ويجلس معهم وينسرون بدخوله عندهم » . ولما « طرقت الفرنسية البلاد وأخرجوا منها الأمراء ، خرج النساء من بيوتهن وذهبن اليه أفواجا أفواجا حتى امتلات داره وما حولها من الدور بالنساء ، فتصدى لهن وتداخل في الفرنسية ، ودافع عنهن ، وأقمن بداره شهورا ٠٠٠ وأحبه الفرنسية أيضا وقبلوا شفاعاته ويحضرون الى داره ويعمل لهم الولائم ٠٠٠ واستمر معهم في وجاهته الى أن انقضت أيامهم » . ويقول الجبرتي انه كان قليل البضاعة في العلم ، وأنه حين مات في أوائل عصر محمد علي ، وخرجت جنازته ، « كان جمع النساء خلفه كجمع الرجال في الكثرة » .

وأما شيخ الاسلام والمسلمين عبد الله الشرقاوي (٧٣) ، شيخ الجامع الأزهر ورئيس الديوان في عهد بوناپرت ، فقد بدأ حياته متصوفا ، ثم « حصل له وله واختلال في عقله ، ومكث بالمارستان أياما ثم شفى » . وكان كلما ارتفع شأنه يزيد في تكبير عمامته وتعظيمها حتى كان يضرب بعظمها .

(٧٢) راجع ترجمته في « عجائب الآثار » ، ٧ : ٨٦ - ٨٩ ، ومنها اقتبسنا ما سبل .

(٧٣) راجع ترجمته في « عجائب الآثار » ، ٧ : ١٨٩ - ١٩٦ .

المثل « . فلما حضر الفرنسيون واختير رئيسا للديوان « انتفح في آياهم بما يتحصل اليه من المعلوم المرتب له عن ذلك ، وقضايا وشفاعات ابعض الأجناد المصرية ، وجعالات على ذلك ، واستيلاء على تركات وودائع خرجت من أربابها في حادثة الفرنساوى وهلكوا ، واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها « . وكانت زوجته « هى التى تدبر أمره ، وتحرز كل ما ياتيه ويجمعه ، ولا يروح ولا يغدو الا عن أمرها ومشورتها . . . وكانت قبل زواجه بها فى قلته من العيش ، فلما كثرت عليه الدنيا ، اشترت الأملاك والعقار والحمامات والحوانيت « . ويضيف الجبرتى قوله ان الشرقاوى الف كتابا فى تراجم الفقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين ، نقل تراجم المتقدمين منهم من «طبقات الشافعية» للسبكي والاسنوى ، « وأما المتأخرون فنقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد « ! وعندما مات ، « وضعوا على تابونه عمامة كبيرة اكبر من التى كان يلبسها فى حياته بكثير « !

وأما الشيخ السادات (٧٤) فكان قد قرأ القرآن وتولع بطاب العلم ، ومهد أحواله مع من يخشى صولته ومعارضته من الشيوخ وغيرهم ، فانتظم أمره واحسن سلوكه بشهامة وحشمة مع الأشياخ والأقران ، وتحبب الى أرباب المظاهر والأكابر ، « كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية وما يتوصل به الى كثرة الأيراد بحسن تداخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار . . فلما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ويخضع لهم ويتأدب معهم ( وكانوا على طرائق الأقدمين فى العفة والانجماع عما يخل بتعظيم العلم وأهله والتباعد عن بنى الدنيا الا بقدر الضرورة ) ، وخلف من بعدهم من هم على خلاف ذلك وهم أعظم مدرسى الوقت ، احدثوا به واكثروا

من التردد عليه وعلى موائده ، وبالغوا في تعظيمه وتقبييل يده ، ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا في صلاته وجوائزه القليلة وحصول الشهرة لهم وزوال الحمول ، والتعرف بمن يتردد الى داره من الأمراء والأكابر ، وصار منهم من اذا دخل عليه « وحصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبي على ركبتيه ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه » . فأصبح « لا يريهم فضلا بسعيهم اليه ، ويزداد كبرا وتيها ، وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم اذا دخل عليه » . واذا دخل عليه أقباط أو كبار المباشرين وقبلوا يده « وخاطبهم في أشغاله وهم قيام وانصرفوا ، طلب الطست والابريق وغسل يده بالصابون لازالة أثر أفواههم » . وجعل بداره مسجدا يصلى فيه الجمعة « لبعد المساجد الجامعة عن داره ، وتعاطمه عن السعى الكثير والاختلاط بالعامه » . ويقول الجبرتي انه « بعد أن كان منزلهم ( أى عائلة السادات ) محل سلوك ورشاد وولاية واعتقاد ، صار كبيت حاكم الشرطة . . وكان كل قليل يقع فى بيته الضرب والاهانة لأفراد من الناس » . وقد زاد من خراج الفلاحين فى الحصص التى امتلكها والتزم بها ، ويحبسهم عند التقصير فى الدفع شهورا ويضربهم بالسياط . وصار يتحاماه الناس من جميع الأجناس ، وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضونه فى شئ بل يوافقونه ولا يتكلمون معه الا بميزان » . وكان بعض خطباء المساجد التى يؤهها السادات لصلاة الجمعة يدرجون فى خطبهم الاطراء العظيم له « حتى انى سمعت قائلا يقول بعد الصلاة : لم يبق على الخطيب الا أن يقول : اركعوا وأسجدوا وأعبدوا شيخ السادات » . . « ولم يزل كلما طال عمره زاد كبره وقل بره وتعدى شره ، ولازم استعمال المنعشات والمركبات المفرحة » . ولما قدم الفرنسيون مصر راعوا جانبه وقبلوا شفاعاته ، وتردد عليه بونابرت وغيره من القادة فى منزله حيث كان يولم لهم الولاثم . وكان هو يزورهم فى مساكنهم مع الجبرتي « للتفرج على صنائعهم ونقوشهم وتصاويرهم وغرائبهم » .



وأما الشيخ المهدي (٧٥) فكان قبظيا ثم أسام وهو دون البلوغ على يد أحد المشايخ ، وفارق أهله وتبرا منهم ، وأقام في منزل هذا الشيخ يقرأ القرآن مجتهدا في تحصيل العلم ليلا ونهارا ، حتى مهر ونجب ، وتصدر للتدريس بالأزهر . ثم تداخل في الأكابر وزادت ثروته وسعيه في أسباب تحصيل الدنيا ، وعانى الشركات والمتاجر في الكتان والقطن والأرز وغير ذلك . ولما حضر الفرنسيون « لم ينقبض كغيره عن المداخلة فيهم ، بل اجتمع بهم وواصلهم وانضم اليهم وسائرهم ولاطفهم في أغراضهم . وأحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار إليه في دولتهم مدة إقامتهم بمصر ، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس في قضاياهم وحوائجهم ، وما يكدر طباع الفرنسيات من مخارق الرعية يتلافاه بمراهم كلماته . . . ولما رتبوا الديوان كان هو المشار إليه فيه . وراج أمره في أيامهم جدا ، وزاد إirاده وجمعه ، واحتوى بلادا وجهات وأرزاقا ، ويأتيه الفلاحون منها ومن غيرها بالهدايا والأغنام والسمن والعسل وما جرت به العادة ويتقدمون إليه بدعائهم وشكاويهم ، ويفعل بهم ما كان يفعل أرباب الالتزامات من الحبس والضرب » . فلما خرج الفرنسيون وعاد العثمانيون ، كان المهدي أعظم المتصدرين في مقابلتهم ، وأوجه الوجهاء في مخاطبتهم . . . ولازمهم في عشيائهم وبكورهم ، وبهرهم بتحليله واحتياله » . ولما مات الشيخ الفيومي عن زوجته المعروفة بالسحراوية ، وكانت طاعنة في السن مشهورة بالغنى ( كان الشيخ الفيومي تزوجها حماية لمالها ، وإذا كانت طاعنة في السن اشترت له جارية بيضاء وأعتقتها وزوجتها له ) ، ثم ماتت السحراوية عن غير وريث ، وضع المهدي يده على دارها ومسالها وجواربها ، وزوج الجارية لابنه عبد الهادي ، وكانها سقطت بمالها ونوالها في بئر عميق .

يقول الجبرتي : « ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين وبعض اللاحقين ولم يشتمغل بالانهماك فى الدنيا لكان نادرة عصره » .

ومع هذا فقد كان هؤلاء المشايخ الكبار قادة الراى العام فى مصر دون منازع ، وكان لا بد لاية ساطة زمنية تريد تحقيق أغراضها ازاء الأمة أن تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار . فقد صار لهم فى عهد العثمانيين لدى جمهور الشعب منزلة تشبه ما كان لرجال الدين فى أوروبا فى العصور الوسطى . وما دامت البيئة التى هم فيها تسود فيها الجهالة والسذاجة والخرافات والحزعات ، فقد كان لهم - مهما قلت بضاعتهم من العلم - مكانة ذات شأن ، هى مكانة الأعور بين العميان . « فأما مصادر تلك القوة ، فأولها اعتقاد الناس فى صلاحهم وتقواهم ومعرفتهم ، ثم تظاهروهم وادعاءاتهم ، وأخيرا ما كانوا فيه من الثروة الطائلة بسبب أراضى الوقف التى كانوا يقامون نظارا عليها ، ويستغلونها كما لو كانت أملاكهم الخاصة » (٧٦) .

وقد أحاط نابليون علما ، قبل مجيئه الى مصر ، بمدى نفوذ هؤلاء المشايخ ، ولا بد أنه سرعان ما أدرك فى القاهرة حقيقة خلقهم . كتب الى كليبر يقول : « اننا اذا كسبنا تأييد شيوخ القاهرة كسبنا الراى العام فى مصر كلها . وليس بين زعماء الأمة كلهم من هو أقل خطرا علينا من الشيوخ ، فهم جبناء ، عاجزون عن الكفاح ، يوحون - كجميع رجال الدين - بالتعصب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين » (٧٧) . لقد كان موقف كل من نابليون ومحمد على فيما بعد ، من العلماء المصريين ، يستهدف مصلحة خاصة . غير أن الأول لم يلجأ ، كما لجأ الثانى ، الى استغلال ضعفهم الخلقى

---

(٧٦) محمد رفعت : « تاريخ مصر الساسى فى الأزمنة الحديثة » . المطبعة الأميرية

سبلاى ١٩٣٤ . الجزء الأول ص ١٩ .

(٧٧) بونابرت فى مصر : ١٩٧ .

- ٣٧ -

الكامن فى ضرب بعضهم ببعض ، واتاحة الفرص فالمزيد من الفرص امامهم حتى يمعنوا فى التردى فى مهاوى الخلق ، ثم العمل على الاسساءة الى سمعتهم لكسر شوكة نفوذهم . وربما كان ذلك لانه كان أجهل من محمد على باحتمالات شخصية العالم فى الشرق ، او أنه كان لا بد مواجهها صعوبة فائقة - وهو غير المسلم - فى بث الفرقة بينهم او كسر شوكة هذا النفوذ على شعب مسلم ، او أنه - بجيشه الصغير فى بلد غريب - كان مضطرا الى الاعتماد فى حكمه على « الصفوة » من الأهالى ، او انه - وهو ابن مبادئ الثورة الفرنسية قريية العهد - كان مجرد أكرم خلقا من الألبانى المسلم .

٦

### الفرنسيون والمشايخ

يتحدث نابليون فى مذكراته عن رعايته للأزهر فيقول :  
« ان مدرسة الأزهر - التى تقابل السوربون عندنا - هى اشهر مدارس الشرق قاطبة ٠٠٠ وهى المركز الوحيد الذى يستطيع أن يضرب للناس المنل فيقتدى به الراى العام ٠٠٠ كان الشيوخ جديرين بالاحترام ، افضاهم وعلمهم وراثهم بل ومولدهم ٠٠٠ وفى القصر كانوا يستقبلون بالاجلال ، ويقدم لهم الشربات والفهوه . ثم تقبل فاجاس وسطهم على الأريكة واحاول كسب ثقتهم بالمناقشة فى القرآن ، وبطلبى تفسير الآيات الهامة . وابداء اعجابى العظيم بالرسول . حتى اذا غادروا القصر ، وانصرفوا الى المساجد التى يجتمع فيها الناس ، حدثوهم بآمالهم ، وهداوا من روع هذه الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين . فكانوا يؤدون للجيش خدمات ايجابية جدا » (٧٨) .

وقد نظم غداة دخوله القاهرة من كبار المشايخ ديوانا « لتدبير الامور ، وصلاح الجمهور » ، وانشأ في الأقاليم دواوين على غرارهِ . واذا طلب من أعضاء ديوان القاهرة أن يختاروا من بينهم رئيسا عليهم « قال بعض الحاضرين : الشيخ الشرقاوى ! فقال ( الترجمان ) : نوا ، نوا ، وانما ذلك يكون بالقرعة . عملوا قرعة بأوراق ، فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى !

« والزمومهم بالحضور فى كل يوم » (٧٩) .

كما أمر بونا برت جنوده بأداء التحية العسكرية لاشايخ متى مروا بهم . ويوجه كليبر فيما بعد حديثا الى مشايخ الديوان فيقول فيه : « اننا لما حضرنا الى بلدكم هذه ، نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس ، والناس بهم يقتدون ، ولأمرهم يمثلون ، ثم انكم أظهرتم لنا المحبة والمودة ، وصدقنا ظاهر حالكم ، فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم . . . . وغمرناكم بالاحسان . . . وجعلناكم مسموعى القول ، مقبولى الشفاعة » (٨٠) .

ويطلب بونا برت من المشايخ يوما أن يأتوه ، « فلما استقروا عنده نهض من المجلس ، ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان . . أبيض وأحمر وكحلى ، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى ، فرمى به الى الأرض واستعفى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه . فقال الترجمان : يا مشايخ ، أنتم صرتم أجبابا لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم . فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند

(٧٩) « عجائب الآثار » ، ٤ : ٣٢٦ .

(٨٠) المرجع السابق ، ٥ : ١٣٢ . وقد وصلت بونا برت فى مراسلاته مداوات العلماء فى الديوان بالبطل « بسبب مدوه الشخصية الشرقية وتحفظها ، وطرافة الأمر ، واختلاف العادات بين الأقاليم » . غير أنه وجدهم يتسمون بوجه عام بالروح المحافظة الذكية . ( راجع صفحى غربال : ٧٣ ) .

اخواننا من المسلمين ، فاغتاط ( بونا بورت ) لذلّك ، وتكلم بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين انه قال عن الشيخ الشرقاوى انه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك . فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك . فقال : ان لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار فى صدوركم ، وهى العلامة التى يقال لها الوردة . فقالوا : امهلونا حتى نثروى فى ذلك . واتفقوا على اثنى عشر يوما . ونودى فى ذلك اليوم على الناس بوضع علامة الوردة ، وهى اشارة الطاعة والمحبة . فانفأ أغلب الناس من وضعها ، وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين . . . وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر ، فوضعها . ثم فى عصر ذلك اليوم نادوا بابطالها من العامة ، والزموا بعض الاعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة بوضعها . فكانوا يضعونها اذا حضروا عندهم ، ويرفعوها اذا انفصاوا عنهم ، (٨١) .

وكان الفرنسيون بقدر محاولتهم الاعتماد على الشيوخ فى جس الراى العام لهم ، ونقل شكاوى الأهالى اليهم ، واضفاء الصفة الشرعية على السياسات الفرنسية واقرارها ، يحاولون فى الوقت ذاته الأخذ بأيديهم ، وربطهم بنظمهم ، واشراكهم فى سعيهم للقضاء على جمود الشعب ، وتباطئه فى الخروج من العصور الوسطى الى عصر جديد ، واستسلامه لقضاء لم يكتب عليه . وهم مع ادراكهم أن هم الديوان كان ارضاءهم دون أحداث أى تغيير حقيقى فى النظم الاجتماعية ، لم يدخروا وسعا لتذكير هؤلاء المشايخ بالمهمة المطلوبة منهم . وها هو رئيس المجمع العلمى مونج ، فى الاحتفال بالسنة الفرنسية الجديدة الذى حضره الشيوخ ، يطلب من الحاضرين أن يشربوا « نخب النهوض بالفكر الانسانى وتقدم العقل » (٨٢) . ويكتب اليهم مينو

ردا على تهنتتهم بمولده ابن له من زوجته المسلمة الرشيدية زبيدة ، فيقول :  
 « باسم الله الرحمن الرحيم • لا اله الا الله ، محمد رسول الله • من عبد الله  
 جاك مينو • الى حضرة المشايخ والعلماء اهل الديوان • ادام الله تعالى  
 فضائلهم ، وزينهم بلميع النور ، لاكمال وظائفهم ، وانجاز فرائضهم ، آمين  
 يا معين • والآن نخبركم أن الذى حررتموه لنا ملا نفسنا سرورا • فثبت  
 عندنا وتحقق وفور ما عندكم من المحبة • • • • • فحقا انكم المستحقون لأن تكونوا  
 فى مثل هذا المحل الذى اخترتم عليه • • نحن نعلم ان القرآن العظيم  
 الشأن • • • • • يشتمل على مبادئ الحكمة السنية ، والحقوق اليقينية • وهذه  
 المبادئ المذكورة لا يصح بناؤها المتين على الحكم والحق اليقين ، الا اذا عرضت  
 على أحسن الآداب ، وتعليم العلوم بغير ارتياب ، وبهذين تنتج أعظم الفوائد ،  
 وذلك بمساعى أناس متحدين معا • • • • • فيا أيها المشايخ المكرمون ، والعلماء  
 المحققون ، ومن هم بالعلم موصوفون • لا يخفى عليكم أن أجمل ما فى • •  
 هذه الدنيا • • هو الميل الى النظام • • وقد تقدم جناب حضرة بونابرتة الشهير  
 النبيل • • • فأمر بأن يحرر دفتر تكتب فيه أسماء كامل الميتين • • والآن  
 حضرتكم طلبتم منى دفترا آخر خلفه يتحرر فيه أسماء المولودين أيضا •  
 ومن حيث ذلك فلا بد أن أعنتى منذ الآن مع جزيل الاهتمام بهذين الأمرين •  
 وهكذا أيضا بتحرير دفتر الزواج • • • وضبط الاملاك • • • • • فعلى هذا الحال  
 يتيسر للحاكم الشرعى الحكم بالعدل والانصاف ، وينقطع الخلف والخصام بين  
 الورثة • • ثم ان أراد الله • • تدبر أشياء تستفيد بها هذه المملكة التى قد  
 تسلمنا سياستها • • • • • فيا حضرة المشايخ الكرام ، اننا نشكر فضلكم على  
 ما أظهرتم لنا تهنتة بولادة ولدى السيد سليمان مراد جاك منو • فنطلب من  
 الله سبحانه وتعالى ، واسأله كذلك بجاء رسوله سيد المرسلين • • أن يكون  
 للعدل محبا • • • وألا يصرف اعتناؤه الا فى خير الأدب ، لا فى قنية الفضة

## والذهب» (٨٣) .

وكان الفرنسيون يسمحون للمشايخ بحضور الاجتماعات غير الرسمية التي كان المجمع العلمي يعقدها كل مساء في حديقة المجمع ، فيتبادلون الأحاديث فيها عن اكتشافاتهم ومشروعاتهم وأفكارهم . ويروى أنه بعد أن قرأ سانييلير ، وهو أحد أعضاء المجمع ، على الحاضرين بحثا عن أنواع الأسماك ، وقف أحد الشيوخ المصريين وطلب الكلمة ثم قال : « ان هذا البحث لا غناء فيه ، لأن النبي قال فيه كلمته الفاصلة ، وهي أن الله خلق ثلاثين ألف نوع ، عشرة آلاف منها تعيش في اليابس والجو ، ويعيش عشرون ألف منها في الماء » (٨٤) .

ويصحبون المشايخ لزيارة المطبعتين اللتين جلبهما بونايرت معه الى مصر ، فكانتا أول ما دخل مصر من المطابع . كتبت جريدة « كورييه دو لييجيت » في عددها الصادر في ٣ فبراير ١٨٠١ تقول : « من الأشياء التي أثارت دهشة سكان مصر وعجبهم منذ وصولنا الى بلدهم ، وكان لها تأثير عظيم عليهم ، وتعتبر شيئا جديدا كل الجدة بالقياس اليهم ، صناعة الطباعة . وقد زار المطبعة الأهلية عدة مرات الى العام الماضي كبار أعضاء الديوان . ومن بينهم المشايخ المهدي والفيومي والصاوي وغيرهم ، وتطلعوا بشغف معجبين الى العمليات المختلفة التي جرت امامهم ، سواء باللغة الفرنسية او باللغات الشرقية المختلفة » .

(٨٣) « عجائب الآثار » ، ٥ : ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٨٤) « بونايرت في مصر » : ٢٥١ . والغالب في رأينا ان مثل هذه الأقوال التي نسبها الفرنسيون الى المشايخ هي من قبيل التندر والظارف ، واد كان من المحتمل صدورها عن فريق معين منهم ، غير اننا لا نذكر أن الجبرني نفسه ، بعدد الحديث عن المسئلة . اورد قولاً له او لغيره شبيها بهذا .

وقد رسم لنا الجبرتي صورة شيقة للانطباع الذي أحدثه في نفوس العلماء المصريين ، اتصالحهم بالعلماء والفنانين الفرنسيين الذين أفردت حارة الناصرية لسكنائهم ومعاملهم ومراسمهم . فيقول الجبرتي عن هذه الدور :

« وفيها جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ، ويحضرون للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيراجعون فيها مرادهم . ويتصفحون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر . وإذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة ، لا يمنعون الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واطهار السرور بمجيئهم اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار . ولقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعوني على ذلك . فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم ، وهو قائم على قدميه ناظر الى السماء كالمرهب للخلقة ، وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف . . . . . وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرامات وبرابى الصعيد ، والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها ، وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنباتات والأعشاب ، وعلوم الطب والتشريح والهندسات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الاسلامية مترجم باختهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض . . . . . والبردة للبوصيري ، وهم يحفظون جملة من إبياتها وترجموها بلغتهم . ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن . ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير



— ٤٣ —

فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار ، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريقها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت الى لغتهم فى أقرب وقت ، وعند « توت » الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنع ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن ٠٠٠ كل آلة منها عدة قطع تركيب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة ، بحيث اذا ركبت صارت آلة كبيرة ٠٠٠ وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها الى المرئى ٠٠٠ وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصاها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها ٠٠٠ وأنواع الساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن ، وغير ذلك ، »

ويتحدث عن الرسامين ، « ومنهم ريجو المصور ، وهو يصور الآدميين تصويرا يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ ، مجسم يكاد ينطق ، حتى انه صور صورة المشايخ ، كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان ، وعاقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر ، وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسماؤها ، يأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم ، فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم ، فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ٠٠٠

« ومن أغرب ما رأيته أن بعض المتقدمين أخذ زجاجة فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا فى كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فصعد دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس ، وصار حجرا أصفر أخذناه بأيدينا ونظرناه ٠٠٠ وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ، ووضعته على السندال ، وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل انزعجنا منه ، فمسحكوا منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة ضيقة الفم ،

فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الحشب مصفح الداخلى  
بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها ، وأنزلهما فى الماء ،  
وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر بفنيلة مشتعلة  
وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة اليها فى الحال فخرج  
ما فيها من الهواء المحبوس ، وفرقع بصوت هائل أيضا ، وغير ذلك الأمور  
كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطيابع . . . . . ولهم  
فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا يسعها عقول  
إمثالنا ، (٨٥) .

## ٧

### بونابرت والاسلام

وصف بونابرت فى أيامه اللاحقة الفترة التى قضاه فى مصر بأنها  
« أجمل فترة فى حياتى لأنها كانت أحفلها بالأحلام » (٨٦) . « فى مصر وجدت  
نفسى وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة . وكانت الأحلام تملأ راسى . . .  
ورأيتنى أوسس دينا ، وأزحف على آسيا وعلى راسى عمامة وفى يدى القرآن  
الجديد الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجاتى . وكنت سأجمع فى مشروعاتى  
بين خبرات العالمين ، وأسخر لمنفعتى مسرح التاريخ كله . » وهو فى أول  
حديث له مع حاكم سانت هيلانه ، منفاه الأخير ، يقول فى تأكيد : « ان مصر

---

(٨٥) « عجائب الآثار » ، ٤ : ٣٤٨ - ٣٥٩ . أما ليبور فيتحدث عن كيف أنه أثناء  
قيامه بعملية قياس للأرض قرب قرية فى الدلتا ، أثار اهتمام أحد الفلاحين بعمله ومعداته ،  
فجمل الفلاح ينظر فى عدسة جهاز القياس . وقد انزعج الفلاح انزعاجا شديدا إذ يرى  
قرينه فى العدسة مقلوبة رأسا على عقب . وعندما أخبره خادم ليبور مماذا أن الحكومة  
عاضبة على تلك القرية وأنها أرسلت ليبور لتدميرها ، توسل الفلاح اليه على الفور أن ينتظر  
بضع لحظات ريثما يلقى زوجته وبقرته ، ثم عدا بسرعة تجاه بيته ( ١ : ٣٩ ) .  
(٨٦) « بونابرت فى مصر » : ٩ - ١٠ .

أهم بلاد في العالم» (٨٧) . ويتابع الحديث عنها فيقول : « ما الذي يمكن عمله في هذا البلاد الجميل خلال خمسين عاما من الرخاء والحكم الصالح ؟ ان الخيال ليرتفع في هذا المنظر الساحر » . . . « بعد خمسين سنة تكون الحضارة قد وصل نورها الى قلب افريقيا عن طريق سنار وألبشة ودارفور وفزان ، وتكون عدة شعوب عظيمة قد مكنت من المشاركة في بركات الفنون والعلوم وفي دين الاله الحق ، لأنه من يد مصر يجب أن تتلقى شعوب أواسط افريقيا النور والسعادة » (٨٨) .

وكان أهم هدف لبونايرت في مصر أن يكسب ثقة الشعب ، وثقة قادة الرأي العام فيها من العلماء والمشايخ . والواقع أنه ما من مستعمر أوروبي فاقه في محاولة كسب الأهالي لصفه (٨٩) . واذ كان يدرك في وضوح أن اختلاف الدين هو العقبة الكبرى في سبيل كسب الثقة ، فقد ظل يعلن ويكرر منذ منشوره الأول الى أهل مصر أنه وجيشه يحترمان الاسلام والمسلمين . والظاهر أن بونايرت الملحد كان في حقيقة الامر مخلصا في

(٨٧) Rose : Life of Napoleon, Vol. I, p. 356 . وقد صدر كرومر كتابه

« مصر الحديثة » بهذه العبارة .

(٨٨) « بونايرت في مصر » : ٢٦ - ٢٧ .

(٨٩) يقول كلوت بك ( ٢ : ٢٥٣ ) في حديثه عن الفرنسيين في مصر في عهد محمد علي ان المصريين كانوا يؤثرونهم بمحبتهم لما جبلوا عليه من الأدب والذكاء الحاد وحضور الذهن والبشاشة والكياسة ، بالإضافة الى ما تركوه في مصر من ذكرى اقامتهم بها . كما يقول ( ١ : ٨٩ ) انه كثيرا ما سمع المصريين يذكرون بونايرت ( أو أبو نيرت كما كانوا يسمونه ) بعبارات الحماس والاعجاب . ومن حديث أحدهم اليه : « لم يكن أبو نيرت عدوا للمسلمين . اذ كان باستطاعته لو اراد أن يقلب جميع المساجد بسن الابرة . ولكنه لم يفعل ذلك . وقد أكدوا لنا انه في ساعة موته على منجرة البحر الكبير التي تمكن اثنا عشر ملكا من ملوك النصارى من ارساله اليها وتكبيله بالأغلال فيها بعد أن سقوه شرابا ملوما . رأى المقاتلون الذين اجتمعوا حوله روحه وقد وقعت على حصد السيف . فليسترح في أمان وسلام » . ويقول جوان في « مصر في القرن التاسع عشر » ص ١٤٩ انه « استغلق على لهنم المصريين التوفيق بين قصرقامة بونايرت وجلال فتوحاته . فهم متعادون تقدير القول سلفتي ما يشهدونه من ضخامة الأبدان » .

ادعائه احترام الاسلام الذى رآه ينبع من موقفه العملى البحت من الدين ،  
وانسب من المسيحية لحاجات النظام الاجتماعى ، حيث أنه لا يشجع الصراع  
بين العالم المادى والعالم الروحى . وقد أبلغ الشيخ المسيرى عام ١٧٩٨ أنه  
ينوى اقامة حكومة موحدة تقوم على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ  
الحقة القادرة على اسعاد الناس « (٩٠) » .

وقد كان حكيما اذ أدرك « أنك كلما جعلت الدين أو حتى الخرافة  
يضطرع مع الحرية ، فان النصر سيعقد دائما للدين على الحرية فى عقل  
الشعب ، ، وأن « علينا أن نهدهم التعصب حتى ينسام قبل أن نستطيع  
اقتلاعه » . فاما الشعب المصرى « فان الأفكار الدينية كانت على الدوام  
مسيطرة عليه فى شتى العصور . . . وعندما جعل الاسكندر الاكبر كاهنة  
معبد آمون تستقبله بوصفه ابن جوبيتر ، كان على وعى تام بعقلية هؤلاء  
الناس . . . وقد حقق بعمله هذا من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد أكثر مما  
كان يحققه لو أنه بنى عشرين حصنا وعزز جيشه بمائة ألف من المقاتلين  
المقدونيين » (٩١) . واذ كان الاسكندر قدوته معظم الوقت ، كان عليه أن  
يحل الأزهر محل معبد آمون رع .

فهو اذن لم يهدف الى القضاء على الاسلام ، على الأقل قبل أن « يهدد  
التعصب ، . وقد أرسل الى قائده جاك مينو ، الذى كان على الدوام أشد  
القواد الفرنسيين فى مصر تحمسا لقضية الاستعمار والاندماج ، يهنئه على  
« توضيحته » فى سبيل القضية الوطنية باشهاره اسلامه واختتانه وزواجه  
من ابنة صاحب حمام فى رشيد . ولم يكن مينو مخلصا فى اسلامه

• (٩٠) المرجع السابق : ٢٠٠

• (٩١) المرجع السابق : ٢٥١

بدليل ارتداده عنه الى المسيحية بعد عودته الى فرنسا (٩٢) . أما عن زواجه فالظاهر أنه لم يكن « تضحية » رغم أنه هو نفسه قد وصفه بأنه « اجراء يخدم الصالح العام » . فقد ظل يكن المودة لزبيدة ، وصحبها معه الى أوروبا ، وأفلح فى اقناعها بالتحول الى المسيحية (٩٣) . وعندما سئل فى مصر بعيد زواجه عما اذا كان ينوى أن « يتخف زوجه برفيقات لها جريا على عادة البلاد » . أجاب : « ان زوجتى ... حسنة الصورة من جميع الوجوه . فلها عينان رائعتان . ولون بشرتها هو اللون المصرى المألوف ، وشعرها طويل فاحم . وهى لطيفة الطبع . وقد وجدتها تتقبل كثيرا من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت . وانا لم ألح عليها بعد فى الخروج سافرة على الرجال ، فهذا يأتى شيئا فشيئا . . . وإن أتنفع بما أباحه النبى من الزواج بأربع نساء خلاف السراى ، فإن فى النساء المسلمات شهوة حارة عنيفة . وفى زوجه واحدة أكثر من الكفاية لى » (٩٤) .

---

(٩٢) رعاة الطهطاوى « مجلس الابريز » . وزارة الثقافة المصرية . ١٩٥٨ . ص ١٠١ .  
وقد وصف الجبرى أيضا اسلام منو بأنه ليس الا نظائرا ولأسباب سياسية .

(٩٣) يقول رعاة الطهطاوى فى « تخلص الابريز » ص ١٠٢ ان منو عند عودته الى فرنسا « رجع الى الصراية وأبدل العمامة بالبرنطة » . ومكث مع زوجته وهى نعل دينها مدة أيام . فلما ولدت وأراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصرانى لنصره . أبت الزوجة ذلك . وقالت : لا أصر ولدى أصلا ولا أعرضه للدين الباطل . فقال لها الزوج : ان كل الأديان حق . وان مآلها واحد . وهو عمل طيب . فلم يرض بذلك أسدا . فقال لها : ان القرآن باطل بذلك . وأنت مسلمة فمليك أن تصدى نكاح نيك . ثم أرسل باحضار اعلم الاورث باللعنة العربية . البارون دوساسى . فانه هو الذى يعرف بقرا القرآن . وقال لها . سلمه عن ذلك . فسأله . فأجابها ( دوساسى ) بقوله : انه يوجد فى القرآن قوله تعالى « ان الذين آمنوا والذين هادوا . والنصارى والصائين . من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . فحجها بذلك . فأذنت بممودية ولدها . ثم بعد ذلك اسهى الأمر على ما قبل انها نصرته . وماتت كافرة :

« كل دين ان فانك الاسلام لمجال . لأنه أوهام »

(٩٤) « بومبرت فى مصر » : ٥٥٥ .

أما بونا برت نفسه فام يستطع أن يتخذ الخطوة الحاسمة فيعتنق وعموم جيشه الاسلام ، مع علمه بأن تسمية الفرنسيين بالكفرة قد ساهمت في اثاره القلائل ، ورغم أن الحاده والحاد معظم أفراد الجيش كان من شأنهما أن يهونا من أمر الاقدام على هذه الخطوة (٩٥) . غير أنه لم يأل جهداً في سبيل اقناع المشايخ والشعب بأنه مسلم بقلبه معلناً أنه ليس مسيحياً وأن جنوده ليسوا مسيحيين ، مستدلاً على ذلك بأن الفرنسيين سجنوا البابا وأغلقوا الكنائس في بلادهم . وهو يحاول أن يقنع المشايخ بأن الرسول خصه برعايته ، والا فكيف أتيت له هزيمة الماليك الشجعان ؟ « ان هذه الثورة العظمى قد تنبأ بها القرآن في عدة آيات » (٩٦) . ولا بد أنه هو الذي أوحى الى علماء الأزهر بعد عودته. من حملته الفاشلة على الشام ، بأن يصدروا بياناً يذكر فيه أن بونا برت « يحب المسلمين ويعز الرسول ، ويهذب نفسه بقراءة القرآن كل يوم ، ويريد بناء مسجد لا نظير له في بهائه وفخامته ، ويود اعتناق الاسلام » (٩٧) . وهو يعين في حيله البهوانية التي أخفقت في التأثير في مشايخ الديوان ، فيرتدى العمامة والملابس التركية يستقبلهم بها . يقول بورين : « كان يبدو مضحكا في عمامته وقفطانه ، وقد غاب عليه الارتباك والتجمل في هذا الرداء الذي لم يألّفه ، فبارح الحجر ليخلّعه ، ولم تحدّثه نفسه بعدها بالعودة الى هذه المسخرة » (٩٨) .

---

(٩٥) في « عجائب الآثار » ٦ : ٣٥٩ ، يقول الجبرتي به لما قدمت حملة فريزر عام ١٨٠٧ لنصرة الماليك على محمد علي ، حاول رجال محمد علي أن يقنعوا الماليك بعدم الانضمام الى الانجليز ، وعدم تصديق أنهم اتوا لمساعدتهم ، فهم « اذا تملكوا البلاد لا يكون على أحد من المسلمين . . وحالهم ليس كحال الفرنسيات ، فان الفرنسيات لا يتدنون بدين ، ويقولون بالحرية والتسوية . واما هؤلاء الانكليز فانهم نصارى على دينهم ، ولا تخفى عداوة الأديان ، ولا يصح ولا ينبغي منكم الانتصار بالكفار على المسلمين » .

(٩٦) بونا برت في مصر : ٢٥٢ .

(٩٧) المرجع السابق : ٣٥٥ .

(٩٨) المرجع السابق : ٢١٠ .

غير أنه لا هو أسلم ولا أفلح في اقناع المشايخ الدهاة بإخلاصه ، رغم أنه كان يقول ان الشيخ السادات والشيخ البكرى اعتباراه مسلما فعلا . والواقع أن كلا من الطرفين تظاهر بأن صاحبه استغفله . كان المشايخ يدارونه وينخدعون له . ان شكنا اليهم من المواعظ العدائية التى يلقيها الأئمة فى المساجد فى صلاة الجمعة ، تظاهروا بتوجيه الانذار الى هؤلاء الأئمة . ولاموهم لوما واضمح الفتور ، ضعيف الأثر . وإن هو طلب الى الأزهر أن يصدر فتوى تأمر الناس بحلف يمين الطاعة له ، نصحه الشيخ الشرقاوى بأن يؤجل ذلك حتى يعتنق الاسلام وينضوى العرب حينئذ تحت لوائه . ويرد بونا برت بأن الختان عقبة دون اسلامه هو وجيشه ، فيفتون بأن الختان نافلة ، وانه ليس ضرورة لمن يعتنق الاسلام . ويشير هو الى صعوبة امتناع الفرنسيين عن شرب الخمر ، فيفتون بأن بوسع الفرنسيين أن يشربوها ويدخلوا الجنة ، متى كفروا عن هذا الأثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلا من العشر المؤلف (٩٩) .

فلئن كانت الحرية والديموقراطية هما ثمرتا كفاح قرون من جانب بعض الشعوب الأوروبية ضد الاستبداد ، فان خضوع المصريين للاستبداد على مر آلاف السنين كان ثمرته قدرة مذهلة على مراوغة الحكام .

## ٨

## اصلاحات الفرنسيين فى مصر

كثيرا ما تكون « الاصلاحات » التى يقوم بها الحاكم فى قطر من الاقطار ، مرتبطة بهدف أساسى له ، فلا يقصد من وراء سياسته بكافة جوانبها غير خدمة هذا الهدف ، نبىلا كان أو غير نبىل . وكثيرا ما يتناسى المؤرخون بعد زمن. الحاكم هذا الهدف فى حديثهم عن الاصلاحات ، اما عن اعجاب بصاحبها أو عن اضطرار الى التظاهر بالاعجاب ، أو لأن الاصلاحات نجم عنها فوائد ضخمة لم تكن مقصودة فى ذاتها .

فان نظرنا الى الاحتلال الفرنسى لمصر ، وجدنا الفرنسيين يقاومون الأوبئة وينشئون المستشفيات خشية انتقال المرض اليهم . ويعملون على استقرار ملكية الزارع فى الأرض حرصا منهم على النهوض بالانتاج الزراعى الذى يمول الخزانة العامة والضرائب ، ويصلحون من نظام الضرائب والجباية وضبط الأموال العامة لزيادة قدر ما يحصلونه من المال . وينيرون الطرق ليلا ويحفظون الأمن لضمان سلامة أرواح جنودهم . ويوسعون الطرق ليحولوا دون اقامة المتاريس وينشئون الديوان من المشايخ ليتعرفوا منهم على اتجاهات الشعب وليكونوا الوسيط بين الحاكم والمحكوم ، ويقوموا بتفهم الرعاية خطط الفرنسيين ويزينوها لهم . ويتمسكون بالمركزية الشديدة حتى تبقى أعينهم رقيقة على كل ما يدور . ويصلحون من نظم التجارة والمعاملات اصلاحا يضمن فتح الأبواب أمام رؤوس الأموال الفرنسية . ويعنون بأعداد طائفة من أبناء البلاد تسد حاجة الادارة الى صغار الموظفين ، وحاجة الجيش الى الجند ، وذلك لقلّة عدد الفرنسيين فى البلاد . ثم هم بعد ذلك كله ومع حرصهم على اقامة الانتاج المادى على قواعد غربية صرفة ، لا يشجعون الانقلاب الاجتماعى الا بالقدر الذى لا يؤدى فى النهاية الى الرغبة



فى التخلص من حكمهم . ولا يتعرضون للدين ولا التقاليد الشرقية حرصا على تهدئة مخاوف العامة . فهى اذن اصلاحات لهدف ، وتنمية مخططة ، ولكن القصد هو ابطالها متى بلغوا الهدف أو تعارضت معه . مع انصراف يكاد يكون تاما عن اصلاحات حقيقية اخرى مطلوبة ولكنها لا تخدم اغراضهم فى شىء (١٠٠) .

كان بوناپرت يعد نفسه لمقام طويل بمصر والشرق . واذا كان هدفه تحويل مصر الى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا . وان يحقق الاندماج بين الغرب العلماني والشرق الاسلامي . فقد بذل جهدا صادقا لارساء حكمه على مبادئ عقلية رفيعة ، هى احترام عادات الاهالى وعقائدهم ، وتنمية موارد البلاد الطبيعية ، وتوزيع اعباء الضرائب بالعدل . وتطبيق القانون بشدة ولكن فى نزاهة ومساواة . ورد الحكم الذاتى شيئا فشيئا لشعب الف العبودية منذ عهد الفراعنة (١٠١) .

وقد كان يدرك ان غزوه لمصر سيوافق هوى فى نفوس «اصدقاء الحرية» الفرنسيين المناادين بكسر القيود التى ترسف فيها امم الشرق . واعادة مصر الى ركب الحضارة وهى التى رأى فيها العالم والفن النور لأول مرة بان يزيحوا عنها ما تراكم من رمال الصحراء . وينهوا ليلها الطويل . وكان من بين التوجيهات التى أصدرتها حكومة الادارة لبوناپرت قبل سفره الى مصر ان يعمل على تحسين حال المصريين بكل الوسائل الممكنة (١٠٢) . وقصد الفرنسيون ان يظهروا للمصريين بمظهر المحررين لا الغزاة . وان يقنعوهم

---

(١٠٠) راجع شفيق عريال ، « محمد علي الكبير » . سلسلة اعلام الاسلام . طبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٤٤ . ص ١٨ - ٢٠ .  
(١٠١) بوناپرت فى مصر . ٢٤٤ .  
(١٠٢) شفيق عريال « المسألة المصرية » ٣١ ، ٣٤ .

بان هدفهم هو القضاء على طغيان المماليك ، وأن يضمّنوا للفلاحين المغلوبين على أمرهم تمتعهم بشمار كدهم . قال مينو في منشوره الى الشعب بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٨٠٠ بشأن ادخال تغييرات فى وسائل جمع الضرائب : « من أعطى الكبار والأقوياء حق اتعاس الشعب ؟ هل هو القرآن ؟ لا . فالقرآن يأمر بمساعدة المساكين والعطف على الفقراء واعطاء الصدقة . فان كنتم قد نسيتم دينكم فانى سأذكركم به باسم الجمهورية وبونا بريت الشهير . فانى هنا لتحرير الشعب من الاستبداد » (١٠٣) .

ولاول مرة فى تاريخها الحديث تسمع مصر صوت الحرية والمساواة والاخاء ، وذلك من الاعلان الاول لبونا بريت الى اهل مصر الذى جاء فى مطلعه « من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية . . . » وقد هاجم فى هذا المنشور عهد المماليك الذين « يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن ، الذى لا يوجد ( مثله ) فى كرة الارض كلها . . . قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم . فذلك كذب صريح . . . اننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم . . . ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شئ حسن فيها من الجوارى الحسنان ، والحيل العتاق ، والمساكن المفرحة ؟ . ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم . . . ومن الآن فصاعدا لا يئاس احد من اهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ، واكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة

كانها « (١٠٤) » .

وفى منشور آخر قرى، على المشايخ والأعيان والتجار بعد أشهر قليلة من وصول الحملة ، جاء « أن قطر مصر هو المركز الوحيد ، وأنه اخصب البلاد . . . وان العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول . ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه . . . الا أن دولة الترك شددت فى خرابه ، لأنها اذا حصلت الشجرة قطعت عروقها . فلذلك لم يبقوا بأيدي الناس الا القدر اليسير ، وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم . ثم ان طائفة الفرنساوية . . . اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه ، واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة . . . ان غرضهم تنظيم أمور مصر . . . فالمناسب من أهلها ترك الشغب واخلص المودة . وان هذه الطوائف المتحضرة . . . يترتب على حضورها أمور جليلة ، لأنهم أهل خبرة وعقل » (١٠٥) .

حاصل بونايرت بعناية كافة الجوانب الجغرافية والدينية والحضارية والعادات والمشكلات والموارد والطبقات الاجتماعية المختلفة وكيفية التعامل معها . وكان يرى بنظره الثاقب وراء حجاب الفقر والهوان قيمة حقيقية لهذا الشعب . وقد كان المبدأ الأول لحكومته السماح للأهالى بقدر كبير من ادارة

---

(١٠٤) « عجائب الآثار » ٤ : ٢٨٨ - ٢٨٩ . وقد وصف نابليون هذا المنشور فى سائنت هيلانة بأنه قطعة من الدجل ، « ولكنه دجل من أجل طراز » . اما مدام دوسسئال فكانت ترى أنه فى منشوراته الى المصريين كان يقصد اثارة اعجاب الشعب الفرنسى ، اذ هى تجمع بين خاصيتين حبيبتين دائما الى الفرنسيين ، وهما « نوع من العظمة الى جانب السخرية » ( شلبس غربال : ٧٤ ) . وبعد اصدار المنشور بيومين ، كتب الجنرال ديزيه من قرية على حافة الصحراء الليبية يطلب مزيدا من نسخ المنشور ، قائلا « انه يحدث تأثرا كبيرا » .  
 ( انظر « بونايرت فى مصر » ٩٨ - ٩٩ ) .  
 (١٠٥) « عجائب الآثار » ٤ : ٣٢٥ .

شؤونهم ، خاصة ما يتصل منها بتطبيق العدالة . غير أنه رأى أن المصريين  
فى حاجة الى نظم ثابتة لضمان تحقيق « المنافع الكبيرة التى تنجم عن مجتمع  
منظم ، الا وهى حماية الفرد والملكية » . مثل هذه النظم ستمكن الشعب  
من التعبير عن دفين أفكاره فيطلع الفرنسيون على حقيقة المطلوب لتحسين  
أحواله . وقد اختار الاعتماد على المشايخ الذين هم القادة الطبيعيون للشعب  
لغناهم ، وحبهم للعدالة ، وتمسكهم النسبى بأهداب الأخلاق ، ولكراهيتهم  
للتترك والمماليك معا . أما الأقباط فان احاطتهم بأسرار المالية المصرية ،  
جعلت من المحتم على الادارة الجديدة الاستعانة بهم . وأما المستوطنون الأجانب  
فحثالة شعوب البحر المتوسط ومن الواجب اهمالهم (١٠٦) . وقد استشار  
بونابرت المشايخ بشأن ادخال النظم الغربية الخاصة بالملكية والضرائب .  
فوافقوه على أن هذه النظم تتمشى مع تعاليم الاسلام . وكان الحل الذى اقترحه  
عليهم الغاء الوسيط بين الفلاح والحكومة ( الملتزم ) ، غير أنه اقتنع  
فيما بعد بأن الوقت لم يحن لمثل هذا الاصلاح الجذرى (١٠٧) .

وكتب بونابرت عقب وصوله الى القاهرة قائمة بالأشياء التى أراد من  
حكومة الادارة بفرنسا أن تشحنها اليه بالبحر ، ومن بينها « فرقة من  
الممثلين ، وفرقتين من راقصات الباليه ، وثلاثة أو أربعة على الأقل من ممثلى  
مسرح العرائس لعامة الشعب ، ونحو مائة امرأة فرنسية . وعشرون  
جراحا ، وثلاثون صيدليا ، وعشرة أطباء ، وعمال للمسابك ، وصناع  
ومقطرون للخمر ، ونحو خمسين بستانيا ، وبذور لمختلف أنواع الحضر .  
وصابون وزيت » (١٠٨) . غير أن الأهم من ذلك كله ، ذلك الحشد من المدنيين  
البارزين ، بل ذوى العبقرية ، من المهندسين والعلماء والفنانين والأثريين

(١٠٦) شفيق نوبال : ٧٢ .

(١٠٧) المرجع السابق ١٢٣ - ١٢٤ .

(١٠٨) بونابرت فى مصر ١٩٠ .

والاقتصاديين والكيميائيين والموسيقيين والمترجمين والطابعين الفرنسيين الذين اصطحبهم معه الى مصر ، وكان على رأسهم العالم الرياضى جاسبار مونج الذى وصف بأنه أعظم الشخصيات تعددا فى الكفايات فى تاريخ العلم .

وكان هؤلاء المدنيون على وعى تام بالهدف الايجابى الذى يستطيعون تحقيقه فى مصر . فهنا فرص لا حد لها ، وكل شىء ينتظر أن يكشف عند وأن يصنع . وقد شاركوا قائدهم شعوره بأن العلم يترك آثارا أبقى من الحرب ، وبأن مصر تصلح معملا تجريبيا لتحقيق غايات ضخمة فى مجالات التشريع والتقدم الصناعى والعلمى والفنى ، وهى مجالات كان بونابرت يقول عنها - بإخلاص أو بغير إخلاص - انه ما لم يترك وراءه أثرا فيها فلن يكون حظه فى سجل التاريخ أكثر من فقرة عابرة .

وقد كون القائد من بعض هؤلاء مجمعا علميا كى تساعده معلوماته وأبحاثه ومشورته فى ادارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها فى المستقبل ، والنهوض بالعلوم فى مصر ونشرها . وكان من المهام العملية التى كلفه بها سد الحاجات العاجلة فى البلاد ، مما يقتضى اقامة طواحين للهواء ، وتطهير الترع وصيانتها ، وطرق تنقية ماء النيل ، وشق قناة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وأخرى بين النيل والاسكندرية ، وبناء قناطر على النيل ، وادخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ، وصنع الأدوات التى تعذر جلبها من فرنسا بسبب الحصار البحرى الانجليزى ، واصلاح النظام المالى ، ووضع نظام تعليمى جديد ، وادخال تعديلات يقبلها الأهالى على القانون المدنى والقانون الجنائى . وكان هدف المجمع ارتياد كل جوانب هذا البلد الذى لا يعرف عنه الا القليل ، تاريخه وآثاره وفنونه وبيئته الجيولوجية وحيوانه ونباته . وكتب مونج يقول : « انه لو استوطن مصر عشرون ألف أسرة فرنسية ليشغل أفرادها بالمشروعات التجارية والمؤسسات

الصناعية ٠٠٠ الخ ، لهذا هذا البلد أجمل مستعمراتنا وأفضلها موقعا ، (١٠٨) .

أنشأوا حديقة صغيرة للحيوان ، وأخرى للطيور ، وخصصت أرض للتجارب الزراعية ، وأنشأوا معملا كيميائيا ، ومتحفا صغيرا للتاريخ الطبيعي . ومكتبة ومرصدا ، وكونوا مجموعة من الآثار كانت نواة لمتحف القاهرة ، وبدأ بفضلهم علم الآثار المصرية . وابتكروا نوعا جديدا من الأفران لصنع قنابل المدافع العالية الحرارة ، وصنعوا آلة عائمة لاطفاء الحريق ، وقاموا بمسح طوبوغرافى للبلاد ، ووضعوا مشروعا لإنشاء مدرسة لتعليم المصريين الفنون الجميلة ، وبحثوا فكرة إنشاء كليات للزراعة ، ووضعوا الخطط لإنشاء مستشفى مدنى يتسع لنحو ثلاثمائة سرير ، وإنشاء صيدلية مركزية بالقاهرة ومدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، ومدرسة ابتدائية تعلم الأهالى الفرنسية ليتابعوا دراسات يلقياها المعلمون الأوروبيون فى مدارس أعلى . وقد ظل الكثير من هذه المشروعات حبرا على ورق بسبب قلة المال وقصر المدة التى أتيح لهم أن يبقوها . غير أن الكثير منها نفذ بعد سنوات من خروجهم .

وقد جلبت الحملة معها - كما سبق أن ذكرنا - مطبعتين بأحرف فرنسية ويونانية وعربية (١٠٩) . وعليهما طبعت جميع المنشورات التى وجهها الفرنسيون الى الشعب ، والتى كانوا يلصقون نسخا منها فى مفارق الطرق ورووس العطف وعلى أبواب المساجد ، كما تولت طبع كتيبات بالعربية من بينها رسائل فى علاج الطاعون البقرى والجدرى ، و « محفوظات من لقمان الملقب بالحكيم » ، و « تطبيقات فى العربية الفصحى مختارة من القرآن

(١٠٨) المرجع السابق : ٢٣٢ .

(١٠٩) كان بونايرت قد استولى على المطبعة العربية من الفاتيكان .

لينتفع بها دارسو العربية » ( وهو أول كتاب طبع في مصر ) ، كما طبعت فيما بعد « مجموعة المستندات الخاصة بإجراءات محاكمة سليمان الحلبي قاتل القائد العام كليبر » ، وأصدرت الحملة صحيفتين باللغة الفرنسية ، هما « لوكورييه دوليجيت » السياسية ، و « لاديكاد اجيبسيين » للآداب والفنون والعلوم والاقتصاد . وعندما تولى مينو الحكم ، فكر في إصدار صحيفة عربية « لتلقى النور على خدمات الفرنسيين لمصر ، وترد على دعاة السوء ، وتدل الناس على طريق الإصلاح الذى يراه المصريون خرافة » . ولتحقيق الثقة وتمكين الألفة اللتين تتوطدان أكثر فأكثر بين هذه البلاد وبين الفرنسيين . دون أن تتضمن الصحيفة أى شيء يسىء الى تقاليد الشرق المدنية والدينية (١١٠) . غير ان هذه الصحيفة العربية لم يقدر لها الصدور . أما مطبعة الحملة فقد أخذها الفرنسيون معهم عند رحيلهم ، وان كان هناك من يقول انها بقيت فى القاهرة حتى اشتراها محمد على وحسنها وأضاف إليها ، بحيث أصبحت فيما بعد مطبعة بولاق (١١١) .

والواضح أن الشيوخ والعلماء المصريين وعامة الشعب قد أعجبوا كل الإعجاب بانقطاع العلماء الفرنسيين للعلم . كتب نابليون يقول : « كان الوطنيون غاية فى البعد فى فهم كنه المجمع الذى ضم رجالا وقورين مجتهدين لا يحكمون ولا يديرون ولا يقومون بأى وظيفة دينية . وقد حسبهم يصنعون الذهب . على أنهم فى النهاية كونوا فكرة صحيحة عنهم ، فلقى العلماء الاجلال لا من الشيوخ والأعيان فحسب ، بل من أقل الطبقات

---

(١١٠) ابراهيم عبده : « تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية » ، ص ٩١ .  
 (١١١) فيليب دى طراوى : « تاريخ الصحافة العربية » ، الجزء الاول ، ص ٤٩ ، طبعة ١٩١٣ .  
 (١١٢) « بونابرت فى مصر » : ٢٣٨ .

وإدناها . والواقع أن العلماء الفرنسيين اختلطوا كثيرا بالعمال ، فعلموهم مبادئ الميكانيكا والكيمياء وهم يشرفون على أشغالهم « (١١٢) . وقد شملت جهود الفرنسيين ميادين أوثق صلة بالعامية من المطابع والمتاحف . فالجبرتي يحدثنا عن تتبعهم للكلاّب الشاردة وسمها ، « فارتاحوا هم والناس منها » وعن استحداثهم قرب الأزبكية لأبنية لهو يجتمع بها النساء والرجال « فى أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليها قدرا مخصوصا يدفعه أو يكون ماذونا وبيده ورقة » ، وعن دار انشأوها بالأزبكية تسمى « فى لغتهم بالكمرى ( Camera ) وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسالى والملاهى مقدار أربع ساعات من الليل « (١١٣) ، وعن بنائهم لطواحين « تدور فى الهواء عجيبة ، وتطحن الأرادب من البر » ، وعن انشائهم لجسر عظيم ممتد ممد مستو على خط مستقيم من الأزبكية الى بولاق ، وغرسهم بجانب الأشجار ، « وفعلوا هذا الشغل الكبير فى أقرب زمن ، ولم يسخروا أحدا فى العمل ، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ، ويصرفونهم من بعد الظهيرة ، ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ ، السهلة التناول ، المساعدة فى العمل وقلة الكلفة . . . ولا يقطعون الأحجار والأخشاب الا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة « (١١٤) .

« ونهبوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن . وإذا دفنوا يبالغون فى تسقيط الحفر . ونادوا أيضا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة . . . وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة العفونة . . . ومن قولهم أيضا : ان مرض مريض لا بد من الاخبار عنه ، فيرسلون من

(١١٣) « عجائب الآثار » ، ٥ : ٢٠٠ .

(١١٤) المرجع السابق ، ٤ : ٣٤٦ - ٣٤٧ .



جهتهم حكيمًا للكشف عليه إن كان مرضه الطاعون أو غيره» (١١٥) .

« ونادوا ( فى الأسواق ) بوقود قناديل سهارى بالطرق والأسواق  
وأن يكون على كل دار قنديل ، وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل ، وأن يلزموا  
الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات » . « وشرعوا فى  
ترتيب ديوان سموه محكمة القضايا . . . وجعلوا له قواعد وأركاناً من  
البدع السيئة . . . وشرطوا فى ضمنه شروطاً بتعابير سخيصة يفهم منها  
المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية ، ومحصلته  
التحليل على أخذ الأموال ، (١١٦) » .

## ٩

### « نبرج المصريين وخروجهم عن الحشمة والحياء »

ومع ذلك فقد كان من بين هذه « الإصلاحات » ذاتها ما أثار ثائرة  
الشعب . فهم إن هدموا بالشوارع مصاطب الخوانيت التى اعتاد التجار  
الجلوس عليها ، بقصد توسيع الأزقة كى تتسع لمرور العربات الكبيرة ،  
« حصل لأرباب الخوانيت غاية الضيق لذلك ، وصاروا يجلسون فى داخل  
فجوات الخوانيت مثل الفيران فى الشقوق » (١١٧) . وقد استاء البعض حين  
قبضوا على مدعى الولاية من المشعوذين ، واستاء الكثيرون حين حاولوا  
هدم مقابر الألبكية الواقعة وسط المساكن ، فخرج الناس « الى أن صاروا  
كالجراد المنتشر ، ولهم صياح وضجيج ، واجتمعوا بالألبكية ، ووقفوا تحت  
بيت صارى عسكر ، فنزل لهم المترجمون ، واعتذروا بأن صارى عسكر

(١١٥) المرجع السابق ، ٤ : ٣٢١ - ٣٢٢ .

(١١٦) المرجع السابق ، ٤ : ٣١٨ - ٣١٩ .

(١١٧) المرجع السابق ، ٥ : ٢٢٧ .

لا علم له بذلك الهدم ولم يأمر به « (١١٨) . كما تضايق الناس من تشديد الفرنسيين على ايقاد القناديل ليلا بالطرق والأسواق وخارج الدور ، « حتى فى الأزقة والعطف غير النافذة ، حتى كأن الناس ليس لهم شغل الا القناديل ! » (١١٩) . وكان سخطهم بحيث اضطر الفرنسيون بعد ذلك الى تعطيل الأمر ، والمناداة بأن يوقدوا عوضا عنها فى وسط الأسواق « مجامع فى كل مجمع أربعة قناديل ٠٠٠ ويقوم بذلك الأغنياء دون الفقراء . ففرح بذلك فقراء الناس ، وانفرجت عنهم هذه الكربة » (١٢٠) .

بل انه حتى ديوان المشايخ الذى كان يمكن أن يكون خطوة فى سبيل تحقيق الحكم الذاتى فى البلاد ، والذى كان من مبدأ بونابرت أن ينفذ أكبر قدر ممكن من اقتراحاته ، لم يأخذه المصريون على نحو جدى ، بل وكرهوه . . . لقد كانت النظم التى يعيشون فى ظلها قبل مجيء الحملة انما تتصل أساسا بجمع الضرائب أو تصيد الأنفار للحرب أو السخرة . فان كان المماليك يستخدمون فى هذا الصدد أقصى ضروب العنف ، فهو عنف يلجأون اليه فى أوقات معينة ووفقا لأوامر تصدر فى حينها لا وفق قوانين ثابتة . أما فى غير هذه الأوقات ، فكان المماليك يتركون الرعاية لشأنها تحيى حياتها دون تدخل من السلطات . أما اقامة ادارة حكومية منظمة تختص أساسا بالضرائب - وهو ما حاوله بونابرت - فكان من شأنها أن تسد على الرعاية منافذ التهرب من الضريبة . وهى منافذ طالما لجأ المصريون اليها فى الماضى . وقد عرف الفلاح المصرى منذ قديم الأزل بأنه لا يدفع الضريبة الا مضطرا وفى آخر لحظة حين تعوزه الحيل . فمنذ عشرين قرنا لاحظ ديودور الصقل

(١١٨) المرجع السابق ، ٤ : ٣٢٢ .

(١١٩) المرجع السابق ، ٥ : ٨ .

(١٢٠) المرجع السابق ، ٥ : ١٢ - ١٣ .

أن المصريين يعتبرون أنفسهم مغفلين اذا دفعوا ما يجب عليهم دفعه دون أن يضربوا أولا ! ويضيف دينون قوله عن الفلاحين وقت الحملة أنه ما من حيلة بارعة لم يلجأوا اليها ليؤجلوا الدفع ولو لساعات قليلة . وكان الفرنسيون يعززون جبهة الضرائب بقوات عسكرية . غير أنهم كثيرا ما كانوا عند وصولهم الى القرية يجدون سكانها قد جلوا عنها (١٢١) .

غير أنه يبدو أن من أهم ما أثار الشعب على الفرنسيين ما يتصل بشرب الخمر والأخلاق الجنسية . وقد وقعت من الفرنسيين - خاصة أثناء قتالهم للمماليك بالصعيد - حوادث اغتصاب للنساء المصريات ، فكان الأهالي يحتاطون لذلك بالالتجاء الى وسائل رهيبة كتلك التي يتحدث عنها دينون أثناء محاولة احتلال جزيرة فيلة عند أسوان : « وكنت ترى النساء الشابات على فطرتهن الوحشية ، يفرقن الأطفال الذين لا يستطيع حملهن معهن ، ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المنتصرين » . ووجدت فتاة فى السابعة أو الثامنة خيطة بطريقة منعته من قضاء الضرورة العاجلة ، وسببت لها تشنجات رهيبة . ولم أستطع انقاذ حياة هذه المخلوقة الصغيرة النعسة الا بعد عملية مضادة وحمام . وكانت الفتاة غاية فى الجمال (١٢٢) .

غير أن نساء المدن من المصريات كن أقل عناية بصون أنفسهن والواقع أن دواعى العفة لم تكن لتقف حائلا ضخما بين المصريات ومسيرة هوى الفرنسيين . فقارىء المقريزى وابن اياس وغيرهما من المؤرخين المصريين أو كتب الرحالة العرب والفرنج ممن قدموا الى مصر ، يخرج بانطباع سى عن الأخلاق الجنسية للمصريات بوجه عام . يقول كلوت بك : « ان مصر

(١٢١) بونايرت فى مصر : ٣١٩ ، وشليق لربال ص ٧٣ .

(١٢٢) المرجع السابق ، ٣٤٧ .

خالفت ممالك الشرق في أكثر من حال من أحوالها العامة ، لا سيما في ارتداء  
 حبل الأخلاق « (١٢٣) . ويقول ان عفة المصرية لا تركز على قواعد وطيدة من  
 الأخلاق ، « فإذا وقين أنفسهن شر العار فما ذلك الا لحشيتهن بأس أزواجهن  
 لا لاحترامهن أنفسهن » ، وأن هذا هو سبب تضيق الأزواج الخناق  
 عليهن (١٢٤) . وقد يؤيد ذلك الملاحظة التي دونها نيبور (١٢٥) ولين (١٢٦)  
 دون أن يذكر لها سببا وهي أن المرأة الشرقية متى فاجأها رجل غريب  
 عارية أسرعت بتغطية وجهها دون أى موضع آخر من مفاتها . وسبب ذلك  
 فى رأينا أن همما الأول هو الا يتحقق من هويتها عند الفضيحة .

ويضيف ادوارد لين قوله ان النساء المصريات معروفات بأنهن أفسق  
 النساء طرا . « ويقال ان الكثيرات منهن يستثن استخدام الحرية المتاحة  
 لهن ، ومعظمهن لا يرى معهن أمان ما لم توصد الأبواب عليهن . . . وان بعض  
 القصص عن مكائد النساء فى « ألف ليلة وليلة » تقدم صورا صادقة عن  
 أحداث ليست نادرة الوقوع فى العاصمة المصرية . . . وقد يرجع طابع  
 الدعارة لدى غالبية نساء مصر والسلوك الفاسق من عدد كبير منهن الى  
 أسباب عديدة ، منها الجو ، ومنها افتقارهن الى التعليم السليم ، وقلة ما يتهيا  
 لهن من وسائل قضاء الوقت والأشغال . غير أن السبب الأكبر هو سلوك  
 الأزواج أنفسهم . . فعموم الأزواج فى مصر يحاولون أن يزيّدوا من شهوة  
 نسائهم بكل وسيلة ممكنة رغم أنهم فى نفس الوقت يحرصون جاهدين على  
 الحيلولة دون اشباع هذه الشهوات بطريقة مشروعة » . ولا شك أن  
 شهوانية الرجل قد انتقلت عدواها الى المرأة وأفسدتها . ويضيف لين

• (١٢٣) كلوت بك ١ : ٦٢٧ .

• (١٢٤) المرجع السابق ، ١ : ٦٢٦ .

• (١٢٥) نيبور ١ : ١١٨ .

E.W. Lane «Manners and Customs of the Modern Egyptians», (١٢٦)  
 Everyman's Library, 1963, p. 183.

قوله ان النساء المصريات حتى الفضليات منهن بديثات اللسان فى الحديث ،  
لدرجة ان الفاظهن قد يتورع المومسات الاوروبيات عن استخدامها (١٢٧) .

وعلى الرغم من حديث البعض ، مثل كلوت بك (١٢٨) عن رضا المصريات  
بحالهن ، فقد كان وضعهن قبل مجئ الحملة ، وبعد خروجها ، وضعاً محزناً  
مهيئاً . لان نساء الطبقتين العليا والوسطى يقمن فى حرم أشبه ما يكون  
بالاديرة . ليس لحجراتهن نوافذ تطل على الطريق . وكان الغالبية من الرجال  
يؤمنون بأنهن من جهة العقل والفهم أخط درجة من الرجل . وبعض العلماء  
يشكون فى أن لهن روحاً . وكثيراً ما كان أحقر الحصريان ممن يقومون بحراسة  
المرأة يولى نأديبها ومناقبتها بالضرب بتصريح من الزوج . فلا عجب اذن  
ان كان يلاحظ سرعة ذبول زهرة شبابهن بحيث ترى المصرية فى الخامسة  
والعشرين قد عراها من علامات الذبول والهرم ما لا يعرفه المرأة الأوروبية فى  
الحسين . فان قارنا بين ما كانت تتعرض له المرأة المصرية من معاملة بين  
أهلها وبانك التى لمستها من الفرنسيين ، التى سنحدثك عنها حالا ، سهل  
فهمنا لانبهارها بالقادمين . يقول نابليون ان مينو بعد زواجه من زبيدة  
عاملاً معاملة السيدات الفرنسيات ، يمد اليها يده كلما هم بالدخول  
معا الى غرفة الطعام ، وينحدرى لها أوفق المجالس ، ويقدم اليها خير الأطعمة  
وأشهاها . وكان اذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه  
واعادته الى مكانه . فلما روت تلك المرأة هذه الأمور لصاحباتها فى أحد  
حمامات رشيد ، لاحظت لهاته النسوة بارقة الأمل فى تغير أحوالهن وعاداتهن ،  
وحررن عرضاً قدمنه الى السلطان الكبير ( بوناپرت ) ليحمل أزواجهن على  
معاملتهم بالمثل ، (١٢٩) .

(١٢٧) المرجع السابق . ٣٠٣ - ٣٠٥ .

(١٢٨) المرجع السابق . ١ : ٦٢٣ .

(١٢٩) المرجع السابق . ١ : ٦٢٤ - ٦٢٥ .

ويقول نقولا الترك فى عرضه لأسباب ثورة القاهرة ان نساء المصريين « خرجت خروجاً شنيعاً مع الفرنساوية ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس فى شرب الخمر والمسكرات والأشياء التى لا ترضى رب السماوات » . ويقول : « كانوا ( أى أهل البلد ) يروا نساءهم وبناتهم مكشوفين الوجوه ، مملوكين من الافرنج جهارا ، ماشيين معهم فى الطريق ، نايمين قايمين فى بيوتهم ، فكانوا يكادوا ان يموتوا من هذه المناظر . وناهيك تلك الحمائم التى اشتهرت فى كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفى بعض الجوامع أيضا » . غير أنه يضيف قوله انه فى عهد الفرنسيين « كانت الناس الدون فى أحسن حال ، من بياعين وشياليين وأرباب صنايع وحمير وسياس وقوادين ونساء خوارج ، وبالنتيجة الاناس الأدينا كانوا منشرحين ، وسببه كان اطلاق الحرية . أما الشطر الثانى الأعلى والأوسط ( فكان ) شديد التعب جدا من كامل الملل لسبب وقوف الحال من عدم الداخل والخارج » (١٣٩) .

ويتحدث الجبرتى عن « تبرج النساء وخروج غالبن عن الحشمة والحياء » فيقول : « انه لما حضر الفرنسيين الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم (١٣١) ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة . ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة . فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتدخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن . وكان ذلك التدخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى اخفائه . فلما وقعت

---

(١٣٠) نقولا الترك : « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية . . . »

ص ٣١ .

(١٣١) بلغ عدد النساء الفرنسيات المرافقات للحملة نحو ثلاثمائة امرأة . .

الفتنة الأخيرة بمصر ، وحاربت الفرنسيين بولاق ، وفتكوا في أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسّنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم فزويهن بزى نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال . فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية ، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر ، ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيين ومن والاهم ، وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاموستها . فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار ، واستمأن نظراءهن واختلسن عقولهن ليل النفوس الى الشهوات ، وخصوصا عقول القاصرات . وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم فيظهر حالة العقد الاسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها . وصار مع حكام الاخطاط منهم النساء المسلمات متزييات بزيمهم ، ومشوا معهم في الاخطاط للنظر في أمور الرعية والاحكام العادية ، والأمر والنهي والمناداة . وتمشى المرأة بنفسها ، أو معها بعض اترابها وأضيافها على مثل شكلها ، وامامها القواصة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينهين في الأحكام .

« ولما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء الى الخايج وجرت فيه السفن . وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة ، وصحبتهن آلات الطرب ، وملاحو السفن يكثررون من الهزل والمجون ، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكنائف مطبوعاتهم ، وخصوصا اذا دبت الحشيشة في رهوسهم وتحكمت في عقولهم ، فيصرخون ويعطباون

ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنسيات في غنائهم وتقليد كلامهم .

« وأما الجوارى السود ، فانهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ، ذهبن اليهم أفواجا ، فرادى وأزواجا ، فنططن الحيطان ، وتسلقن اليهم من الطبقات ، ودلوهم على مخبات أسيادهم وخبايا أموالهم » (١٣٢) .

ويفسر الجبرتي اصرار الفرنسيين على عودة الناس الى الاحتفال بالموالد بعد أن كانوا قد أهملوا شأنها عند قدومهم ، أنهم رأوا مثل هذه الاحتفالات تشجع على « الخروج عن الشرائع ، واجتماع النساء ، واتباع الشهوات ، والتلاهي وفعل المحرمات » (١٣٣) . كما يلاحظ أن نصارى المصريين كانوا أسرع محاكاة لعادات الفرنسيين من المسلمين ، وأسعد حالا خلال سننى اقامتهم . يقول فى حديثه عن الاحتفال بوفاء النيل :

« وخرج النصارى البلدية من القبطه والشوام والأروام ، وتأهبوا للخلاعة والقصف ٠٠٠ وأكثروا المراكب ونزلوا فيها وصحبتهم الآلات والمغانى . وخرجوا فى تلك الليلة عن طورههم ورفضوا الحشمة ، وسلكوا مسلك الأمراء سابقا ٠٠٠ وصحبتهم نساؤهم وقحابهم وشرابهم ، وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين ، وبعضهم تزييا بزى أمراء مصر ولبس سلاحا وتشبه بهم وحاكى ألفاظهم ، على سبيل الاستهزاء والسخرية وغير ذلك . وأجرى الفرنسيات المراكب المزينة وعليها البيارق وفيها أنواع الطبول والمزامير فى البحر . ووقع فى تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف .

(١٣٢) « عجائب الآثار » ، ٥ : ٢٣٧ - ٢٣٩ .

(١٣٣) المرجع السابق ، ٥ : ٨٧ .



وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورذالة الرقاعة ، بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم ، بل كل انسان يفعل ما تشتهيئه نفسه ، وما يخطر بباله وان لم يكن من أمثاله .  
إذا كان رب الدار بالدفع ضاربا فشيعة أهل الدار كلهم الرقص ، (١٣٤)

وقد كان رهيبا ذلك المصير الذى لقيه الأقباط و « النساء الخوارج » بعد خروج الفرنسيين . وقد حفظ لنا التاريخ قصة نهاية احدى هؤلاء النسوة « التى درن مع الفرنسيات » (١٣٥) ، وهى زينب ابنة الشيخ خليل البكرى . فقد كانت سمعة الشيخ وابنته قد أفقدته احترام العامة . وعندما وقعت الحرب بين الأتراك والفرنسيين وظن الناس أن الفرنسيين على وشك الخروج من مصر « هجم على داره المنتهرون من العامة ونهبوه وهتكوا حريمه وعروه من ثيابه وسحبوه بينهم مكشوف الرأس . . . ( ثم ) أطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك » (١٣٦) . وعندما تم الاتفاق فى النهاية على رحيل الحملة وعاد العثمانيون الى مصر « طلبت ابنة الشيخ البكرى . . . بمعينين من طرف الوزير ، فحضروا الى دار أمها بالجودرية بعد المغرب ، وأحضروها ووالدها ، فسألوها عما كانت تفعله . فقال : انى تبت من ذلك . فقالوا لوالدها : ما تقول أنت ؟ قال : أقول انى برىء منها . فكسروا رقبتها ، وكذلك المرأة التى تسمى هوى التى كانت تزوجت نقولا القبطان . . . ، خنقها فى ذلك اليوم أيضا ومعهما جاريتها البيضاء أم ولده ، وقتلوا أيضا امرأتين من أشباههن » (١٣٧) . أما الشيخ البكرى فقد عزل عن نقابة الأشراف ، وخلفه فيها السيد عمر مكرم الذى عاد مع العثمانيين . ثم اتهم البكرى بعد ذلك

(١٣٤) المرجع السابق ، ٥ : ٨١ - ٨٢ .

(١٣٥) التمييز للجبرتي ، المرجع السابق ، ٥ : ٣٠١ .

(١٣٦) المرجع السابق ، ٧ : ٥١ .

(١٣٧) المرجع السابق ، ٥ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

بأنه « مرتكب للموبقات ، ويعاقر الشراب ، وغير ذلك ٠٠٠ وأنه قتل ابنته خوفاً وتبرئة لنفسه من الشهرة التي لا يمكنه سترها ، ولا يقبل عذره فيها ، ولا التنصل منها » (١٣٨) . وعلى أى حال ، فقد حمل ذكر الرجل بعد ذلك الى أن مات فى أوائل عهد محمد على .

وأما غير من كسرت رقابهن أو خنقن من النساء أو رحلن مع الفرنسيين ، فقد عدن بعروج الفرنسيين الى من قبل عودتهن من أولياء أمورهن ، ورجعن الى الحجاب والنقاب وظلمة الدور . ثم سعى لهن أقاربهن الراغبون فى ستر عارهن ، لتزويجهن بالجنود العثمانيين القادمين الجاهلين بما وقع . فما ان شاع الخبر ، حتى أصدر الأتراك أمرهم بمنع عقد تلك الزيجات (١٣٩) .

## ١٠

### رحيل الحملة

« والتاريخ الصحيح لا يجد فى الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم الا باعثا ايجابيا واحدا : هو العودة لما ألفه الناس » .

شفيق غربال : محمد على الكبير ، ص ٢٤

من المؤكد أنه لم يكن لكبار المشايخ والعلماء يد فى التحريض على الثورة ضد الفرنسيين ؛ وان كانوا قد أمسكوا عن الفرنسيين علمهم بقرب اشتغالها . ولم يكن الفرنسيون قد انخدعوا قط بصدد حقيقة ولائهم ، غير أنهم كانوا يعتمدون على جبنهم . كذلك فانه لم يشارك فيها أكثر التجار وأصحاب الحوانيت ، رغم هدم مصاطبهم ! . بل كان الكثيرون منهم يخفون الفرنسيين عندهم ويقدمون لهم العون . أما أصحاب المصلحة الحقيقية فى

(١٣٨) المرجع السابق ، ٧ : ٥١ .

(١٣٩) المرجع السابق ، ٥ : ٣٠١ .

خروج الحملة فأعيان الناس وأغنياؤهم من الموالين للترك أو المماليك ، وصغار المشايخ ممن أثار سلوك الكفرة وتحكمهم فى المسلمين عواطفهم الدينية . وقد استطاع هؤلاء وأولئك أن يستخدموا الطبقات الدنيا التى حسنت أحوالها بعض الشئ مطية لبلوغ أهدافهم .

غير أنه من المؤكد كذلك أن غالبية الشعب فرحت فرحا كبيرا بخروج الفرنسيين الكفرة وعودة الأتراك والمماليك المسلمين ٠٠٠ فى الأيام الأولى على الأقل . يقول الجبرتى : « وفرح الناس كمعادتهم بالقادمين ، وظنوا فيهم الخير وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدمهم من الطيقان وفى الأسواق ٠٠٠ وتجمع الصغار والأطفال كمعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم ' نصر الله السلطان ، ونحو ذلك » (١٤٠) . وعندما دخل رجال الدولة العثمانية « حصل للناس ضجة عظيمة ، وازدحموا على الفرجة عليهم ، وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف ، وانطلقت النساء بالزغاريت من الطيقان » (١٤١) ، نفس الزغاريد التى قابلن الفرنسيين الوافدين بها عند مرورهم بالريف . وفرض على الناس تحصيل مبالغ كبيرة للمعاونة فى ترحيل الفرنسيين ، « فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد فى تحصيله وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر ، وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل فرنساوية ، ويقول : سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة . كل ذلك بمشاهدة الفرنسيين ومسمعهم ، وهم يحقدون ذلك عليهم ٠٠٠ وأما الرعايا وهمج الناس من أهل مصر ، فإنهم استولى عليهم سلطان الغفلة ، ونظروا للفرنسيين بعين الاحتقار ٠٠٠ وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتناولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ٠٠٠ حتى أن

(١٤٠) المرجع السابق ، ٥ : ٢٨٧ .

(١٤١) المرجع السابق ، ٥ : ٩٩ .

فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الاطفال ويمشون بهم فرقا وهم يجهرن ويقولون  
كلما مقفى باعلى أصواتهم بلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم ،  
كقولهم : « الله ينصر السلطان ، ويهلك فرط الرمان » (١٤٢) .

كان بوسع الفرنسيين أن يتظاهروا ما شاءوا باحترام الاسلام ،  
وأن يقولوا انهم ليسوا مسيحيين بل ربوبيون أو ملحدون أو من عباد الهة  
العقل أو الكائن الأعظم . غير انهم كانوا جميعا فى نظر المسلمين كفارا .  
أما المماليك والعثمانيون فمسلمون . قد يعتصرون أرزاقهم ويسومونهم سوء  
العذاب ، ولكنهم اخوة لهم فى الدين . وما ان أذل الفرنسيون المماليك  
البغيضين حتى أصبح هؤلاء البغيضون موضع الشفقة والرثاء .

بيد أن الظاهر أن السنوات الثلاث التى قضها الفرنسيون فى مصر ،  
كانت قد آتستهم فظائع العهد الماضى . وسرعان ما أعاد اليهم جند الأتراك  
ذاكرتهم ا فقد تعرضوا على الفور لايذاء عسكر العثمانية القادمين للحلول  
محل الفرنسيين « وخطفهم ما يجدونه معهم ، حتى تمنوا زوالهم ورجوع  
الفرنسيين على حالتهم التى كانوا عليها » (١٤٣) . وتسلط عسكر العثمانية  
على الناس بالضرب وأخرجوهم من مساكنهم ، فان اشتكى احدهم « يقال له .  
الا تفسحون لآخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقذوكم من الكفار الذى  
يسومونكم العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم ،  
وهم ضيوفكم أياما قليلة » (١٤٤) . . . . « وتسلطوا على الناس بالسب والشتن  
ويجعلونهم كفره وفرنسيين وغير ذلك ، وتمنى أكثر الناس ، وخصوصا  
الفلاحين ، أحكام فرنساوية » (١٤٥) .

(١٤٢) المرجع السابق ، ٥ : ١٠٠ .

(١٤٣) المرجع السابق ، ٥ : ١٢٤ .

(١٤٤) المرجع السابق ، ٥ : ٢٩٧ .

(١٤٥) المرجع السابق ، ٥ : ٣١٠ .

وشرع الفرنسيون فى الرحيل ، مصطحبين معهم « جماعة كثيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف » (١٤٦) . كما فضل مرافقتهم عدد من المسلمين وبعض النساء المصريات « اللواتى اخذهن الفرنسيين صغار السن » (١٤٧) . وقد قابل الشيخ رفاعه الطهطاوى بعضا من هؤلاء فى مارسيليا بعد ربع قرن من سفرهم ، فوجدهم « جميعا يلبسون لبس الفرنسيين » . اما المساجون منهم « فان منهم من مات ومنهم من تنصر والعياذ بالله ... ومن تنصر انسان يقال له عبد العال ... بسبب الزواج بنصرانية ... ويقال انه سمع منه عند موته يقول : اجرنى يا رسول الله ! ولعله ختم له بخير وعاد الى الاسلام ... ولقد رايت له ولدين وبننا اتوا فى مصر وهم على دين النصرانية ، احدهما معلم الآن فى مدرسة أبى زعبل .

« ومما رأيته من جملة المصريين فى مرسيليا ، انسان لابس ايضا كالافرنج ، واسمه محمد ، منطلق اللسان فى غير اللغة العربية ، فلا يعرف من اللسان العربى الا اليسير . فسألته عن بلده ببر مصر ، فأجاب بأنه من مدينة اسبوط من أشرافها ، وأن أباه يسمى السيد عبد الرحيم ... وأمه تسمى مسعودة ... وأنه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره . ويقول انه باق على اسلامه . وكل ما يعرف من الامور الدينية ( هو ) : الله واحد ، ومحمد رسوله ، والله كريم ! » (١٤٨) .

غير أنه كما رحل المئات من المصريين الى فرنسا ، فقد أثر المئات من

(١٤٦) المرجع السابق ، ٥ : ٢٨٥ .

(١٤٧) رفاعه الطهطاوى : « نخلص الابرز » ، ص ١٠١ .

(١٤٨) المرجع السابق ، ١٠١ - ١٠٢ .

الفرنسيين البقاء في مصر بعد خروج الجيش ، والتحق الكثيرون منهم فيما بعد بخدمة محمد علي .

وودع القائد الفرنسي العام مينو مشايخ الديوان في رسالة عبر فيها عن أسفه اذ لم يتمكنوا من « تنظيم أهالي البلد بالهدى والطاعة الموجبة منه لحكومة فرنساوى » ، وعن أمله في أن « نرى فضائلكم عن قريب ، ونواجه سكان محروسة مصر » حين يتمكن « المقدام الجسور بونا برته المشهور . . بعون الله هادى كل شيء » من قهر الأعداء في مصر (١٤٩) . وقرأ الترجمان على المشايخ « خطاب محبة من حضرة أستوف مدبر الحدود العام في مجلس الديوان العالى » جاء فيه :

« كل واحد منكم رأى المحبة والاخوة التى كانت موجودة ما بين فرنساوية وما بين أهل الديار المصرية . قد كان الجيش والأهل المذكورون مثل الرعية الواحدة . . ( وان ) حضرة بونا برته القنصل الاول . . . هذا الشجاع الأعظم المعان بقوة الله ، الذى عقله ما له مثيل ، كان يستحق أن يكون حاكما عليكم دائما . . . والعشم أن يترتب في الديار المصرية العدل الذى كان وعدكم به وقت ما كان عندكم . ومن اللازم أنكم تعرفون جميع ما صدر لكم من الخيرات بواسطة حكم فرنساوية . . . وهليت أن يصادف يوم اننا نرجع الى عندكم لأجل تمام الخير الذى يصدر من حكم فرنساوى ، والذى ما أمكننا تنميته . »

« وانفض الديوان ، وركب المشايخ ، وخرجوا للسلام على الوزير يوسف باشا الذى يقال له الصدر الأعظم . . والقادمين معه » (١٥٠) .

\* \* \*

(١٤٩) « عجائب الآثار » ، ٥ : ٢٨٠ - ٢٨٢ .

(١٥٠) المرجع السابق ، ٥ : ٢٨٢ - ٢٨٤ .

- ٧٣ -

\* \* \*

وكانت البذرة برحيل الراحلين قد تم بذرها •  
وحسب القادمون الغافلون أن الأمور قد عادت بعودتهم إلى نصابها  
القديم • بيد أنهم كانوا - كما وصفناهم - غافلين •••





## إنجلترا والألفى بك

( ولكن الاقليم المصرى ليس له بخت ولا سعد »

محمد بك الألفى ( الجبرتنى ٦ : ٣٤٤ )

كانت الحملة الفرنسية على مصر فى نظر الجميع وقت انسحابها ، وبالنسبة لفرنسا بالأخص ، حملة فاشلة من كافة الوجوه ، قد وصفها البعض مثل ثيير ، Thiers بأنها « أكثر محاولة فى التاريخ تهورا ، أكثر تهورا من حملة بوناپرت على موسكو » ، ولا تكاد نجد فى التاريخ مشروعا بدأ بمثل ما بدأت به هذه الحملة من الطنطنة والمبادئ الرفيعة والأهداف واسعة النطاق ، ثم اذا هو بعد بضعة أشهر يتدهور الى حد أن يهجره صاحبه ، بوناپرت ، لمصيره ، ولا يكاد خلفه كليبر يفكر الا فى كيفية تخلص رجاله من الورطة والرحيل .

والواقع ان السبب الاكبر فى فشل الحملة هو ذلك الافتقار الرهيب الى التناسب بين ضخامة المشروع والوسائل المستخدمة لتنفيذه . وقد اضطرت الضائقة التى عاناها الفرنسيون فى مصر بعد رحيل بوناپرت المفاجئ ، والتى نجمت عن ضغط قوات العثمانيين والانجليز وثورة الأهالى ، اضطرت الفرنسيين الى التخلّى عن الكثير من الإصلاحات التى دشنوها أو فكروا فيها ، والى انتهاج وسائل قمع وجمع للمال لا تقل قسوة عن وسائل المماليك والعثمانيين . غير انه من الظلم أن نشارك البعض فى اعتقاده أن هذا التراجع عن الإصلاح والضائقة كشفت النقاب عن الوجه الحقيقى للنوايا

## - ٧٦ -

الفرنسية في مصر ، اذ مهما خالط هذه النوايا من الدجل وبواعث النفع الذاتي ، ومهما تدهورت الى حد اللجوء الى العنف والعنف ، فلا مفر من الاعتراف لهم بقسط كبير من الرغبة الصادقة في الاصلاح ، وفي تحرير البلاد من اغلال العصر الوسيط وأوهامه . فان كانت الأهداف قد تعثرت ، فما كان ذلك الا لقصر الأمد ، وبسبب الظروف المضطربة المعاكسة التي لم تتيح الفرصة لاحداث تغييرات عميقة واسعة المدى .

ومع قصر المدة التي قضاها الفرنسيون في مصر ، فقد كان لاقامتهم آثار باقية في تاريخها . فقد فتحت الحملة أعين الجميع : فتحت أعين المصريين الذين فقدوا عذريتهم باطلاعهم الأول هذا على عادات الفرنجة ونظمهم ، بعد أن ظلوا أكثر من خمسة قرون كزوجة هييرو التي يتحدث عنها مونتني والتي كانت تظن لعفتها أن رائحة أفواه الرجال كافة خبيثة لأن رائحة فم زوجها خبيثة ! وفتحت أعين العثمانيين على حقيقة أن تمسكهم بتقاليدهم الشرقية لن يجدي شيئا في مواجهة عدوانية الغرب ، وأن عليهم أن يقضوا نفس سلاح الغرب لمحاربته به ، وأن كان هذا التبنى من شأنه حتما أن يقضي تدريجا على هذه التقاليد ، حتى ما لم يكن له منها علاقة بالسلاح والحرب . وفتحت أعين الدول الأوروبية على أهمية الاستحواذ على مصر ، أو ، على الأقل ، مراقبة سير الأحداث فيها باهتمام ، وضرورة التدخل في الوقت المناسب لفرض ارادتها قبل أن تأخذ الأمور فيها مجرى في غير صالحها .

### انجلترا تفكر في مصير مصر

وقد بادرت انجلترا بالذات ، فور خروج الفرنسيين ، وأثناء اقامة قواتها في مصر للاشراف على رحيل الحملة عن البلاد واقرار الوضع الجديد فيها ، الى التفكير الجدى النشط في مستقبل هذه الامة التي طمرت فجأة الى مسرح السياسة الدولية . وكان تفكير أعضاء الوزارة البريطانية ومن

استعانت بهم من الدبلوماسيين والساسة في دراسة الموضوع ، على المتوال  
التالى :

لقد كان المماليك قبل قدوم الحملة الفرنسية هم أصحاب السلطة الحقيقية  
في مصر ، بينما كانت سيادة العثمانيين اسمية فحسب . وقد وجه الفرنسيون  
الى المماليك ضربة قوية ، غير أنه لم يزل بهم رمق ، والعثمانيون أضعف من  
أن يجهزوا عليهم . ومن الواضح أن كلا من الفريقين عاجز عن حماية مصر  
من غزو كالعزو الفرنسى . ولذا فإنه ليس من الحكمة السماح بالعودة الى  
حالة الفوضى والاستبداد التى سهلت وقوع البلاد فى أيدي أعداء الانجليز .  
وقد عاد المماليك والعثمانيون الى مصر ، وعادوا الى الصراع فيما بينهم ،  
مما يوضح أن انفجارا ما قد أصبح وشيك الوقوع ، وإن صعب التنبؤ بالجهة  
التى سيصدر عنها . فالحل اذن هو أحد ثلاثة أمور :

الأول : احتلال بريطانى صريح لمصر . والثانى : أن تظل مصر تحت  
سيادة الباب العالى ، مع تعيين بعض أمراء المماليك ذوى الشعبية والنفوذ  
حكما للاقاليم ، وتعيين مندوب بريطانى مع كل منهم ، ومراعاة نقل هؤلاء  
الحكام من المماليك بين حين وآخر من اقليم لاقليم . والحل الثالث هو تدمير  
مصر عن طريق اغراقها ، وإن كان فى ذلك خطر الاساءة الى سمعة بريطانيا  
اساءة بالغة . ( من مذكرة الدبلوماسى البريطانى ج . ب . مورييه الى حكومته  
بتاريخ ٧ يوليو ١٨٠١ ) . والرأى على كل حال هو أنه « يجب ألا يسمح  
لمصر بأن تبقى فى وضع نشط ، أو فى أيد نشطة »

( من تقرير للكابتن بلانكيت الى الحكومة البريطانية بتاريخ ٢٦ يناير

١٧٩٩ ) .

### تعاطف بريطانيا مع المماليك

غير أن رأى الحكومة البريطانية استقر فى النهاية على أن تقوم بدور الوسيط بين الأطراف المختلفة ، وأن تسحب جيشها من مصر . واذ رأت أنه قد ينجم من جراء هذا الانسحاب خطر عودة البلاد الى الطغيان والفوضى ، فقد أوصت الباب العالى بإجراء اصلاحات فى مصر أبدت بريطانيا استعدادها للمساهمة فى تنفيذها . بيد أن نظرة البريطانيين الى طبيعة الاصلاحات المطلوبة كانت تختلف عن نظرة الفرنسيين . فهم شعروا بأنه من الواجب أولا احداث تغيير جذرى فى عادات المصريين وأخلاقهم ونظم الحكم فى بلادهم ، وأن عليهم أن يتعلموا نمطا من التفكير لم يعهدوه ، وسلوكا لم يألفوه ، وأن تمر سنوات من السلام والنظام والأمن والحكم الصالح قبل النهوض بالاصلاحات المالية الضرورية . والمصريون بوجه عام ضعيفو الرغبة فى تبنى أى تغيير فى عاداتهم . وهم مع تمتعهم بالصفات التى قد تجعلهم ، لو انها نمت ، قادرين على أن يصبحوا أمة حرة ، سيظلون أمدا طويلا محرومين من الحرية ومن الطاقة اللازمة لنيل الاستقلال . وكان البريطانيون يؤمنون بأنه من الضرورى من أجل اقامة وحدة وطنية ، أن تقوم سلطة مركزية توفر الأمن ، وتستأصل احتكار الامتيازات ، كما ينبغى خلق صلة حقيقية أو مفتعلة بين مصر الفرعونية ومصر الحديثة ، حتى تحرر البلاد من الارتباط بالتاريخ الاسلامى ، وتسهل اقامة المسيحيين من أقطار البحر الأبيض المتوسط فيها . وهذا المسلك الهادئ التدريجى كفىل بأن يجنب البلاد الفشل الذى كان نصيب تجربة الفرنسيين ، وهم الذين حاولوا « الحاق عضو حى بجثة عفنة » .

وكانت بريطانيا أميل الى أن تكون السلطة الفعلية فى مصر فى يد المماليك دون العثمانيين . فهم رغم عيوبهم قد ألف المصريون حكمهم . فان

ساعدتهم بريطانيا على استعادة مكانتهم ، ووثقت صلاتها بهم ، أمكنهم في المستقبل طرد العثمانيين من مصر ، وحفظوا لبريطانيا مشاعر الولاء والامتنان .

وانسحبت القوات البريطانية من مصر عام ١٨٠٣ مصطحبة معها الى انجلترا اميرا من أعظم أمراء المماليك نفوذا وجاها ، وهو محمد بك الألفى ، زاعمة أنها تود أن يكون في انجلترا ممثل للمماليك يعرض وجهة نظرهم ، وآملة في قرارة نفسها أن يصبح هذا الأمير في الوقت المناسب أداة قوية في يد الحكومة البريطانية تستخدمها في بسط نفوذها على مصر . وكان الألفى قبل رحيله معهم بنحو عامين قد خطرت بذهنه فكرة الهجرة الى بريطانيا . غير أنه حين أراد أن يطمئن على معرفة نسبة الفائدة التي سيحصل عليها من استثمار أمواله فيها وأخبروه أنها لا تزيد عن ستة في المائة ، غير رايه ، اذ رأى هذه النسبة ضعيفة بالمقارنة بالثلاثين في المائة التي يتقاضاها على ما يقدمه من قروض الى الفلاحين في مصر ، والتي كان الفلاحون يدفعونها بشعور من الامتنان له ! .

كان الانجليز اذن يعلقون آمالهم على اعداد الألفى لحكم مصر . وكان القصد من حملة فريزر التي أرسلوها الى مصر عام ١٨٠٧ ، مساعدة الألفى وحزبه ضد محمد على الذي أصبح واليا على مصر قبل الحملة بنحو عامين ، والذي كان الانجليز يرونه « رجلا تنقصه كل مبادئ الشرف ، على استعداد لتقديم خدماته لاية حكومة تدفع له مبلغا أكبر من المال ، على حد اعترافه هو نفسه » ، ويخشون من أن يكون قد باع نفسه بالفعل للفرنسيين .

واذ كان الألفى هذا اذن قاب قوسين أو أدنى من تولي حكم مصر ، بما ينطوي عليه هذا من احتمالات ضخمة بالنسبة لتاريخ مصر اللاحق ، ولما كانت قصة هذا الرجل الغد ليست بالخالية تماما من المغزى ، وتلقى ضوئا

على ظاهرة تأثر الشرقيين بالنظم الغربية فى ذلك العصر ، فانه قد يكون من المفيد التعرض لهذه القصة ببعض التفصيل :

### محمد بك الألفى

ولد الألفى فى حوالى عام ١٧٥١ م . ورغم أن المؤرخين أغفلوا ذكر موطنه الاصلى ، فالراجح أنه كان جركسيا . وفى عام ١٧٧٥ جلبه بعض التجار الى مصر لبيعه ، فتنقل من ملكية أمير الى ملكية آخر من أمراء المماليك ، حتى استقر مملوكا لمрад بك شريك ابراهيم بك فى حكم مصر .

وكان الألفى رجلا صعب المراس ، قوى الشكيمة ، مشهورا بالفجور والعسف ، فخافته الناس ، وخافت مماليكه الذين بات يكثر من شرائهم وينشئهم على طبيعته . ولم يزل على حاله هذه وسطوته حتى حضر حسن باشا الجزائرلى واليا على مصر من قبل العثمانيين ، فخرج مع مماليكه الى الوجه القبلى مقيما به أكثر من أربع سنوات أحدثت به تغييرا كبيرا . فقد وزن عقله خلالها ، وأحب العزلة ، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب والاهتمام بالعلوم ، خاصة علمى الفلك والهندسة ، يخالط أهل العلم بهما ، ويقتنى الكتب فيها وفى التاريخ . غير أن هذه الاهتمامات الجديدة أثارت احتقار مماليكه له ، فتجراوا عليه وترفعوا وضعف سلطانه عليهم ، حتى اضطر الى التراجع بعض الشئ عن ميوله المستحدثة وشغفه بالعلوم الى ما كان عليه قبلها .

ثم عاد الى القاهرة فبنى لنفسه دارا بالغة الفخامة فى حى الازبكية . وكان له اصدقاء من الفرنجة زدودوا حديقتهما بنافورة ضخمة من الرخام على صورة أسماك يخرج الماء من أفواهها . فما انتهى العمل فيها وانقضت ستة عشر يوما على انتقاله للسكنى بها حتى وصلت الحملة الفرنسية ا فهرب الألفى الى الصعيد هو ومماليكه ، حيث دارت بينه وبين الفرنسيين وقائع

هائلة استخدم فيها الكر والفر ، دون أن يفلح الفرنسيون في اقتناصه .

غير أن متاعبه لم تنته بخروج الفرنسيين من مصر ( عام ١٨٠١ ) .

كان في الخمسين من العمر وقت عودته الى القاهرة . وكان القلق يساوره بشأن مستقبل الحكم في البلاد ومصير المماليك . ذلك لأنه ، على حشد تعبير الجبرتي ، « كان صحيح النظر في عواقب الأمور . فكان لا يستقر له قرار ، ولم يدخل الى الحريم ، ولم يبيت بداره الا ليلتين على سجادة ومخدة في القاعة السفلى » . ويضيف الجبرتي قوله : « ذهب اليه مرة في ظرف اليومين ، فوجده جالسا على السجادة . فجلست معه ساعة . فدخل عليه بعض أمرائه يستأذنه في زواج ، فنثر فيه وشتمه وطرده . وقال لي : أنظر الى عقول هؤلاء المغفلين ! يظنون أنهم استقروا بمصر ، ويتزوجون ويتأهلون ، مع أن جميع ما تقدم من حوادث الفرنسيين وغيرها أهون من الورطة التي نحن فيها الآن . . . ان هؤلاء العثمانيين لهم السنين العديدة يتمنون نفوذ احكامهم وتملكهم لهذا الاقليم . ومضت الأحقاب وأمراء مصر قاهرون لهم وغالبون عليهم ، ليس لهم معهم الا مجرد الطاعة الظاهرة ، وخصوصا في دولتنا الأخيرة ، وما كنا نفعله معهم من الاهانة ومنع الخزينة وعدم الامتنال لأوامرهم . وكل ذلك مكمون في نفوسهم ، زيادة على ما جبلوا عليه من الطمع والخيانة والشره . وقد ولجوا البلاد الآن وملكوها على هذه الصورة ، وتأمرؤا علينا ، فلا يهون بهم أن يتركوها لنا كما كانت بأيدينا ويرجعوا الى بلادهم بعد ما ذاقوا حلاوتها » .

### الألفى بك في لندن

وكان من رأى الألفى أن يستعين المماليك بالانجليز في وضع الشروط مع العثمانيين التي تضمن سلامة المماليك وعودتهم الى نفوذهم السابق ، وجلاء العثمانيين عن مصر . غير أن غالبية المماليك كانوا مطمئنين لوعود

العثمانيين ، ورفضوا الاستعانة بالانجليز « أعداء الذين ، فيحكم العلماء بردتنا وخيانتنا لدولة الاسلام » . وكان رد الألفى عليهم أن العثمانيين أنفسهم استعانوا بالانجليز ، وأنه لولا هذه المساعدة « لما قدروا على اخراج الفرنسيات من البلاد » . ولم تمض أشهر قلائل على هذا النقاش حتى أوقع العثمانيون بأمراء المماليك ، فهرب منهم من القاهرة من استطاع الهرب ، ودارت بين الألفى وجنود العثمانيين معركة هائلة بالبحيرة كان النصر فيها حليفه .

بيد أن الألفى فضل بعد هذا النصر ، وبالحاح من المماليك ، أن يسافر الى انجلترا . فوصل الى لندن في خريف عام ١٨٠٣ حيث أقام لمدة تزيد عن سنة مع خمسة عشر شخصا من مماليكه . فأما التقارير البريطانية الخاصة باقامته في لندن فلا توحى بأنه استفاد كثيرا من اطلاعه على نظم الحياة الانجليزية . ففي عدد أكتوبر ١٨٠٣ من « الجنتلمانز ماجازين » اللندنية ، صفحة ٩٧٢ ، ذكرت المجلة أنه لم يتبن من العادات الانجليزية « غير عادة شرب البنش » ولا يخلص الا لغلغونه ، مبهور بكل شيء هنا خاصة النساء ، ويشرب زجاجتين من الشمبانيا أو البرجندى بعد كل وجبة عشاء ! وأما قارئ الجبرتي فيخرج بانطباع قوى عن مدى استفادته من اقامته هذه بانجلترا . فقد « تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم ، وكثرة أموالهم ، ورفاهيتهم وصنائعهم ، وعدلهم في رعييتهم مع كفرهم ، بحيث لا يوجد فيهم فقير ولا مستجد ولا ذو فاقة ولا محتاج . وقد أهدوا له هدايا وجواهر وآلات فلكية وأشكالا هندسية وأسطرلابات وكرات ونظارات ، وفيها ما اذا نظر الانسان فيها في الظلمة يرى أعيان الاشكال كما يراها في النور ! ومنها لخصوص النظر في الكواكب ، فيرى بها الانسان الكوكب الصغير عظيم الجرم ، وحوله عدة



كواكب لا تدرك بالبصر الحديد ، ومن أنواع الأسلحة الحربية أشياء كثيرة ، وأهدوا له آلة موسيقى تشبه الصندوق ، بداخلها أشكال تدور بحركات ، فيظهر منها أصوات مطربة على إيقاع الأنغام ، وضروب الألحان » ! .

ويظهر تأثير « عدلهم فى رعيتهم » فى نفس الألفى من القصة التالية التى يرويها الجبرتنى عنه :

« أخبرنى بعض من خرج لملاقاته عند منوف العلا ، أنه لما طلع إليها وقابله سليمان بك البواب ، وكان قد باغ الألفى كافة أفعاله بالمنوفية من العسف والتكاليف ، تسامروا فى ذكر العدالة الموجبة لعمار البلاد . فقال الألفى لسليمان بك : الإنسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها ، يلزمه أن يرفق بها فى العلف حتى تدر وتسمن وتنتج له النتاج ، بخلاف ما إذا أجاعها وأجففها وأتعبها وأشققها وأضعفها ، حتى إذا ذهبها لا يجد بها لحما ولا دهنا . فقال سليمان بك : هذا ما اعتدناه وربينا عليه . فقال الألفى : ان أعطانى الله سيادة مصر والامارة فى هذا القطر ، لأمنع هذه الوقائع ، وأجرى فيه العدل ليكسر خيره ، وتعمر بلاده ، وترتاح أهله ، ويكون أحسن بلاد الله . ولكن الأقليم المصرى ليس له بخت ولا سعد ، وأهله تراهم مختلفين فى الأجناس ، متنافرى القلوب ، منحرفى الطباع » .

### « انظرى يا مصر الى اولادك »

عاد الألفى من انجلترا الى مصر فى أواخر عام ١٨٠٤ ، فاذا به يفاجأ بنجم آخر فى صعود سريع ، هو نجم مغامر المعى تمكن من الاستفادة لصالحه من ضعف العثمانيين والمماليك جميعا . وعندما نجح العلماء فى تولية محمد على حكم مصر ، غضب الألفى وهاج ، واتجه الى البحيرة محاولا الاستيلاء على دمهور ، فقاومه أهلها بما كان يرسله اليهم عمر مكرم من الأسلحة ، فى

حين وجد محمد على من السهل استمالة أمراء المماليك الى صفه بالمراسلات والهدايا ، وبسبب ما كانوا يكنونه للألفى من الغيرة والحقد ، رغم تحذير الألفى المتكرر لهم من نوايا محمد على .

وأرسل اليه محمد على جيشا ليحاربه عند دمنهور ، فهزمه الألفى شر هزيمة . غير انه لم يطارد فلوله . وبادر فأرسل الى الحكومة البريطانية يلتبس منها ارسال قوة عسكرية تساعده ، فوعده بانفاذ ستة آلاف جندى بريطانى . وأقام الألفى ينتظر قدوم الانجليز قرابة ثلاثة أشهر . واذ هو قرب قناطر شبرامنت فى طريقه مع مماليكه الى الصعيد ، « نزل على علوة هناك ، وجلس عليها ، وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر الى جهة مصر ( القاهرة ) وقال : يا مصر ! أنظرى الى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنؤد ، وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاثلون أبطالك ويسكنون قصورك... ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله وقد تحرك به خلط دموى . وفى الحال تقياً دما ، وقال :

- قضى الأمر ، وخلصت مصر لمحمد على ، وليس ثمة من ينازعه ويفالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم .

ثم مات فى تلك الليلة ، .

وعندما دخل على محمد على من يبشره بوفاة الألفى ، صاح الرجل فى فرح عظيم :

- الآن طابت لى مصر ، وما عدت أحسب لغيره حسابا .

\*\*\*

وفى ١٣ مارس ١٨٠٧ ، أى بعد وفاة الألفى بأربعين يوما بالضبط ،

وصل الجيش البريطانى بقيادة فريزر الى الاسكندرية .

## الأوروبيون في مصر وعصر محمد علي

لم تكن الوجوه الأوروبية بالمنظر غير المألوف في مصر قبل وفود الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ . فقد عرفت مصر القناصل الذين كان استنجاحهم بفرنسا بسبب اساءة المماليك المزعومة الى التجار الفرنسيين من المبررات المعلنة للغزو الفرنسي . وعرفت الرحالة من امثال نيبور وفولني ، والجماعات التي كانت تفد اليها لتقضي احوالها او دراسة امكان غزوها ، كجماعة الضباط الذين ارسلهم لويس السادس عشر . وكان هناك الافرنج المترددون عاينها للتجارة ، خاصة في الاسكندرية ، ثم الافرنج « البلديون » بالقاهرة وبعض المدن الكبرى ، وهم الذين حدثنا الجبرتي عن اقبالهم على فتح المطاعم والحانات لجنود الحملة الفرنسية ، وعمل بعضهم ك مترجمين لقادة الحملة وعلمائها . . غير ان عدد هؤلاء جميعا لم يكن من الضخامة بحيث يكفل احاطة عموم اهل القطر ، بل ولا سكان المدن الكبرى عدا الاسكندرية ، بأحوال الافرنج وعاداتهم ، وبحيث يترك أثره او يحدث تغييرا في مظاهر حياة لقيف من الشعب ، خاصة أن الأجانب وقتها كانوا يشعرون بالخطر والعزلة ، لا يجازف أحدهم بالخروج من القاهرة او الاسكندرية أو رشيد أو دمياط دون حراسة مسلحة ، وكان للتجار منهم في القاهرة حتى مسور خاص بهم ، يتولى حراسة بواباته جنود من الانكشارية . .

أما هذه الاحاطة وهذا التأثير فقد بدأ بالغزو الفرنسي ، حين قدم بوناپرت في صحبة نحو ثلاثين ألف من الجنود ، وخمسمائة مدني ، و١٦٥٥ عالما ، وثلاثمائة من النساء ، وانتشر هؤلاء جميعا في مدن القطر وأريافه وصحاريه من الاسكندرية الى أسوان .

## الافاقون

وقد فضل المثات من الفرنسيين البقاء في مصر عند رحيل الحملة عام ١٨٠١ ، وانحاز بعضهم الى طائفة أو أخرى من الطوائف المختلفة المتنازعة في مصر في السنوات ما بين ١٨٠١ و ١٨٠٥ . غير أن غالبيتهم سرعان ما مالت الى محمد علي دون المماليك والعثمانيين ، وداعبها الأمل في أن يتمكن من تادية خدمات جليلة للمصالح الفرنسية في الشرق . فلما تولى حكم مصر التحقوا بخدمته ، وانبروا يسدون اليه النصح والعون في شؤون الحرب والسلم . وبعد هزيمة نابليون في واترلو عام ١٨١٥ وسقوطه ، خشى عدد كبير من جنوده أن يتعرض لهم لويس الثامن عشر بالاساءة والتنكيل ، فأسرعوا بالهجرة الى الشرق يعرضون على حكاهم خدماتهم . وقد استقبلت مصر طائفة من هؤلاء الجند ، اعتنق بعضهم الاسلام ، وتبنى عادات المصريين .

وقد كان من المؤلف ، ومن الطبيعي ، أنه كلما أقبلت أمة متخلفة على الأخذ بأساليب التمدن الغربى ، تدفق عليها في ركاب الخبراء والمدربين والمستشارين الغربيين ، زمرة من المحتالين والافاقين من أوروبا ، سعيًا وراء الكسب عن طريق استغلال مطامع الحكام وسذاجة الشعوب . وصفحات الأدب الروسى زاخرة بصور هؤلاء الذين وفدوا الى روسيا في أعقاب « اصلاحات » بطرس وكاترين ، فتلهفت المنتديات على دعوتهم ليكونوا نجوم سهراتها ، وأرباب الأسر الكبيرة على اسناد مهمة تعليم الأولاد اليهم . كذلك فانه ما أحس هؤلاء باتجاه محمد على وحكومته الى الاقتباس من نظم الغرب بأى ثمن ، وتكريمهما الزائد للأوروبى لمجرد تمتعه بجنسية أوروبية ، حتى توافد على مصر أفواج من الأطباء والمهندسين ومبتكرى المشروعات والتجار والعسكريين ، يحملون الى الوالى رسائل توصية ، أو بدون رسائل توصية ، هذا يعرض اختراع غواصة ، وآخر يشرح وسيلة

مبتكرة لرفع المياه « مؤكدا أنها اذا روعيت تجيء بالمعجزات المدهشات » ،  
وثالث يقترح صنع قذائف من نوع جديد لاحتراق سفن العدو وتدمير  
حصونه ، ورابع قد ابتدع أساليب مستحدثة لتدبير القتال وتعبئة الجيوش ،  
ثم اطباء دجالون يدعون معرفة أسرار علاج الدسنتاريا والرمم الصديدي  
والطاعون ، يفررون بالسذج ، ويقابلون بما لا يستقبل به غير الكبراء من  
مظاهر الحفاوة والتبجيل ، « وما هم فى الحقيقة الا لصوص » . وكثيرا  
ما كانت تجرب فى مصر اختراعاتهم هذه ، مما كانوا قد عرضوه فى بلادهم  
من قبل فرفضتها ، فلا تؤدى الى غير الفشل .

وقد قص علينا كلوت بك فى كتابه « لمحة عامة الى مصر » نبأ أحد  
هؤلاء الدجالين ، وهو « البارون » دو فانجنج ، الذى قدم الى الاسكندرية  
فاستقبل أحفل استقبال من أهل الطبقات العليا فيها ، تقديرًا لكسب  
التوصية العديدة التى زود بها . وقد بدأ هذا الألماني بالنزول فى دار  
عظيمة تنم عن كافة مظاهر الأبهة ، وانفاق المال عن سعة ، يستقبل  
الزائرين من أهل البيوتات الكبيرة والأسر الكريمة . فلا يدور حدينه معهم  
الا عن قصوره الشامخة وأمواله الطائلة فى المانيا . وكان الناس يتسابقون  
اليه راجين ان يتفضل عليها باصدار أمر او التعبير عن رغبة ، ليتباروا فى  
تحقيقهما فوراً ، وما من أحد منهم الا تقدم اليه بماله يساله التعطف عليه  
بقبوله . وصار الناس يتفاخرون بأنهم ممن فازوا بحظوة المتول بين يدي  
البارون ، واذا صادفت فى الطريق وجيها وسألته عن وجهته اجاب بكبرياء  
وصلف انه يقصد البارون . . . ثم اذا بالشكوك تحوم حوله بعد اقامته فى  
الاسكندرية نحو عام ونصف ، واذا به يعترف بحقيقة حاله ، وبأن قصوره  
وأمواله لم تكن قط الا بمخيلته ، فضاع على الناس ما لا يقل عن خمسين  
الف فرنك كانوا قد أقرضوه اياها .

وينصح كلوت بك فى كتابه القناصل الفرنسيين بتطهير الجالية الفرنسية فى مصر « من المحتالين الذين لا ذمة لهم ، ممن يلوثون سمعة أمتهم باغتنائهم فرصة جهل الشعب المصرى وسذاجته وركونه اليهم لابتزاز أمواله ، وانتحالهم الألقاب والصفات للتغريب به » . غير أنه يمضى فيهاجم طائفة أخرى من الأوروبيين ، كانوا يحذرون محمدا عليا من أبناء جنسهم ، ويتهمون لديه الموظفين الأوروبيين فى حكومته بقلة الكفاءة والجهل ، ذاهبين الى أن « اصلاحاتهم » لا تفيد البلاد ، أو أنها خيالية غير ميسرة التحقيق فى مصر . والظاهر أن أفراد هذه الطائفة التى هاجمها كلوت بك ( وهو الموظف الكبير فى حكومة محمد على ، وكان يمكن أن ينطبق عليه اتهامهم ) ، كانوا من أولئك الزائرين الأوروبيين لمصر ( خاصة الكتاب والفنانين منهم ) ، الذين رثوا لخال المصريين اذ رأوهم « يهجرون عاداتهم المحمودة ليستبدلوا بها العادات الأوروبية » ، وكانوا معجبين بمصر أيما إعجاب ، شديدي التحمس لشعبها ، مسارعين الى تقليد طرائق المسلمين فى المعيشة والملبس ، حتى انهم صاروا فى مصر يسيرون حفاة ويلبسون العمام ، « رغم أن استخدامها فى مصر قد قل وأصبح يكاد يقتصر على الطبقة الدنيا من الشعب » .

### طبقاتهم

أما عن غير هؤلاء الأفاقيين والرحالة ، فقد كان بمصر عدد من القناصل الأوروبيين وأعوانهم ، يمثلون فرنسا وانجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا وأسبانيا والسويد وصقلية وسردينيا وهولندا وبلجيكا والدنمارك وتوسكانيا ، يقيم كباراؤهم بالاسكندرية ، ويقومون فى الواقع بمهام السفراء ، ولهم نواب من الافرنج فى القاهرة ، ونواب من أقباط مصر فى دمياط ورشيد والسويس وقنا والأقصر .

ثم تجار الجملة ، ومعظمهم بالاسكندرية ، وتجار القطاعى من اصحاب متاجر الزجاج والمجوهرات والأقمشة ومتاجر الأزياء الحديثة التي كانت توقف زبائنها على حركة الأزياء المستحدثة فى أوروبا . وكان بالاسكندرية وحدها نحو مائة متجر أوروبى ، ونحو عشرة مطاعم للفرنسيين واليطاليين والانجليز ، ومقام يقدم فيها الجيلاتى والشوكولاته على الطريقة الأوروبية ، ومخابز افرنجية كان الناس يقبلون اقبالا كبيرا على شراء فطائرها . كما كان بالقاهرة عدد كبير من المطاعم على الطراز الأوروبى .

ثم أرباب الحرف والصنائع من النجارين والبنائين وصانعى الاقفال والسمكرية والنحاسين والصاغة وصانعى المركبات والساعات والأحذية والقبعات والخياطين للملابس الرجال والنساء . أما عن موظفى الحكومة من الأجانب ، فيقول كلوت بك انهم كانوا عام ١٨٤٠ أقل كثيرا مما يظن الناس ، وذلك حين بدأ محمد على يستغنى عن البعض لانقضاء الحاجة اليهم ، وهو ما يستنكره كلوت بك « بالنظر الى حاجة الأنظمة الجديدة الى الحرص على ثمراتها واطراد السير والتقدم ، مما يستدعى الاستمرار فى طلب العون من الأوروبين والاسترشاد بهم » . أما عن عددهم فكان بينهم مائتا طبيب وصيدلى ، وعشرون مدربا فى الجيش ، وما بين عشرين وخمسة وعشرين مدرسا أغلبهم فرنسيون ، ثم مديرون وصنائع من الفرنسيين والانجليز واليطاليين .

وقد بلغ عدد القاطنين الأجانب فى مصر فى أواخر حكم محمد على نحو عشرة آلاف من بين مجموع السكان البالغ حوالى ثلاثة ملايين نسمة . وكان أكثرهم عددا اليونانيون ( ٥٠٠٠ نسمة ) ، فالإيطاليون ( ٢٠٠٠ نسمة ) ، فالمالطيون ( الف ) ، فالفرنسيون ( ٨٠٠٠ ) ، فالانجليز ( مائة ) ، والنمساويون ( مائة ) ، فجمع من الروس والأسبان والسويسريين

والبلجيكيين والهولنديين والألمان والدنماركيين ( مائة وخمسون ) • وكان  
بالاسكندرية وحدها نحو نصف هذا العدد ( ٥٠٠٠ أوروبى ) من بين  
مجموع سكانها البالغ ستين ألف نسمة •

وكان الأوروبيون فى مصر يقطنون أحياء أنيقة خاصة بهم ، « ففى  
الافرنج بالاسكندرية أرقى بكثير من بقية أحياء المدينة الآهلة بالوطنيين » •  
وكان بالقاهرة حى خاص بالارستوقراطية التجارية منهم من أصحاب البنوك  
والسماسرة ومنظمى التجارة فى منتجات مصر والهند ، هو عبارة عن شارع  
رئيسى يفص بحوانيت اليونانيين والأرمن ( وكان عدد الأرمن وقتها نحو  
الفين ) ، ويذكر الشاعر الفرنسى جيرار دو نيرفال فى كتابه « رحلة الى  
الشرق » انه كان بالقاهرة فندق خاص بالفرنسيين « به بيانو وبإياردو » ،  
وفنادق خاصة بالانجليز يأكل نزلأوها - شأن المسافرين فى البواخر - من  
معلبات الخضر واللحم دون المأكولات المصرية الطازجة • وقد لاحظ نيرفال  
أن الأوروبيين فى مصر بوجه عام لا يعرفون البلد وأهله معرفة وثيقة ، « قد  
غلب عليهم السأم ، ولا يظهرون الا فى أماكن معينة تناسبهم ، ولا يتحدثون  
مع من هم من طبقة أقل من طبقتهم ، يسعدهم مقابلة الأوروبيين الجدد ،  
ولكنهم لا يجرءون على الاختلاط بالمصريين أو على مشاهدة احتفالاتهم ورقصهم .  
ويخشون أن يراهم الناس فى المقاهى أو الملاهى ، ولا يعقدون صلات أخوية  
مع عربى من العرب الكرماء الذى يهديك بدافع من شعور الود علبة غليونه ،  
أو الذى ما أن يراك تتوقف للاستطلاع أو بسبب التعب أمام بابهِ حتى يبادر  
بتقديم القهوة لك • وكان المصريون يدهشون لمراى القفايز ( الجوانتيات )  
السوداء فى أيدي الأجانب ، ويتساءلون كيف يمكن أن يكون للمرأة يدان  
سوداوان ووجهه أبيض ! » • ثم يعلق نيرفال على نمط معيشة الأوروبيين  
هذا فى مصر بقوله « انه كان من الأولى بهؤلاء ألا يغادروا أوطانهم ، أما من  
ناحيته فقد كنت فى مصر أحيى حياة شرقية تماما » •



وكان أغنياء الأجانب يتوسعون فى الانفاق والبنخ فى الأثاث والثياب وتعقب الأزياء الباريسية ، و يقيمون الحفلات الراقصة والاحتفالات فى كل مناسبة . وكان لهم بالاسكندرية مسرحان ، أحدهما لعرض المسرحيات الفرنسية ، والآخر للأوبرا الإيطالية ، بناهما هواة المسرح من الأفرنج وتولوا إدارتهما . كما كان بالقاهرة مسرح صغير يتردد عليه الإيطاليون والأرمن واليونانيون ، ويعرض فودفيلات يمثاها فرنسيون ، ويعزف ضمن فرقته الموسيقية بعض الضباط فى جيش محمد على .

### أخلاقهم

ولم يكن للأجانب حق الملكية العقارية فى مصر . ولكنهم كانوا كثيرا ما يلجأون الى الحيل القانونية التى تمكنهم من استغلال الأملاك والمصانع ، كاستخدام الأقباط فى تملك العقارات بالوكالة عنهم . ويتحدث نيرفال عن سيدة قبطية كانت تمتلك أكثر من عشرين منزلا بالوكالة عن بعض الأجانب ، ويقول ان البيت الذى سكنه فى القاهرة كان فى الحقيقة ملكا لأحد موظفى القنصلية البريطانية . . غير أنه كان للأجانب حق امتلاك الحوانيت ، يملأونها بالسلع من منتجات كافة الأقطار الأوروبية . فكان لانجلترا مكان الصدارة فيما يختص بالأصواف ، وفرنسا بالمستحدثات من الأزياء ، ومرسيليا بالبقالة واللحوم المدخنة وغيرها . « وتبذل الصناعة الأوروبية قصارى جهدها لاجتذاب الأغنياء من سكان القاهرة والأترك التقدميين والأقباط اليونانيين ، وهم الأكثر استعدادا لتقبل العادات الأوروبية . وثمة فى الموسكى مشرب بيرة انجليزى ، يقصده الناس لمقاومة مفعول مياه النيل التى تصيبهم أحيانا بالرخاوة . وهناك مكان آخر هو صيدلية كاستانيول ، يأوون اليه هربا من الحياة الشرقية ، ويستعيد فيه الأوروبيون ذكرياتهم عن الحياة فى وطنهم ، بينما يجلس الشرقيون وعلى صدورهم الأوسمة البراقة

يتحدثون بالفرنسية ويقرأون الصحف » • ويضيف نيرفال قوله ان بعض التراجمة المصريين تولد لديهم بسبب كثرة مخالطتهم للأجانب « ميل متطرف الى البيرة والويسكى » •

ويتحدث كل من كلوت بك وجيرار دو نيرفال عن الطوائف المختلفة من الأجانب في مصر • فأما الانجليزى « فمن أشد أفراد الجاليات الأوروبية حرصا على عاداته ، اذ تراه في القاهرة - كما في لندن - لا يستطيع الاستغناء عن أكل البوفتيك والروزبيف وجبن الشستر أو عن تناول المشروبات قوية المفعول ، ولا يأنس الا الى أبناء جنسه ، لا يختلط بغيرهم الا قليلا • وبالنظر الى صلابه أخلاق الانجليز والتزامهم الوقار فى سلوكهم والجد فى معاملاتهم ، تراهم يؤلفون هنا أسمى طبقات الجاليات الأجنبية وأشرفها وأصونها لكرامتها » • « وهم فى مصر يابسون قبعات مستديرة مكسوة بالقطن للوقاية من حرارة الشمس ، وغطاء للعنين لتخفيف حدة الضوء ، وشاحا يحميهم من الأتربة ، وعلى معاطفهم غطاء خارجى من القماش المشمع لحمايتهم من المطاعون ومن الاحتكاك بالمارة من أهل البلد • وترى الانجليزى وقد أمسك بيده من داخل القفاز بعضا طويلة يبعد بها عنه كل عربى موضع ريبة ، وتابعه يقذف بهؤلاء العرب يمنا ويسرة » !

أما الفرنسيون الذين لاحظ نيرفال ان الكثيرين منهم قد باتوا يقلدون الانجليز فى معيشتهم وسلوكهم ، فيراهم كلوت بك مخالفين للانجليز فى الطباع والميول ، سريعى التحمس للشيء وسريعى الملل منه • « والشرقيون يؤثرونهم بالمحبة لما جبلوا عايشه من الأدب والذكاء وحضور البديهة والبشاشة والكياسة ، وهى طباع اذا أضيفت الى ما تركوه بأرض مصر من ذكرى وجودهم بها ( أثناء الحملة الفرنسية ) ، تحمل الأهالى على اختصاصهم بمودتهم » •

وقد اشتهر الألمان فى مصر بدمائة خلقهم وطيب سريرتهم • أما  
الايطاليون فقد كانت أخلاق أهل الطبقة الوسطى منهم - وهم كثيرون -  
« سببا فى القاء كثير من التهم الجائرة على عاتق الأمة الايطالية بأسرها » •  
وأما اليونانيون فمنهم من هم من سلالة الاغريق القدماء ، يسكنون مصر منذ  
أمد بعيد ، وقد تحولوا عن لغتهم الى العربية مع احتفاظهم بالكثير من  
السمات المميزة لشعبهم ، ومنهم من هاجر الى مصر بعد الفتح العثمانى  
لها ، وجميعهم تقريبا يعملون بالتجارة • وكان ابراهيم باشا قد أسر  
عددا كبيرا من الشباب اليونانى خلال حرب المورة ، فبيعوا فى مصر رقيقا ،  
ثم اعتنقوا الاسلام ، ووصل بعضهم الى رفيع المناصب فى الادارة والجيش •

### معاملتهم للمصريين

وقد لاحظ كلوت بك فساد الأخلاق المنتشر بين الجالية الافرنجية ،  
وانتهاكهم حرمة التقاليد المصرية ، وسوء استغلالهم للحرية التى منحها  
محمد على للأوروبيين « من فيوض مكارمه » • ويقول نيرفال ان الكثيرين من  
الافرنج الذين التحقوا بخدمة الوالى اعتنقوا الاسلام ، اما عن مصلحة  
لضمان طاعة مرؤسيهم المسلمين لهم ، أو طلبا للمتعة بالنظر الى أوهامهم  
المتعلقة بلذات الحريم ، والسلطان المطلق للزوج أو للسيد ، وفكرتهم عن  
النساء الفائنات اللواتى تتضافر جهودهن من أجل اسعاد رجل فرد ، تم  
عادوا بعد ذلك الى المسيحية حين تبددت أوهامهم ، أو انقضى أمد وظائفهم •

وكان الأوروبيون بوجه عام « يعاملون الشعب المصرى المسكين بازدراء  
جم » • فقد أصبحوا الآن يقاسمون الجنس التركى امتيازاته ، وتبنوا نظرة  
الأتراك الى المصريين • بل انه حتى الأرمن الذين كانوا يتعقبون الغزاة  
العثمانيين فى تنقلهم من قطر الى آخر ، واستقر بعضهم فى مصر عقب الفتح  
العثمانى ، تعلموا أن يعاملوا المصريين بعجرفة وصلف ، وهم الذين ذاقوا

من الأتراك كافة صنوف الازلال والمهانة ، بل وصاروا يتحاشون الاختلاط بأهل مصر . ويتحدث كلوت بك عن مسلك الشدة والقسوة الذى سلكه الأوروبيون مع المصريين ، فيقول ان بعضهم « كان يعتبر المصريين كائنات حقيرة ليست من الجنس البشرى ، ويقول علنا انه لا ينبغى مخاطبتهم الا بالكرباج . . ولذا فان هؤلاء يحرصون عند وصولهم الى مصر على التزود بالكرابيج ، يضربون بها من غير رحمة ولا سبب معقول أفراد الجمالين والحمارين والمراكبية » . وأما السياح منهم ممن يصادفون المشاق فى رحلتهم الى مصر ، وتسوهم صعوبة اللغة العربية ورداءة الطرق وقلة أسباب الراحة مما اعتادوه فى بلادهم ، فكانوا يكثرون من الشكوى ، ويستشعرون الكراهية لمصر والمصريين ، لا يرون الأشخاص والأشياء فى ضوء حقيقى ، ثم يتنفسون الصعداء حين تتوارى أرض مصر خلف سفينة العودة ، حتى اذا هم وصلوا الى بلادهم ، أطلقوا العنان لالسنتهم يذمون مصر وأهلها ، وان كتبوا عنها كتبوا ما لا يطابق الحقيقة .

ومع ذلك فقد كانت الامتيازات والتسهيلات التى يوفرها محمد على وحكومته لهؤلاء الأجانب ، من المقيمين والسائحين ، عظيمة لا حصر لها . فهو يحتفى شخصيا بكبار الزوار ، وينزلهم قصوره أو قصور كبار رجال دولته . وأما السياح العاديون فهم يزورون ما يشاءون زيارته من الأماكن والآثار فى راحة ويسر ، ويزودهم الوالى بكتاب توصية للانتفاع به حيثما حلوا . وكانت صيغة خطاب التوصية من محمد على على النحو التالى :

« ان صديقنا الحميم القديم المسيو . . . . . ، وجنسيته . . . . . ، جاء الى أملاكنا ليزور المعاهد الأثرية وغيرها من الأماكن المفيدة له فى أبحاثه . وقد قدمه الينا جناب قنصله . فبناء عليه قد سلمناه فرماننا هذا لينتفع ويستظهر به أثناء رحلته فى طول أملاكنا وعرضها . فعلى المديرين

والمأمورين وأرباب الحل والعقد ، ملكيين وعسكريين ، وبالجملية ، كل من يقدم اليهم هذا الفرمان ، أن يعنوا بأمره ، ويهتموا بأداء الخدمات التي يروم منهم قضاءها ، حتى لا ترفع إلينا منه شكوى فيما بعد .

« ونوصيكم بعمل ما يازم كى لا يلحقه حيف ، أو يوجه إليه شتم من الفلاحين أو غيرهم ، وإن تبادروا بموافاته بكل ما يحتاج إليه ، وألا يدفع ثمننا عنه إلا ما يطابق السعر الجارى فى البلاد ، وذلك فيما يختص بأجر ركوب الدواب والمراكب وثمان الأغذية ٠٠٠ الخ . وإنى اعتبر أن الخدمات التى ستؤدونها إليه كأنها أديت إلينا بالذات » .

وكان الأجانب ان رفعت مراكبهم فى النيل اعلام دولهم ، يضمنون سلامتهم واحترام الفلاحين لهم ، خاصة ان كان العلم هو العلم البريطانى . وهو الذى كان يستخدمه من هم من غير انجلترا طلبا للمزيد من الطمانينة ! وكانت الشرطة المصرية ان ضبظت أوروبا متلبسا بانتهاك حرمة امرأة مسلمة ، نطلق سراجه غالبا دون عقوبة . ويضيف نيرفال قوله انه ، بوجه عام ، « لا يستطيع أحد فى القاهرة - غير الأتراك - مقاومة الفرنج ، وإن كل أوروبى لا ينتمى الى طبقة الصناع أو التجار يعتبر فى مصر شخصية كبيرة » .

### تأثيرهم فى المصريين

وقد كان لوجود الأوربيين فى مصر أثره فى بعض عادات المصريين وأخلاقهم فى عصر محمد على ، خاصة الأغنياء منهم .

فقد حرص أغنياء المصريين على استيراد فاخر الأثاث لقصورهم من الدول الأوروبية ، من المرايا والثريات وساعات الحائط ، الى آخره . وقد شغفوا بهذه الساعات شغفا شديدا حتى كان البعض منهم يعلق فى الحجرة الواحدة ساعتين أو ثلاثا ! وقادوا الأوربيين فى طريقة تناولهم للطعام ،

فاقتنوا صحافا كصحافهم ، واستعملوا الشوك والسكاكين والكثوس .  
غير أنهم كانوا كثيرا ما يخلطون فيتناولون الحساء فى صحاف الحلوى ،  
ويشربون النبيذ فى أقداح الشمبانيا ، وقد يتناولون قطعة اللحم بأصابعهم  
ثم يفرسون الشوكة فيها ويرفعونها الى أفواههم . وان أقيمت مأدبة على  
النمط الأوروبي ومر الخادم على المدعوين بطبق الطعام ليغرفوا لأنفسهم منه ،  
تناول المدعو الطبق من يد الخادم ووضعه أمامه ظانا أنه بأكمله له ! وقد كانوا  
قبل اتصالهم بالأوروبيين لا يعرفون غير الماء شرابا عند تناول الطعام .  
فاذا هم الآن وقد نقلوا عن الأوروبيين عادة شرب النبيذ وغيره من المسكرات ،  
وان كان اقبالهم عليها فى غير اعتدال ، لا يلتزمون فيها نشاطا أو فائدة .  
وانما يلتزمون فقدان الوعي . يقول كلوت بك : « ذلك أن الشرقيين  
لا يأخذون فى الغالب من أخلاقنا وعاداتنا كلما اختلطوا بنا سوى ما كان منها  
سئ العاقبة ، بعيدا عن الصواب » .

أما عن الملابس فلم يطرأ تغيير كبير عاينها فى عهد محمد على ، اللهم  
الا فى الجيش حيث بدأوا بحذف العمامة من ملابس الجنود بعد تنظيم الجيش  
عام ١٨٢٣ ، وتبعوها بحذف الأكمام الواسعة التى تحد من الحركة . وكان  
ابراهيم باشا أول من استبدل الطربوش بالعمامة ، فلم يلبث جنده وغيرهم  
أن قلدوه ، وأبس محمد على نفسه ملابس الجند التى نقلها عن ألبانيا .  
وكان اختيار الطربوش دون القبعة بسبب كراهية المسلمين للبس الأخيرة  
واعتباره بمثابة الكفر . وأما عن النساء فقد قصرن الأكمام فأصبحت تنتهى  
عند المعصمين ، وأغفلن الجبة فأضحى ارتداؤها قاصرا على المسنات . وشاع  
استعمال الجوارب بين نساء الأغنياء . وقد تركن العمامة الكبيرة المرصعة  
بالجواهر ، وكذا الملابس المزركشة بالذهب ، وحل محلها نسيج حرير  
الموصلين البسيط .

وقد كان للحية دوما احترام عظيم عند المسلمين وغيرهم من الشرقيين باعتبارها رمزا للرجولة والقوة . وكانوا يرمون من لا شارب له ولا لحية بأقبح الصفات ، فان أقسموا بهما كان القسم يمينا لا حنث فيه . غير أن محمدا عليا أمر بخلق لحى الضباط والجنود ، فاذا بعادة حاقها تنتقل الى الأعيان ، خاصة عندما بدأوا يرتدون الشياح على طراز الزى العسكرى سواء كانت لهم مناصب فى الجيش أو لم تكن .

وعندما علم محمد على أن لكل فرقة بالجيش الأوروبية جوقة موسيقية خاصة بها ، وأحب ألا تكون حكومته دون حكومات الغرب فى هذا الصدد ، استدعى الى مصر طائفة من الموسيقيين الفرنسيين أنشأوا معهدا للموسيقى لتعليم مائتين من جنود الجيش المصرى العزف على الآلات الأوروبية الحانا عسكرية وغناء الأناشيد الأوروبية ! يقول كلوت بك : « انه بالرغم من أنه كان المفروض أن أسر بسماع انغامنا العسكرية وأناشيدنا الوطنية فى البلد الذى سار فيه أبطالنا قبل ثلاثين عاما ، لم أشعر قط بمثل ذلك الاغتراب لاستعارة المصريين لها منا ، ونقلهم اياها عنا دون تحوير . فموسيقانا لا تؤثر بالمرّة فى المصريين ، حتى أن نشيد المارسييليز الذى يعرفونه ويميزونه عن غيره من الأناشيد الفرنسية ويسمونه بأنشودة بونايرته ، لا يهز وترا واحدا فى قلوبهم ، ولا تنشرح له صدورهم . وبالتالى فان مطالبة المصريين باستعمال آلاتنا الموسيقية والتغنى بأناشيدنا الأوروبية لا تحقق الغرض المطلوب من الموسيقى العسكرية ، وهو اثارة النشاط والحماس فى الجند . ولا شك فى أن الموسيقى لغة ، وارغام المصريين على سماع موسيقانا تعزف على آلات لم يألوها ، هو كارغام امرئ على حفظ عبارات فصيحة فخمة بلغة لا يفهمها . وعلى هذا فان المصريين الذين يغمى عليهم سرورا اذا سمعوا الاغانى المصرية المملة ، لا يشعرون لدى سماعهم أغانيها الا بالملل وانحراف المزاج . واذا كان من الآلات الأوروبية ما يلتذون بسماعه وتبهجهم رؤيته

فهو الطبل الكبير ! ٠٠ وقد كان الأحرى والأفيد أن يستدعى الى مصر فنانون أوروبيون قادرون على فهم كنه الموسيقى المصرية وعبقريتها ، ليطوروها ويجعلوها منها موسيقى خاصة يكون للآلات الوطنية نصيب فى عزفها » .

ومع ذلك فقد ظل التأثير الأوروبى فى عادات المصريين ومفاهيمهم محدود النطاق ، وظلت الغالبية على اعتزازها بتقاليدها بل وعلى اعتقادها بتفوقها على تقاليد الفرنجة . وقد نقل لنا جيرار دى نيرفال حوارا شيقا دار بينه وبين أحد المصريين حول المرأة ، يعكس مثلا لهذا الاعتزاز :

قال المصرى : ان نساءكم الروميات ( الأوروبيات ) هن للناس جميعا ولسن لكم وحدكم ٠٠ فتلك المخلوقات الحمقى يكشفن وجوههن كاملة لا لمن يريد رؤيتها فحسب ، بل وحتى لمن لا يريد رؤيتها ٠٠ لقد رأيت بعضهن فى الطريق ينظرن الى فى شغف ، بل ودفع الفجور احدهن الى محاولة تقبيل ! وليتهن كن ممن يسن المؤمنين أن يسمح لهن بتقبيل يده ! ولكنهن « زراعة شتوية » ، لا لون لها ولا طعم . وجوه مريضة وأبدان جائنة بوسعى أن احتوى جسد الواحدة منهن بين ذراعى ! أما من يتزوج من احدهن فلن يعرف بيته غير الحرب والشقاء ٠٠ النساء عندنا يعيشن معا فى جانب من المنزل والرجال فى جانب ، وهو السبيل الوحيد الى الهدوء والراحة . أما نساؤكم فيعيشن مع الرجال فى مكان واحد .

قال نيرفال : ولكن ألا تعيشون مع نساؤكم فى الحريم ؟  
صاح الرجل : يا قوة الله ! من ذا الذى لا تحطم ثرثرتهن رأسه ان هو أقام معهن ! رجالنا يقضون أوقات فراغهم فى النزهة ، أو فى الحمام أو المقهى أو المسجد ، أو فى الزيارات والاستماع الى القصص والأشعار ، أو فى التدخين بصحبة الأصدقاء . وكل هذا أدعى للتسلية من الحديث مع النساء اللاتى لا يشغلن الا الأمور السخيفة كالزينة والقييل والقال .



- ٩٩ -

قال نيرفال : ومع ذلك فأنتم تحتملونهن في أوقات الوجبات .

رد المصري : لا يا سيدى . نحن نأكل اما بمفردنا أو مع أصدقائنا .  
صحيح أن بعض الرجال يأكلون مع نساءهم ، غير أن الناس لا يقرؤونهم على  
مسلكتهم هذا ، كما أن شخصيتهم تنسم بالرخاوة ولا جدوى من حياتهم .  
فالأحرى إذن أن يبقى أبناء كل جنس مع من يشاكلهم ١٠٠٠



## سيرريتشارد بيرتون في مصر

في عام ١٨٥٥ ، صدر في لندن كتاب بعنوان « قصة حجى الى المدينة ومكة » لمؤلفه الايرلندى ريتشارد بيرتون ، سرعان ما احتل مكانة خاصة بين كتب الرحلات الخالدة . فهو يروى أشهر مغامرة لرحالة من أجراً وأعظم رحالة القرن التاسع عشر . كما أن الوصف الحى فيه ، والطابع الشخصى الغالب عليه ، والدراسة الدقيقة التى تضمنها للحياة والعادات العربية ولحج المسلمين ورحلة الحجاج ، وذلك المزيج الغريب من دقة الملاحظة ، والعلم الواسع ، والفكاهة ، كلها أمور تجعل من هذا الكتاب وثيقة فذة ، ومن قراءته متعة لا تعدلها متعة .

ومع أنه من حق أى مسلم - عربياً كان أم غير عربى - أن يؤدى فريضة الحج وأن يزور الحرمين ، فقد قرر بيرتون - حين اعتزم القيام بالرحلة - ألا يختار طريق التظاهر بأنه مسيحي أسلم . فالمسيحي الذى هجر دينه على حد تعبيره ، « لن يسلم من شك الكثيرين فيه ، ومن احتقار الكافة له » . وإنما قرر أن يمضى الى الحج باعتباره مسلماً أصيلاً . وقد هاجمه البعض فى بريطانيا لهذا التصرف منه ، فمنهم من قال انه أسلم بالفعل ، ومنهم من رأى من غير المقبول خلقياً انتساب المرء الى دين لا يؤمن به ، ومبارسته علناً لشعائر قد يسخر بها فى قرارة نفسه . ورد بيرتون على منتقديه بقول ان هذا الأمر مسألة ضمير ، وبالتالي فانه لا يخص أحداً سواه .

غير أن الادعاء بأنه مسالم أصيل كان يحمل فى طياته أخطاراً جمة فالمسيحي الأوروبى الذى يعتنق الاسلام قد يفغر له المسلمون جهل

## - ١٠٢ -

بالشعائر والعادات والتقاليد الإسلامية . أما من ولد مسلما فليس ثمة ما قد يشفع له أو يعتذر به ، ان تبين للناس جهله بقاعدة من تلك القواعد الجملة التي ينبغي على كل مسلم مراعاتها في تصرفاته العادية في الحياة اليومية ، وقد ساق بيرتون نفسه مثلا لذلك في كتابه يتعلق بشرب الماء ، وهو أمر بسيط بالنسبة للأوروبيين ، غير أنه عند المسلم يعنى ما لا يقل عن خمسة أمور : « فهو بادئ ذي بدء يمسك بالكوب وكأنما يمسك برقبة عدوه ، ثم هو يتمتم باسم الله الرحمن الرحيم قبل أن يبيل شفثيه بالماء ثم هو يفرغ الماء في جوفه في جرعات كبيرة ، ثم ينخر تعبيرا عن ارتياحه ، ثم يتمتم بحمد الله قبل أن يضع الكوب من يده ، « وهو حمد لن نفهمه حق الفهم الا في الصحراء » ، ثم يرد قائلا : هناك الله ، على دعوة جلسيه لبالهناء !

عنى بيرتون اذن بدراسة هذه التفاصيل والعادات قبل أن يشرع عام ١٨٥٣ فى مغامرته التى أقدم عليها مخاطرا بحياته . فافتضح أمره كان يمكن أن يسفر عن قتله . وقد أشاع البعض عنه أنه اضطر الى قتل رجل أو رجلين اذ خامرهما الشك فى حقيقة حاله . غير أن هذا الادعاء هو على الأرجح غير صحيح ، فقد ذكر هو نفسه فى أواخر أيامه أنه لم يقتل أحدا فى حياته ، ولم يكن بيرتون بالرجل الذى ينكر مثل هذه الفعلة لو أنه ارتكبها .

### ميرزا عبد الله البزاز

غير أنه مما سهل على بيرتون مهمته بعض الشيء ، عشر سنوات سبقت حجه قضائها فى دراسة حياة الشرق وعاش معظمها فى الهند . لقد رزق الرجل - أو ابتلى - بروح لا تعرف هدوءا الا فى العواصف ( على حد تعبير ليرمونتوف ) ، وبشخصية جموح كشخصية الغجر ، لا تطيق قيادا ولا تسكن الى تقاليد . وقد ساهمت نشأته فى انماء هذه النزعة فيه . فقد قضى

شطرا من طفولته فى بريطانيا ففرنسا فإيطاليا ، مما تسبب فى اضطراب تعليمه ، فلما عاد الى انجلترا للدراسة بجامعة أوكسفورد ، أدى سلوكه وتصرفاته الشاذة بها الى طرده منها . وفى سن الحادية والعشرين (عام ١٨٤٢) التحق بخدمة شركة الهند الشرقية كوسيلة لدراسة الحياة واللغات الشرقية فعين ملازما فى بومباى . غير أنه لم يطق ما فرضته عليه حياة الجيش من قيود ونظام ، وثار على مفهوم الانجليز فى الهند عن الحياة التى لا تخرج عندهم عن مجرد « استعراضات لا معنى لها ، وخلافات جوفاء بين الموظفين ، ورفع المذكرات الى الرؤساء للتفضل بالنظر والإجابة ، والخوض فى أعراض الناس » .

ومع ذلك فقد كانت السنوات السبع التى قضاها فى الهند نقطة التحول فى حياته ، وأساس انجازاته التالية . فقد نمت هناك موهبته فى تعلم اللغات ، فاتقن خمسا من اللغات واللهجات الهندية شديدة التباين ، وكذا اللغة الفارسية ، واللغة العربية التى كان قد بدأ فى تعلمها أثناء دراسته بأوكسفورد ، ثم اللغتين التركية والأرمنية ، حتى بلغ عدد اللغات واللهجات التى يجيدها نحو الثلاثين .

بيد ان اتقان اللغات لم يكن عند بيرتون غير وسيلة الى غرض بعيد هو أن يظنه أهل الشرق واحدا منهم . كتب فى سيرته الذاتية يقول :

« نادرا ما يرى الموظف الأوروبى فى الهند الأمور فى ضوءها السليم والمثالث منهم يقضون مدة « نفيم » هناك بأسرها دون أن يحضروا ، ولو مرة واحدة ، حفل ختان أو زفاف أو جنازة لأحد الهنود . أما عنى فقد أطلقت لحيتى ، وأرسلت شعرى على كتفى ، وخضبت وجهى ويدي وذراعى وقدمى بالحناء ، وأسليت نفسى ميرزا عبد الله البزاز ، بائع الأقمشة والمنسوجات ،

وبهذا استطعت أن أدخل بيوت الناس ، بل وحتى إلى الحرم ، حتى بت ألقى دعوات لا حصر لها ، وعرض على آباء كثيرين تزويجي من بناتهم . وقد مالت إلى قلوب بعض الغانيات ، فقد كنت أدعى الثراء ، فإن مكثت مكثت موقرا ، وإن رحلت رحلت مبهجلا .

« فأما وقتي فموزع بين حائوت أجرته وملاته بالعجوة والدخان والجنزبيل والزيت والحلوى ، والمسجد بين الطلاب وكتبهم الدينية ، داخلا في نقاش معهم حول أدق تفاصيل العقيدة الإسلامية ، أو في أماكن الموسيقى والرقص ، أو في لعب الشطرنج مع صديق لي من الهنود ، أو في رفقة مدخني الحشيش ومدمني المخدرات ، أو في زيارة خاطبة تدبر الزيجات بين المسلمين . فاجمع منها ذخيرة ثمينة من الأسرار الشخصية والفضائح العائلية » .

### اكتشاف منابع النيل

عاد ريتشارد بيرتون إلى أوروبا عام ١٨٥٠ وقد اختمرت في ذهنه فكرة أوحث بها إليه معاشرته لمسلمي الهند ، وهي القيام برحلة حج إلى مكة . ولم يكن حب الاستطلاع وحب المغامرة يالدافعين الوحيدين وراء الفكرة . . فقد كان المقصد الرئيسي التمهيد لعبور الربع الخالي إلى مسقط ، فيميط اللثام عن تلك المساحة الشاسعة من شبه الجزيرة العربية التي يكتنفها الغموض . غير أن هذا المشروع الذي صدقت عليه الجمعية الجغرافية الملكية في بريطانيا وساهمت في تحمل نفقاته ، أحبطته نزاعات نشبت بين القبائل في تلك المنطقة . فام يتم منه غير المرحلة الأولى ، وهي الرحلة إلى المدينة ومكة .

أما الهدف من رحلته التالية لعودته من الحجاز . فقد كان جغرافيا محضا . فبريطانيا تتطلع منذ أمد بعيد إلى استكشاف الصومال ، وهو

قطر له أهمية خاصة بالنسبة لتجارة البحر الأحمر . وكان أن قبلت الحكومة البريطانية اقتراح بيرتون بأن يقود فرقة صغيرة الى ذلك البلد المجهول ابهرت من عدن في أكتوبر ١٨٥٤ تجاه ساحل الصومال . غير أن المرحلة باللغة الخطورة والصعوبة من الرحلة ، وهي التوغل داخل البلاد الى العاصمة « هرر » ، قام بها بيرتون بمفرده ، مخلفا زملاءه الضباط الثلاثة وراءه عند الساحل . ذلك أنه ما من أوروبي - ولا حتى المبشرين الكاثوليك - بلغت به الجرأة حد محاولة دخول هذه « المدينة الرهيبة » التي اشتهرت هي وتيمباكتو بأنهما « مقبرة الرجل الأبيض » ، والتي كانت تهدد بالموت « كل كافر يرى داخل أسوارها » .

واستغرق عبور بيرتون للمصحراء الى هرر قرابة أربعة أشهر فما وصلها حتى طالب المتول بين يدي أمير الصومال ، مدعيا أنه عربي . ومظفرا للناس علمه الواسع بدين الاسلام . وقد قضى في العاصمة عشرة أيام كان يبيت ليله أثناءها « غير واثق من طلوع شمس الصباح عليه » . وقد كتب فيما بعد كتابا عن رحلته بعنوان « الخطوات الأولى في شرق افريقيا » يعتبر من أروع كتبه ، واحفلها بالمعلومات الطريفة الدقيقة الشائقة .

تطوع بيرتون بعد ذلك للقتال في حرب القرم : « كى يرفع من روحه المعنوية » على حد قوله . فما عاد الى بلاده منها حتى كلفته الحكومة البريطانية بالتوجه الى منطقة افريقيا الاستوائية لاستكشاف منطقة البحيرات ومنابع النيل المجهولة . وقد كان ريتشارد بيرتون أول أوروبي تقع عيناه على بحيرة تنجانيقا ( فبراير ١٨٥٨ ) . وبعد أن جال بالطرف الشمالى للبحيرة ، أصابه مرض أقعده عن اتمام رحلته الى بحيرة عظيمة سمع عنها من التجار العرب ، وخمن أنها قد تكون من منابع النيل . فتركه رفيق سفرته الكابتن سبيك

## - ١٠٦ -

مصعدا شمالا ، حتى عثر على تلك البحيرة ( بحيرة فيكتوريا ) فى نفس الموقع الذى خمنه بيرتون .

ثم نجده بعد ثلاث سنوات من هذه الرحلة يستكشف منطقة افريقية أخرى ، هى ساحل الذهب وداهومى وبينين ، تاركا اياها الى الولايات المتحدة الأمريكية فى رحلة قطع خلالها نحو ثلاثين ألف ميل ، وكتب عنها كتابا عن طائفة « المورمون » الدينية التى حاول الانضمام اليها فرفض زعيمها طلبه حين علم بادعائه الاسلام فى الحجاز .

### القنصل سير ريتشارد بيرتون

وشهد عام ١٨٦١ زواج بيرتون من ايزابيل ارونديل ، ثم التحاق بوزارة الخارجية التى عينته قنصلا فى البرازيل ، فدمشق ، فترىستا . وقد كان منصبه فى دمشق ، بحكم ميوله ومعارفه وتجاربه ، أنسب هذه المناصب له ، وكان وقت تعيينه هناك شديد الاغتراب بأن تتاح له فرصة العمل بين العرب ، والانغماس فى قراءة كتب التراث العربى . وفى دمشق قطع بيرتون شوطا كبيرا فى ترجمته الحرفية لكتاب ألف ليلة وليلة التى تعتبر الآن أشهر كتبه كافة . وقد كان أثناء رحلته فى الصومال يطرب أصدقاءه العرب بقراءته لهم من حكايات ألف ليلة - ذلك الكتاب العجيب الذى هو أشهر كتاب فى انجلترا بعد الكتاب المقدس . ولا يزال الناس يرون فى تعليقات بيرتون وحواشيه فى ترجمته التى تشغل ستة عشر مجلدا بحرا من المعرفة بالثقافة العربية ، والحياة الشرقية ، ولهجات العامية عند العرب ، وعادات المسلمين وتقاليدهم .

وقد أنعم على بيرتون بلقب « سير » عام ١٨٨٥ أثناء عمله قنصلا فى ترىستا ، وهى التى توفى فيها فى يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٩٠ فى سن



— ١٠٧ —

السبعين • وقد بنت له زوجته قبرا في بلدة مورتليك ببريطانيا على هيئة خيمة من الرخام والحجارة تعبيرا عن غرام صاحب القبر بالحياة العربية ونقشت عليه بيت المتنبي :

الليل والخيل والبيداء تعرفني

والسيف والضيف والقرطاس والقلم

وهو البيت الذي صدر به كتابه عن حجه الى مكة والمدينة •

### بيرتون في مصر

استهل بيرتون كتابه عن حجه بالحديث عن مصر التي اقام بها بعض الوقت وهو في طريقه الى الحجاز عام ١٨٥٣ •

ويبدأ فيقول ان مصر هي أشهى غنيمة في الشرق بالنسبة لمطامع أوروبا ، وسعيدة هي الدولة الأوروبية التي ستتمكن من الاستيلاء عليها . فهي حينئذ ستكون قد حظيت بكنز ثمين ، خاصة ان هي شقت قناة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، « وهي القناة التي منع عمر بن الخطاب عمرو بن العاص من حفرها خشية أن يفتح الطريق بذلك أمام سفن الروم الى الحجاز فتهدده » •

غير انه يبدو أسفه اذ يرى مظاهر المدنية الغربية تنتشر في أرض الفراعنة ، فتجعلها في حال وسط بين الهمجية والتحضر يثير شعورا بعدم الارتياح • « ومن الغريب أن نجد نظام جوازات السفر الذي هو في سبيله الى الزوال في أوروبا ، يطبق الآن في مصر في صرامة شاذة • وهي صرامة تهدف الى تحقيق هدفين : الاول — منع دخول المهاجرين الخطرين اليها ، والثاني — ابقاء رعايا الوالي في مصر لضمان استثمارهم في دفع الضرائب • ولم يكن عباس باشا ليقبل الا مضطرا خروج أحد رعاياه من البلاد

## - ١٠٨ -

بل وكان أحيانا يعترض على رغبة من أراد الخروج للحج » .

وصل بيرتون الى الاسكندرية فى ربيع ١٨٥٣ . « وهى مدينة لها أهمية خاصة عند المسلمين بسبب نبوة تتوقع لها أن تخلف مكة فى قدسيته حين تسقط مكة فى أيدي الكفرة » . وستلى الاسكندرية - وفق تلك النبوة - مدينة القيروان بتونس ، ثم مدينة رشيد فى مصر التى ستظل قدسيته الى آخر الزمان » ! وقد تظاهر بيرتون بأنه درويش عجمى فى طريقه الى الحج ، وتزود فى الاسكندرية بكتب توصية من أصدقائه ، وبقرض مالى من مستر سام شبرد ، صاحب فندق شبرد بالقاهرة .

ولاحظ بيرتون أن الحكومة المصرية كانت قد بدأت تفقد الكثير من سلطاتها وهيبتها . فبعد أن كان الأوروبيون المتهمون بالاعتداء على حق للمسلمين يحاكمون فى عهد محمد على أمام السلطات المحلية ، « لم يعد الآن لهذه السلطات حق محاكمة الأجانب ، ولا لرجال الشرطة حق دخولهم بيوتهم » . ونصح بيرتون الدول الغربية بمحاولة دفع هذا النظام خطوة أخرى الى الامام حتى يشمل الاقباط المصريين ، بحيث يسمح لهم بتسجيل أسمائهم لدى قنصليات الدول الغربية المختلفة التى يرغبون فى التمتع بحمايتها » .

### ثلاث طرق لمعاملة الموظفين المصريين

وازاء اصرار بيرتون على اخفاء هويته وجنسيته وتظاهره بأنه من الدراويش ، فقد وجد صعوبات جمة بصدد جواز سفره : « توجهت الى الضابط ، الذى أحالنى الى المحافظ ، الذى كان لى شرف الجلوس القرفصاء امام باب داره ثلاث ساعات » . تكرم بعدها أحد الكتبة الطيبين باخطارى أن على التوجه بطلبى الى ديوان الخارجية لا الى المحافظ ، ! واذا توجه بيرتون فى

- ١٠٩ -

اليوم التالى الى الديوان ، وسأل « القواس » ( ضابط الشرطة ) ، عن الجهة المختصة بجوازات السفر فيه ، « أجاب دون أن يتحرك منه غير ذلك الجزء من اللسان اللازم للنطق بكلمة : معرفش » !  
كتب بيرتون :

« هناك ثلاث طرق لمعاملة الموظفين فى الشرق : الرشوة ، والسب والالاحاح الدليل المثابر حتى يعمل الموظف فينظر فى طلبك . والوسيلة الأخيرة هى وسيلة الفقراء . وحيث أنى وطنت نفسى على الصبر ، فقد أعدت سؤالاً وكررتة مستخدما نفس الالفاظ . فاذا هو يفتح عينيه ويقول : « روح ! » غير انى لم أنصرف ، ووقفت فى هيئة الدليل أعيد السؤال وأتوسل بأخوة الاسلام ، حتى صاح بى آخر الأمر : « روح يا كلب ! » واضطرتت حينئذ الى الانصراف ، اذ كنت معرضا - لو انى بقيت - لتلقى ضربة من كرباجه ، وهو ما لم يكن دمي الانجليزى يسمح بتقبله .

« وبدأ صبرى ينفذ ، فعرضت على شرطى بعض الدخان ، ووعدته بما يعادل ستة بنسات ان هو ساعدنى على قضاء حاجتى . عندئذ أبدى الشرطى اهتماما بأمرى ، فأخذ يدى وصحبى من مكتب الى مكتب ، وصعدنا سلالم فخمة الى مكتب عباس أعندى الذى لم يرد على تحيتى ودعائى له :  
والذى تفضل مع ذلك بالرد على استفهامنا بكلمة : « تحت » ! وهو ما لا مفر من الاعتراف بأنه رد غامض بعض الشيء من الناحية الطوبوغرافية !

« وعثرنا فى النهاية على غرفة الموظف المختص ، فوقفت خارجها أنتظر قرابة ساعتين مع غيرى من المنتظرين ، حتى خرج الينا منها موظف بدت عليه من امارات الغضب ما خشينا معه أن تكون قد ارتكبنا ذنبا ما دون أن ندرى ، فاذا هو يخبرنا أن الموظف المختص غير موجود ، وأن علينا أن نعود فى الغد » .

## - ١١٠ -

واضطرب بيرتون بعد فقدانه الأمل الى الالتجاء الى أحد المشايخ من رجال العلم ، فحرر له شهادة مزورة باسم « عبد الله بن يوسف » من كابول : فتسلمها بيرتون وهو يكاد يطير فرحا . « وظللت أشكره وأدعو له : ثم مدت يدي لأخذ يده . ففهم ، وجعل يتمتم : « مفيش داعي ، ماله لازمة ، والله ماله لزوم ! » ، ثم مد أصابعه وأخذ الدولارات الثلاثة ! . المسكين ! انى لوائق من انها الحاجة تلك التى دفعته الى قبول أجر على عمل من أعمال الخير . فهو صاحب زوجة وعتيان ، والعاماء فى مصر لم تعد لهم قيمة كبيرة » .

ويتحدث بيرتون عن عادة الشرقيين نقل مسئولياتهم الى الغير فيقول انه اذا طلب المدير شيئا من سكرتيه ، وجد السكرتير نفسه مشغولا لدرجة تجعله يكلف مرءوسا له بالقيام بالمهمة . غير أن المرءوس يجد الجو حارا لدرجة تجعله يوفد أحد الكتبة لتولى الأمر ، فيكلف الكاتب البواب بالذهاب . غير أن البواب يستمر فى الجلوس فى مكانه وقد غلب عليه النعاس ، آملا أن يجنبه الله سوء العاقبة ، غير انه - فى نفس الوقت - ثابت العزم ، صادق النية على ألا يتحرك شبرا ولو انطبقت السماء على الأرض .

## الكيف

وفى القاهرة ، سكن بيرتون فى وكالة الجمالية حيث تعرف بالحاج ولى الدين الذى كان يسكن فى غرفة مجاورة ، والذى بات يقضى الأمسيات معه اما فى الجامع للصلاة ، أو فى الوكالة لتدخين الحشيش . يقول بيرتون : « والمعروف أن مصر تفوق كافة الدول الأخرى بصدد تنوع أصناف هذا المخدر المدهش . وربما جاء اليوم الذى تصدر فيه مصر الحشيش الى أوروبا

## - ١١١ -

حين يكتشف الغربيون مزاياه • أما اليوم فبيعه في أوروبا مقصور على الصيدليات ، شأن الكونياك فيما مضى •

ويعرف بـ « الكيف » عند العرب بأنه ذلك الاستمتاع السلبي بالحواس وبالوجود الحيواني وحده • « انه ذلك الاسترخاء اللذيذ والطمأنينة الحاملة للذات يعينان لدى الشرقيين ما تعنيه الحياة النشطة الزاخرة لدى الأوروبيين الذين لا يجدون السعادة الا في ممارسة قواهم العقلية او العضائية • » أما في الشرق فان الانسان في غير حاجة الا الى الراحة والظل ، على ضفة جدول رقيق ، أو تحت شجرة وارفة الظلال ، يسعد بتدخين غليونه ، أو باحتساء قهوته ، أو يشرب قدحا من الشرابات ، لا يكلف جسمه أو عقله الا القليل ، ولا يعكر صفوه النقاش ، أو بغيض الذكريات ، أو أعمال الفكر الذي ينغص عليه الكيف • فلا غرابة اذن في أن أجدني عاجزا عن ترجمة كلمة ( الكيف ) الى لغتنا •

ويقضى بـ « الكيف » جانبا من وقته في القاهرة - وهو في انتظار حلول موعد سفره الى السويس للابحار - وهو يطوف بالمقاهي والحمامات والخوانيت • « فأما التسوق هنا فعملية تتطلب منك الجلوس الى البائع داخل الحانوت أو خارجه ، تدخن وتحتسى القهوة وتعبث بحبات سبحتك فترة حتى يفهم الكافة انك لست من أولئك العبيد الذين يقلق بالهم مرور الوقت ، حتى يفهم البائع أن صبرك أطول من صبره ، وانك على استعداد لاطالة أمد المساومة في ثمن السلعة •

### ٢٠٠ بيضة بقرش

فأما عن تكاليف المعيشة في مصر في ذلك الوقت ، فان ريتشارد بـ « الكيف » يورد القائمة التالية لنفقاته ، ملاحظا أنه لم يكن بالمقتدر على نفسه ،

## - ١١٢ -

وأنه كان أجنبيا يقيم بالوكالة ، بينما كان باستطاعة المصرى أو الأجنبى الذى قضى فى مصر فترة طويلة أن يوفر نحو ثلث التكاليف المذكورة فى القائمة :

- قيمة ايجار الغرفة فى اليوم الواحد ٠٠ ربع قرش
- أجره الخادم فى اليوم الواحد ٠٠ قرشان وربع قرش
- عشر بيضات ٠٠ واحد على عشرين من القرش
- بن ٠٠ واحد على عشرة من القرش
- بطيخة ٠٠ قرش
- أربعة أرغفة من الخبز ٠٠ خمس قرش
- رطلان من اللحم ٠٠ قرشان وخمس القرش
- خضروات ٠٠ خمس القرش
- أرز ٠٠ واحد على عشرين من القرش
- زيت وزبد ٠٠ قرش
- دخان ٠٠ قرش
- حمام ساخن ٠٠ قرش
- قربة من ماء النيل ٠٠ ثلاثة قروش وخمس قرش
- المجموع اثنا عشر قرشا ونصف قرش أى ثلاثة جنيهات وثلاثة أرباع الجنيه فى الشهر

### وسع السكة ووحده الله

ونصل الى اسماع بيرتون وهو فى حجراته بالوكالة أصوات مختلطة .  
 « فالجميع يتكلمون فى وقت واحد ، والكلام فى مصر اما همس أو صراخ  
 وتصحبه عادة حركات عنيفة من اليدين والجسم كله يبدو معها المتحدث  
 ( فى عين الأجنبى ) وكأنه غاضب يتشاجر ، وجميع النداءات والصيحات  
 فى الشوارع من طبقة السوبرانو ، وكثيرا ما نسمع فلاحا يصيح بالشرطى .

« فى عرضك .. فى عرضك » ، بينما ينهال عليه الشرطى بالضرب وهو يسوقه الى القسم ، ووراءهما لقيف من النسوة يصرخن : « يا دهوتى ، يا مصيبتى ، يا ندامتى ! » . فان مرت بالطريق عربة أحد الأثرياء ، فأمامها يعدو خادمه وهو يحمل على كتفه مشعلا ضخما ، وفى يده عصا ، يصيح بالمارة وهو يلهث : « أوعى يمينك ! أوعى شمالك ! أوعى وشك ! أوعى ضمرك ! صلى على النبى وفسح السكة ! » فإرد المارة من المسلمين الطيبين . « اللهم صلى عليه » ويلجأون بسرعة الى جدران المنازل فرارا من العصا .. وهذا صبي يركب حمارا وينهال عليه ضربا طول الطريق : « يا ابن الأعور ! » ، هكذا يسب حماره بأعلى صوته .. « وسع السكة ووحده الله ! » ، هكذا يصيح السقاء حاملا على ظهره من قرب الماء ما ينوء بحمائه الثور . ويصيح بائع الشربات : « اشرب ليموناده وروق دمك » ، مصدرا الأنغام من أكوابه النحاسية .. « جيب الحلوة وخد المليان » وهى صريحة صاحب المقهى الأرناؤولى . والحلوة هنا هى النار التى يتشامم المسلمون من النطق باسمها . بينما يعنى بالمليان فنجان القهوة الفارغ ... ثم يأتى دور الشحاذين : « عشاننا عليك يا رب .. هنيالك يا فاعل الخير » ، وقد يكون فى حافظة أحدهم من المال ما يزيد على ما فى حافظة التاجر ميسور الحال .. « ينعمل أبوك ابن وسخة » ، هكذا يصيح اليونانى وقد مسته عصا شحاذ أعمى .. « على الله ، على الله .. امشى يا بنت » ، بينما تمسك الشحاذة « البنت » التى جاوزت الستين بيد الأفندى فلا تتركها الا ان أعطاها شيئا .. ويلاحظ هنا كثرة الأوصاف التى تنادى بها المرأة : فهى تنادى بيا ست ، ويا حاجة ( تنطق يا حجة ) ، ويا عروسة ، ويا بنت ( حتى لو كانت فوق الخمسين ) . وهى تنادى فى الشام والحجاز « بالمره » غير انك ان حاولت أن تنادىها بيا مرة فى مصر ، فانها ترد عليك على الفور بقولها : « مرة فى عينك » أو « الله يقطع قلبك » .

## - ١١٤ -

ويتحدث بيرتون عما وصفه ادوارد لين قبله في كتابه عن مصر بأنه أسوأ صفات المصري ، وهو الجحود ونكران الجميل ، فيقول إنه لا ينبغي استنكار هذه الصفة دون محاولة معرفة السبب : « فالشرقي يرى لنفسه حقا في الفاضل لديك . وهو ان أكل الفاضل لديك من الخبز مثلا اعتبر هذا الخبز حقا له ولن يشعر بالامتنان لك . فان أدت له معروفا فانما أدت واجبك . وهو لن يشكرك ، وانما سيكتفى بالدعاء لك أن يطيل الله عمرك . أو يزيد ثراءك ، أو يعلى مراتبك » .

### فطومة

ويرحل بيرتون الى السويس كي يستقل الباخرة من هناك ، فيقيم بغرفة في « فندق جورج » ، « تغطي أرضها الصراصير ، وجدرانها النمل ويعيج هواؤها بالذباب والباعوض . الحمام على الرفوف ، والققط تدخل كالنمور من فتحة الباب ، وأحيانا تدخل على معزة أو حمار ، حتى اذا ما وجدا الغرفة مشغولة تراجعوا في وقار ! وبعد محنة اليوم الأول قررت والشيخ نور والولد محمد أن تقضى ساعات النهار في أحد ممرات الفندق ، راقدين على حقائبنا ، ندخن أو نتجادل أو ينظر أحدهما في أمتعة الآخرين . وكانت هذه التسلية الأخيرة مصدر نزاعات جمة بيننا ، اذ ليس ثمة ما هو أكثر شميوعا عند العرب من أن يمسك أحدهم بشيء يملكه صديقه ، ويقسم بلحية النبي أنه معجب به ، فلا يعيده إليه . »

« وكنا نقابل أحيانا في تلك الممرات جماعة من النسوة المصريات اللواتي كن يشغلن مع أزواجهن أو عائلاتهن غرفا مجاورة لغرفنا . وقد لجأن في بادئ الأمر الى السبب الغليظ عندما كنت أنا والولد محمد نحوم حولهن ، موجّهين اليهن بعض الدعايات . غير أنهن ما علمن اني « حكيمباشي » ، حتى اكتشفت كل منهن عندها مرضا ، وجاءت تلبّس عندي الدواء له ، بشرط



ان أجرب الدواء فى نفسى أولا • وقد تبع ذلك بينى وبينهن نوع فسج من  
 المغازلات ، استخدمنا فيه صريح العبارات خاصة مع أجملهن طراً ، وهى  
 امرأة سميئة تدعى فطومة ، فى حوالى الثلاثين ، شغوفة بالمغازلة ، ولها لسان  
 ذرب كسائر نساء مصر • وكان الحديث بيننا على المنوال التالى : « اتجوزينى  
 يا فطومة •• يا بنت •• يا حاجة » فتجيب مع هزة من ردفها وأخرى من  
 رأسها : « موش ممكن ، ده أنا مخطوبة يا شاب » • وأقول لها ان امرأة  
 مثلها يمكنها احتمال ثلاثة أزواج على أقل تقدير •• ثم نتكلم عن المهر ،  
 واسخر فى حديثى من رخص أسعار النساء فى مصر ، معلنا استعدادى دفع  
 عشرة شلانات مقابل الزوجة الواحدة ، فتضحك فطومة لوقاحتى ، أو تتظاهر  
 بالغضب من ملاحظاتى ، فتندم أصعبها كى « تخزق عينى » ، أو تدعو الله أن  
 « يقطعنى » • ثم نعود من جديد الى :

« اتجوزينى يا فطومة •• يا حاجة •• يا بنت ستين فى سبعين ••  
 يا ولية •• وهكذا ، » •



# التيارات الفكرية في مصر في القرن العشرين

## ١

### البدايات

فتح العرب مصر عام ٦٤٠ م فانفصمت بفتحهم عرى صلاتها بالامبراطورية البيزنطية ، واضحت جزءا من دار الاسلام ، غير أن تحول المصريين الى مسلمين يتكلمون العربية كان من البطء بحيث نجد الرحالة الجغرافى المقدسى البشارى يتحدث عنهم بعد أكثر من ثلاثة قرون باعتبار أن غالبيتهم من القبط ، أما انتشار اللغة العربية بينهم فكان على نطاق أوسع نسبيا من انتشار الاسلام ، إذ كان الاسلام بها شرطا للالتحاق بوظائف الدواوين منذ عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وبوسعنا أن نعزو بطء انتشار الاسلام الى أن مصر لم تكن كالثمام والعراق مقرا للخلافة ، وإنما كان يحكمها ولاة من قبل الخلفاء ، وكان هؤلاء الولاة أحرص على استمالة القبط وضمان ولائهم منهم على نشر الدين .

وأهم من ذلك أنه منذ عام ٨٦٨ م ، حين استقل الوالى التركى أحمد ابن طولون بمصر عن الخلافة العباسية ، تتابعت فيها سلسلة من حكام الأسر المستقلة عن سائر العالم الاسلامى ( الطولونية فالأشيدية فالفاطمية ) ، كما احتفظ الأيوبيون والمماليك باستقلالهم مع اعترافهم بالهيمنة الاسمية للخليفة العباسى . وقد كان استقلال هؤلاء الولاة يحتم عليهم الحرص على رضا الرعية وتجنب الاصطدام بعقيدتها ، لاعتمادهم على أفرادها اعتمادا

كأيا في تزويد خزانة الدولة بالمال ، وجيشها بالرجال • ولذا شهدت مصر في عهد هذه الأسر ما لم يشهده أى قطر اسلامى آخر من كثرة تولى النصارى واليهود فيها أرفع المناصب الحكومية • كما أدى هذا الوضع الى عزلة المصريين نسبيا عن مختلف التيارات الدينية والتطورات السياسية التى شهدتها سائر العالم الاسلامى ، خاصة حين بات المذهب الشيعى مذهبا رسميا للدولة خلال حكم الفاطميين ، وهو الحكم الذى دام قرابة قرنين ، وجلب للدولة عداوة ضارية من جيرانها •

فلا غرو اذن أن تصبح لثقافة مصر ، حتى بعد أن أضحي المسلمون غالبية سكانها ، ذاتية خاصة بها ، مميزة لها ، وأن يجرى تطورها على نسق لا تشترك معها فيه دولة اسلامية أخرى ، وأن يسير تاريخها على نمط يختلف اختلافا بينا عن نمط تاريخ العراق مثلا أو تاريخ المغرب • وقد زاد من انفراد مصر بذاتيها أنها لم تتلق ما تلقتة الأقطار الأخرى من ضربات قاصمة ، كالتى حلت بالمغرب على أيدي القبائل البدوية ، وبأسبانيا على أيدي المسيحيين ، وبالعراق والشام على أيدي المغول •

غير أنه لا مفر من الاقرار بأن الحكم العثمانى لمصر قد أضعف الى حد ما من هذه الذاتية ، وزاد من ارتباط مصر بالدولة الاسلامية وبمصيرها . والتقلبات الطارئة عليها • لكن هذا لا يعنى نمو الطابع الدينى الاسلامى لها • فقد انتشرت بين العامة صنوف الانحلال الخلقي والدعارة والاستخفاف بتعاليم الاسلام ، فى حين أبدت هذه العامة همة عظيمة تفوق همة أى شعب مسلم آخر من أجل اعادة تفسير المظاهر الوثنية لدياناتها القديمة ، من فرعونية وقبطية ، تفسيرا اسلاميا ، وهى المظاهر التى أرادت الابقاء عليها والاحتفاظ بها • واذ ظل المشايخ والفقهاء يكفرون اختراع الطباعة بطوال الحكم العثمانى لمصر باعتباره بدعة ، فقد ظل النهل من التراث الفكرى

الاسلامى قاصرا على فئة محدودة للغاية من بين أبناء المجتمع الامى .

وعلى ذلك يمكن القول بأن المعالم المميزة لمصر العثمانية كانت كالتالى :  
نمو الاحساس بالارتباط بدولة اسلامية كبرى ، مع ضعف مقابل فى  
الاحساس بالمصرية ، وخلو الأذهان من أية فكرة تتعلق بقومية أو هوية عربية ،  
والمآم جد ضعيف بالتراث الفكرى الاسلامى ، وجهل مطبق بأحوال  
الفرنجية ، مع وجود أقلية مستذلة من الأقباط فى عزلة سياسية شبه تامة  
عن مجريات الأمور ، وعزلة اجتماعية عن الغالبية من المصريين المسلحين .

## ٢

### القرن التاسع عشر

مع الحملة الفرنسية فحكم محمد على ، دخل الحياة المصرية عنصر جديد  
هو التغريب ، تبعه صراع بين النظم الوافدة والمستحدثة وبين التقاليد  
الراسخة ، لا بين تلك النظم وبين العقيدة الدينية . وقد زاد من حدة  
المشكلة تبنى محمد على لنظامين متباينين للتعليم : نظام تقليدى قديم ترك  
على حاله دون اصلاح ، يبدأ بالكتاب فى القرية وينتهى بالأزهر فى  
القاهرة ، ونظام جديد له مدارس التى تؤهل خريجها لتولى المناصب  
المرموقة فى الدولة ، والتى انشئت ووضعت مناهجها على غرار معاهد العلم  
الأوروبية ، فكانت لا تولى الدين وعامومه العناية الواجبة . وهنا بدأت تظهر  
فى مصر تلك الهوة الهائلة بين التعليم الدينى والتعليم المدنى ، وذلك  
الاختلاف الواضح بين المشايخ وسواد الناس ، ( سواء فى الزى أو نمط  
المعيشة أو العادات الاجتماعية أو أوجه التسلية أو حتى لغة الحديث ) ،  
وبدأت المدارس الجديدة تخرج جيلا بعد جيل ممن قد فرغوا تقريفا من كل  
ما يصلهم بماضيهم ودينهم وتقاليدهم ، قد فقدوا كل اهتمام حقيقى عميق  
بالدين ، فان أقبلوا عليه كان اقبالهم راجعا فى المقام الأول اما الى أسباب

شخصية ، أو الى بيئة يغلب التدين عليها ، لا الى طبيعة تعليمهم . وزاد الطين بلة ذلك الضعف المتفاقم فى لغتهم العربية التى ضعف اهتمام المدارس بها ، فانقطعت الصلة أو كادت بينهم وبين تراثهم الفكرى .

وباقبال الحديو اسماعيل على اقتباس مظاهر المدنية الأوروبية ، ثم الاحتلال البريطانى لمصر ، وازدياد الاحتكاك بالأوروبيين فى قارتهم ذاتها ، عرف المصريون ضروبا جديدة من التوتر ، واضطربت النفوس وتحيرت ، وظهرت فى البناء الاجتماعى القديم شقوق سرعان ما انبرى المفكرون يسدون النصائح المتباينة بصدها . فمنهم من رأى الاطاحة بالبناء القديم بأسره والشروع فى اقامة آخر مكانه ، ومنهم من أشار بالاستعانة بأحجار جديدة لسد الشقوق فى الجدران القديمة ، ومنهم من تساءل عن امكان اقامة البناء الجديد على الأساس القديم . غير أنهم جميعا كانوا مع اختلاف وجهات نظرهم ، متفقين على حقائق ثلاث : أن الأوضاع فى مصر قد تدهورت ، وأن كيانها بأسره فى خطر ، وأنه قد بات من المحتتم الاسراع بإيجاد حل .

فأما تلك الثلة من خريجي المدارس الجديدة ، فقد رأت الحل فى المزيد من التغريب واقتباس النظم الأوروبية . وقد رحب القبط ترحيبا عظيما بهذا الاتجاه ، وببزوغ فجر علمانية راوا فيها بصيصا من الأمل فى تحسن أوضاعهم ، وبظهور بوادر نزعة « مصرية » كانت ضعيفة فى البداية ثم أخذ عودها يشتد نتيجة نزوع محمد على الى الانفصال عن الدولة العثمانية ، ووهن الصلة بين مصر والآستانة حتى فى عهد خلفائه . وقد كان الشيخ رفاعة الطهطاوى حامل لواء هذا الاتجاه ، وهو اتجاه تغريبى وطنى فى آن واحد . فمن بين ما اقتبسه الطهطاوى من الأفكار الأوروبية ، فكرة الوطنية الاقليمية المتباينة فى طبيعتها لمبدأ الولاء لأمة اسلامية أكثر شمولاً . وكان الشق الثانى من دعوته هو بيان عدم تناقض روح الشريعة الاسلامية مع

## - ١٢١ -

القوانين العلمانية الأوروبية ، والقول بأن كل ما هو تقدمى مفيد من الأنظمة الأوروبية سنجده له صدى وجذورا فى الديانة الإسلامية لو أننا دققنا النظر ، وأمعنا فى البحث . وبالتالى فإنه لا ينبغي أن تكون هذه الديانة عائقا عند البعض يحول دون تبني هذه الأنظمة .

وسواء كان بوسع الطهطاوى أم لم يكن بوسعه التنبؤ بالآثار البعيدة لشقى رسالته ، فقد أدى تبني آرائه فيما بعد على نطاق واسع الى مزيج من الحيرة والاضطراب والتناقض . فقد يكون حب الوطن من الايمان ، غير أنه لا بد معه من مساواة بين أبنائه مع اختلاف عقائدهم الدينية ، ولا بد من اشتراكهم جميعا فى الدفاع عنه ، وبالتالى لا مفر من أن تستبدل بفكرة الجهاد فى سبيل نصرته الاسلام ، ( وغالبا ما سيكون الجهاد ضد محتلين من النصارى ) ، فكرة الجهاد دفاعا عن الوطن ، وطن المسلمين والنصارى معا . وكان لابد ازاء هذا من شيوخ النظرة العلمانية التى تفصل بين الدين والدولة .

وقد عرقل من انتشار هذه المفاهيم الجديدة بعض الوقت تفاقم نفوذ الدول الأوروبية فى مصر ، ثم احتلال البريطانيين لها . فقد ظهرت مقاومة لهما استخدمت الدين سلاحا ، وهى مقاومة باركتها وشجعتها حكومة الآستانة العاجزة عن الحيلولة دون تحقيق الدول الأوروبية لمآربها . وكانت وسيلة هذه المقاومة تأكيد الطابع الإسلامى للدول العثمانية ، ثم دعوة السلطان العثمانى الى تنصيب نفسه خليفة للمسلمين كافة سواء كانوا من رعاياه أو من رعايا الدول الاستعمارية . وقد لقيت هذه الدعوة الى الجامعة الإسلامية تأييد جيل أو جيلين من المسلمين فى مصر . أما الأقباط الذين كان التأثير الثقافى الأوروبى فيهم أقوى من تأثيره فى المسلمين ، فقد تفاوت رد الفعل لديهم تجاه هذا التيار ما بين الحشية والغفور وعدم

الاكتراث . ذلك أن استعانة سلطات الاحتلال البريطاني بهم فى الوظائف العامة على نطاق أوسع من ذى قبل ، وضغط هذه السلطات من أجل تحقيق المساواة بينهم وبين المسلمين ، أديا الى أن أصبح تعاطف الغالبية من القبط مع أوروبا المسيحية ، أشد من تعاطفهم مع الشرق المسلم .

تبنى جمال الدين الأفغانى وعدد من تلاميذه فى مصر فكرة الجامعة الإسلامية . وبتأثير من أفكار الأفغانى تردد الشيخ محمد عبده فى قبول الشق الأول من دعوة الطهطاوى الخاص بالوطنية المصرية إذ ارتأه سينتقص حتما من الولاء الدينى للأمة الإسلامية . أما الشق الثانى من الدعوة ، فقد أصبح محمد عبده أبرز الدعاة له دون منازع . فعن التساؤل عما إذا كان من شأن الأخذ بأساليب الحضارة الأوروبية ضياع الهوية والتقاليد والعقيدة الدينية ، أجاب فى ثقة بالنفى ، وبأنه ليس ثمة تناقض بين الإسلام الحق وبين الكثير من مظاهر تلك الحضارة ، وأنه لابد من أجل تقدم الأمة من التوفيق بين هذا الدين الذى يمثل السبيل الأمثل فى الحياة ، وبين أساليب الغرب التى لا يثبت تعارضها مع أحكام الإسلام .

والى جانب تيار التغريب ، وحركة الجامعة الإسلامية ، والدعوة الى الوطنية المصرية ، ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر تيار رابع ، بدأت الدعوة اليه واهنة مترددة بعض الوقت ، ثم نمت وغلظ عودها فى القرن التالى . فقد لاحظ رعايا الدولة العثمانية ، خاصة من المسيحيين العرب الكارهين لها والراحين تحت نير حكومتها ، أن البلغار واليونانيين والصرب والأرمن قد شرعوا ، من أجل نيل استقلالهم عن الدولة ، فى تأكيد أهمية العنصر العرقى . وسرعان ما طلع بين طهرانى العرب من الدعاة من البرى هو الآخر للتركيز على أهمية العرق واللغة والقومية العربية ، ويلمح الى ضرورة فصم عرى رابطة مع الترك العثمانيين مجحفة بالعرب وحقوقهم ،



- ١٢٣ -

وتمثل عائقا دون تطورهم ونهضتهم . واذا كان الكثيرون من المثقفين المسيحيين في الشام من معتنقى هذه الفكرة ، قد فضلوا الهجرة الى مصر التي وفرت لهم سلطات الاحتلال البريطاني فيها قدرا أكبر من الحرية والحقوق ، فقد نجحوا في بذر بذور هذا التيار الرابع في مصر ، وان كان نموه واثماره قد تأخر أمدا طويلا نسبيا . وكفيينا هنا أن نذكر أنه مما ساعد على بزوغ هذا التيار ، ما أسفر عنه تأسيس محمد علي للمطبعة الأميرية في بولاق من التوسع في طباعة ونشر كتب التراث العربى ، وامتداد قاعدة المطابع عليه من بين المتعلمين الذين كان من الصعب عليهم فى الماضى اقتناء المخطوطات أو نسخها .

ثم نمضى الآن فننتبع نمو هذه الاتجاهات فى القرن العشرين .

### ٣

## القرن العشرون

### اولا : المصلحون الاسلاميون من دعاة التوفيق

لا مفر من الاقرار ، قبل التوغل فى دراسة الصراع الايديولوجى فى مصر بين أنصار هذه التيارات الفكرية ، بأن ظروف المجتمع وتطوره ، واتجاهات الجماهير العريضة بمصالحها ومطامحها ، أعماق أثرا فى توجيه المجتمع من آراء الكتاب والمفكرين الذين كثيرا ما تكون نظرياتهم تعبيرا ودفاعا عن تبنى سواد الناس لحلول ليس بوسع أحد أن يحول دونه . ولا شك فى أن تفضيل المؤرخين وعلماء الاجتماع للاعتماد على كتابات المفكرين ، دون توجهات الجماهير ، فى تعرضهم ودراستهم للتيارات السائدة فى مجتمع معين ، ومبالغتهم فى تقدير أهمية تأثير تلك الكتابات ، هما من قبيل الاستسهال لا غير ، حيث أن الأمر لا يتطلب أكثر من دراسة نصوص . ومع

ذلك ، فان هذه الحقيقة لا تنفى قيمة أو تأثير التعبير والصياغة فى شد أثر الاتجاهات ، وتشجيع أصحابها على التمسك بها ، بإيجادهما سنداً لها من المنطق والعقلانية والمبررات .

لقد أدى ما لمسّه المصريون على اثر اتصالهم بالمدنية الغربية ، ( عن طريق الاستعماريين الفرنسي فالبريطاني لبلادهم ، ورحلات مثقفياها الى أوروبا لدراسة وغير الدراسة ) ، من تفوق الغربيين المسيحيين فى مضمارى السلاح والحضارة ، الى تطرق الشك الى نفوس البعض فى عقيدته ، وزعزعة علاقة الكثيرين بما توارثوه من تقاليد وأنماط عيش ، وشعور الغالبية بالحاجة الملحة الى التقريب والملاءمة بين هذه التقاليد وبين الأحوال الجديدة التى وجدوا أنفسهم فى ظلها على نحو شبه مفاجئ . وقد كان من المؤسف أن تجيء جهود المفكرين الاسلاميين المجددين الساعية الى التوفيق بين عقيدتهم وبين مطالب الحضارة الغربية ، فى الوقت الذى تضاعفت فيه ثقتهم بأنفسهم ، وغلب على نظرهم الى الأوروبيين احترام ورهبة مبالغ فيها . لذا لم يكن غريباً أن يتسم فكرهم بنزعة عقلانية هى نزعة أوروبية محضة ، وأن يتبنوا فيما كلها أو جلها من قيم الغربيين المستعمرين . بل انه حتى فى تصديهم للدفاع عن الاسلام ضد دعوة المبشرين وحملات المستشرقين الطاعنين فيه ، تركّز الدفاع على محاولة ازالة شبهة منافاة تعاليمه لمقتضيات الحضارة والتطور ، واثبات مرونة الاحكام الاسلامية وسهولة مسايرتها لحاجات البشر المتغيرة باختلاف الزمان والمكان . وقد اكتشف هؤلاء شبهة قويا بين الاسلام « الحق » وقيم السلف الصالح ، وبين القيم الغربية الحديثة . فالاسلام يخاطب العقل ، بدليل أنه لم تكن لنبيه معجزة غير القرآن . وقد أبطل عمر قطع يد السارق عام الرمادة . والقراءة المتعمقة للقرآن تهدىنا الى أنه فى حقيقة الأمر غير مرحب بتعدد الزوجات . وقد أوصى الاسلام بمساواة بين الجنسين ، وحرر المرأة ، وبعث الميل الى العلم ، وجعل النباس سواسية

كأسنان المشط ، فأذاب الفوارق بين الفقراء والأغنياء ، ودعا الى العناية بالصحة وأساليب العمران . ولا يقف بين المسلمين وبين النهضة غير حوائل زائفة في امكانهم ازالتها باصلاح نظام التعليم ، وتطهير الاسلام مما علق به من شوائب عبر القرون ، واعادة صياغة العقيدة الدينية على ضوء الفكر الحديث ، والعناية بدراسة العلوم الحديثة وتاريخ أوروبا للتوصل الى معرفة سر تقدمها .

فعمد دعوة الشيخ محمد عبده وتلاميذه اذن هو أن يأخذ المسلمون من المدنية الغربية ما يناسب ، ومن الاسلام ما يناسب ، فعقدة العقد في موقف المسلمين اليوم هي التوفيق بين الاثنين . غير أن المسلمين لحسن الحظ ليسوا مخيرين بين التمسك بدينهم وبين الاستفادة من الحضارة الغربية كما يدعى البعض . فمدنية الغرب غير مؤسسة على دين ، وانما على العلم والتجربة والاختبار . وهي بالاضافة الى هذا محدودة بحدود المادة . فليس هناك ما يمنع من أخذ المدنية الغربية المادية بعد صبغها صبغة روحانية اسلامية . والحق أن الاثنين ليسا متخصصين بطبيعتهما . وانما هما متخصصان من سوء فهم أبناء الحضارتين ، وبلا مكان توثيق العلاقة الودية بينهما . واستعانة كل منهما بما عند الآخر من مزايا . فخير للعالم الاسلامي اليوم أن يأخذ من المدنية الغربية كل عامها وتجاربها في الصناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة وسائر العلوم ، من غير قيد ولا شرط ، ثم يحفظ بعد ذلك بروحانيته التي يلون بها هذا العلم ، فتجعلها موجهة لخير الانسانية ، لا لفلو في كسب مال ، ولا لافراط في نعيم ، ولا لاقوة والغلبة ، ولكن للخير العام . وانما بزت أوروبا الشرق المسلم في مضمار الحضارة ، لا لأنها مسيحية . وانما لعنايتها بتطوير العلوم واهمال المسلمين لها . فلو أن الشرق استوعب علوم الغرب واستخدمها في استغلال ثرواته ، فإن يكون

## - ١٢٦ -

من الصعب عليه اللحاق بأوروبا . وليس في الاقبال على التعلم من الغرب من بأس ولا هو مدعاة للمخجل ، فانما كان الفضل في نهضة العلوم في أوروبا راجعا الى استفادتها من النقل عن المسلمين الذين عنوا بالحفاظ على تراث الاغريق وتطويره وتنميته . وقد حث الاسلام نفسه على طلب العلم ولو في الصين . ولا شيء يمنع المسلمين من ذلك الا تمسكهم بتقاليد موروثة بالية ، وتقديسهم للعادات المألوفة ، ودينهم براء من هذه العادات والتقاليد التي يسهل التضحية بها في سبيل حاجات المدنية ومقتضيات العمران .

تلك هي خلاصة دعوة المصلحين الاسلاميين من دعاة التوفيق ، قد عبروا بها عن الاتجاهات القائمة بالفعل لدى طبقة المتعلمين المتزايد عددهم من سكان المدن ، وهم الأكثر احتكاكا بمظاهر المدنية الغربية التي اقبلت السلطات على التوسع في الاقتباس منها . وبقدر ما أبهجت هذه الدعوة المطرشين المتفرنجين من المسلمين شديدي الرغبة في صياغة عصرية للعقيدة الاسلامية ، أبهجت المستعمرين البريطانيين اذ رأوها في مجملها دعوة مقنعة الى التغريب ، والى فتح الباب على مصراعيه امام الاقتباس من مدنية الغرب دون حرج ، وسرهم بالأخص أن يحمل لواءها عدد من رجال الدين البارزين الموقرين من أمثال الشيخ محمد عبده الذي كان لورد كرومر يكن له الاحترام الشديد ويعلق عليه الآمال . وانه لمن الشيق حقا أن نقرأ في العدد الأول من مجلة « العروة الوثقى » تحديدا لأهداف المجلة ، ومن بينها الدعوة الى التمسك بمبادئ السلف المماثلة في واقع الحال لمبادئ الدول الأجنبية القوية المتقدمة !

فهنا اذن احساس بتفوق الغرب ، وادراك لضرورة الدفاع ، واعتراف بصحة الاسس التي تقوم عليها حضارة الدول الأوروبية تضمنته الإشارة الى الشبه بينها وبين مبادئ الاسلام ، وهو أكثر صنوف الاطراء والمديح

اخلاصا . وقد شكوا المبشرون المسيحيون من أن هؤلاء المصاحين الاسلاميين انما يتبنون الافكار والقيم المسيحية ، ويسعون الى تشييد صرح اسلام جديد « مسيحي » ! غير أن الواقع أنهم لم يتبنوا القيم المسيحية ، وانما نسبوا الى الاسلام القيم الليبرالية الانسانية البورجوازية التى عمت أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، وهى قيم غير مشنقة عن المسيحية .

والحقيقة التى يصعب المراء فيها أن الكثيرين اليوم ممن يظنهم الناس ، أو يظنون أنفسهم ، من المواصلين لرسالة الشيخ محمد عبده ، لا يعرفون غير القليل عن الاسلام الذى يدعون الدفاع عنه وتجديد الفكر فيه ، وانما هم يدافعون عن تصوراتهم الليبرالية التى يعتقدون باخلاص أو بغير اخلاص أنها التعاليم الحقة للاسلام . وقد أقبلوا على تفسير الخوارق فى القرآن الكريم تفسيراً علمياً ، أو وصف الآيات المتضمنة لها بأنها رمزية . أما فيما يتعلق بالرسول ( ص ) ، فبعد أن كان الناس والعلماء يقبلون الصورة التى قدمتها له كتب الأقدمين ، أقدم هؤلاء على إعادة رسم الصورة بما يتفق فى رأيهم مع قيم القرن العشرين ، وباتوا ينتقون من بين آلاف القصص عنه ما يناسبهم ويثبت دعواهم ، واصفين غيرها بأنها من الاسرائيليات أو الروايات الضعيفة ، وكأنما بات هذا شرطاً لاستمرار تعلقهم بدينهم ونبيهم بعد تأثرهم بقيم الفرنجة .

وقد تأثر المحافظون أنفسهم بهذا الاتجاه الذى كان الشيخ محمد عبده فى زعمنا مسئولاً عنه . فتلامذته هم الذين أدخلوا الرؤية الرومانسية للتاريخ الاسلامى ، وأهموا كافة المعايير الموضوعية للبحث التاريخى العلمى ، وغضوا من قيمة الصدق والاخلاص فى عرض أحداث الماضى ، وفضلوا الانتقاء والاختيار بطريقة تحكمية ذاتية لا تعكس غير المزاج الشخصى لصاحبها وأهوائه وآرائه ، فهدموا بفعلهم هذا من البناء التاريخى للاسلام .

وفى اعتقادنا أن فتح الباب لهذا السبيل يؤدي الى أن يصبح أى شىء قابلا لأن يفسر على أى وجه . نعم من حق كل إنسان وهو فى سبيل تكوينه لعقيدته الدينية أن يختار هذا المبدأ وأن يترك ذاك . بيد أنه عند الحديث فى التاريخ الإسلامى أو فى القرآن والسيرة النبوية ، لا يمكن أن يكون الانتقاء التحكمى الا من قبيل عدم النضج والافتقار الى الامانة . وقد كان هذا هو بالضبط الخطأ الأكبر الذى ارتكبه المصلحون الإسلاميون التوفيقيون فى حق الثقافة الإسلامية .

ومع ذلك ، ورغم أن هؤلاء كانوا فى واقع الأمر شديدي الشبه بدعاة التغريب ، اذ لم يطعنوا فى قيم الغرب وانما انتحلوها للإسلام ، فام يقدموا بفعلهم هذا بديلا حقيقيا لامتهم ، فقد كان لهم من الأفضال على مصر وعلى الإسلام ما قد تتضاءل بجانبها أفضال غيرهم .

فمن ناحية ، كان لهم فضل حماية المتعلمين والمثقفين من تيار علمانية ملحدة ، ومن الشك فى قدرة الإسلام على مساندة احتياجات التطور والنهضة ، وهو شك أثاره عند البعض ضعف الثقة بالنفس ، والانبهار بالحضارة الغربية ، وكان يمكن - لولا جهود هؤلاء التوفيقيين - أن يعصف بالعقيدة الدينية عصفا . فقد سهل المصلحون على هؤلاء تبنى مظاهر تلك الحضارة دون قلق ، والاحتفاظ فى نفس الوقت بجوهر عقيدتهم دون ريبة ، شريطة تطهير تلك العقيدة مما تراكم عليها عبر العصور ، وشريطة فتح باب الاجتهاد للوصول الى صياغات جديدة لها . فهم اذن المسئولون عن ظاهرة جد مالوفة فى مجتمعنا ، وهى ظاهرة المتفرنجين الذين لا يزالون يأخذون اسلامهم على محمل الجد . وقد كان من المصلحة حقا أن ينهض بمهمة الدفاع عن العلوم الحديثة عالم دين رفيع المنزلة ، لا علمانى معاد للمشايع . وبذا بات بوسع الشباب الاقبال على دراسة تلك العلوم دون أن يتهموا بالزندقة ،

وأن يبنوا بذلك جسرا يربط بين الثقافتين القديمة والجديدة ، ويطلقوا من عقالها قوى مصر الخلاقة وطاقاتها ، ويفتحوا الباب على مصراعيه أمام أدب تقدمي ملتزم بالاطار الاسلامى .

ومن ناحية أخرى ، كان لهؤلاء المصلحين الاسلاميين فضل تأسيس دعوتهم الى فتح باب الاجتهاد على مبدأ جوهرى ، هو ضرورة التصدى للمشكلات الحيوية الحقيقية للمجتمع الاسلامى المعاصر ( وجلها ناجم عن زيادة الصلات مع الغرب ) ، مثل ادخال الأساليب الديموقراطية فى نظم الحكم ، وتحرير المرأة ، واصلاح نظام التعليم ، والاهتمام بتطوير العلوم والاستفادة منها ، والتصدى لمشكلات الفقر والجهل والمرض ، والدعوة الى العدالة فى توزيع الثروة ، والى المساواة ، وربطوا بين كل هذه المظاهر للاصلاح السياسى والاجتماعى وبين القرآن والسنة ، بحيث سهل عليهم بعد ذلك أن يقنعوا الناس بأن التخلف والصبر على المظالم وتجاهل الاصلاح مما ينافى الاسلام .

وقد أثارت هذه الدعوة ثائرة المحافظين من السياسيين وعلماء الدين . فنظام الحكم النيابى وارساء دعائم الديموقراطية يهددان سلطان الحاكم . واصلاح نظم التعليم يقلم من نفوذ العلماء التقليديين المهيمنين على تلك النظم . وتحرير المرأة والفتوى بأن الفوائد المصرفية ليست من الربا المنهى عنه فى القرآن ، مفاهيم مأخوذة عن الغرب ، وهى بالتالى غير اسلامية . غير أنه كان من السهل الرد على هذه التهمة الأخيرة بأن المسلمين الأوائل ابان ازدهار حضارتهم كانوا ينهاون نهلا من منابع الحضارات والثقافات والأفكار غير الاسلامية ، دون تحرج أو تحفظ أو حيرة أو قلق . فقد كانت الثقة بالنفس تعمر صدور هؤلاء وهم الفاتحون السادة . أما وقد وقع المسلمون فى براثن استعمار الفرنجة وباتوا يعانون من الهيمنة الاقتصادية والسياسية

للغرب على أقطارهم ، فقد فقدوا هذه الثقة ، وصاروا يرون في كل اقتباس من نظم الفرنجة مكيدة للإسلام وفخا ، واقتباسا معاديا للدين ، والواقع أنه لولا هذا الخلل النفسى ، وهذا الارتياح المرضى ، وفقدان الثقة ، لكان للإسلام المعاصر ، فى زعمنا ، شأن آخر .

## ٤

### ثانيا : التيار الاسلامى الجديد

من الطبيعى ، ومن المشروع ، أن يقبل أهل كل عصر ، وسكان كل مصر ، على قراءة كتابهم المقدس وغيره من الكتب الأساسية فى عقيدتهم على ضوء احتياجات زمنهم ومشكلات اقليمهم ، حتى مع توهمهم أن دراستهم لها موضوعية مجردة . فالوهابيون فى شبه الجزيرة العربية ، وقادة الحركات المشابهة فى أفريقيا السوداء ، وان خالت أنها تستهدف العودة الى اسلام السلف الصالح ، انما أعطوا الأولوية لعقيدة التوحيد فى الاسلام ، بسبب ما وجدوه قد شاع فى عصرهم وفى بلادهم من خرافات وممارسات تحجب مبدأ التوحيد ، كتقديس الأولياء ، وزيارة القبور والأضرحة ، الى آخره . كذلك ركزت السنوسية اهتمامها على التنظيم الاجتماعى للأمة الاسلامية بسبب افتقار المجتمع البدوى فى شمال أفريقيا الى حكومة مركزية قوية . ولهذا كان أوضح مظاهر القصور فى تلك الحركات اغفال العديد من المشكلات الحيوية الأخرى فى المجتمع الاسلامى ، كالاستغلال الاقتصادى ، وضيق العدالة الاجتماعية ، وفساد نظم التعليم ، وكأن الاسلام لا شأن له بهذه المشكلات .

ولم تعرف مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وحتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، حركات شبيهة بالوهابية والسنوسية . وحين ظهرت



- ١٣١ -

فيها ، مع الأفغانى ومحمد عبده ، حركات اسلامية اصلاحية ، كان ظهورها مرتبطا أساسا بمواجهة المسلمين لمعضلة رئيسية ، هى كيفية نهوض المسلمين من كبوتهم ، وعلاج مظاهر ضعفهم وتفككهم ، وتنظيم أنفسهم من أجل مقاومة الاستعمار الأوروبى والهيمنة الحضارية الغربية . ولا شك فى أن هؤلاء المصلحين ، حين أفاقوا لأول مرة لمشكلات اجتماعية وسياسية وحضارية بالغة الحيوية والخطورة ، تأثروا تأثرا عميقا بالمفاهيم الغربية لهذه المشكلات ، وبصياغات الغرب لحلها . غير أنه لا شك أيضا فى أن هؤلاء المصلحين ، حتى مع مناصرة البعض لفكرهم ، إنما كانوا يتصرفون كمفكرين أفراد ، لا يجمعهم تنظيم ، ولا هم عنوا بوضع مخطط عملى للعمل الجماهيرى من أجل تحقيق الأهداف .

وهذا هو بالضبط ما تلافته التيارات الاسلامية بعددهم ، ابتداء من الشيخ حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين ، وحتى جماعتى التكفير والهجرة والجهاد وغيرها . فبازدياد تفاقم مشكلات مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتنامي الاحساس بهذه المشكلات ، ظهرت على مسرح الأحداث حركات سياسية اجتماعية ، ذات سمت دينى ، لا تستهدف الإصلاح فى اطار النظم القائمة ، وإنما قلب هذه النظم حتى تتولى بنفسها مهمة التغيير ، بدعوى أن هذه النظم الفاسدة « غير اسلامية » ، لا يمكن أن ننتظر منها جهدا حقيقيا من أجل تطبيق الشريعة ، ولا تعلقا مخلصا بأهداب الاسلام . والتاريخ الاسلامى حافل بالأمثلة لأزمة كان الالتجاء الى العنف فيها هو السبيل الوحيد المتاح أمام الناس كى يطيحوا بشرور ومظالم متركمة ، ويفسحوا مجالا لبداية جديدة .

وقد أخذت هذه الجماعات عن المصلحين من أتباع الأفغانى ومحمد عبده فكرة شمول الاسلام لكافة مظاهر حياة الفرد والمجتمع . غير أنهم ذهبوا الى

- ١٣٢ -

أبعد مما ذهب اليه الأولون في نسبة القدرة الى الاسلام على التصدى لكل تفاصيل هذه المظاهر ، دون حاجة الى الاقتباس من حضارات وأنظمة أجنبية . ولا شك في أن النفور الواضح لدى هذه الجماعات من كل ما هو أجنبى ، واتهامهم المصلحين الأوائل بمشايعة الغرب ، نجما عن تفاهت التأثيرات الغربية ، وزعزعتها المتزايدة للتقاليد المحلية ، واتساع نطاق الأهداف والمخططات الأجنبية حيال المنطقة ، وازدياد وضوحها فى أعين أهلها ، بدرجة تفوق بكثير ما كان عليه الحال وقت محمد عبده وأشياعه .

ومع ذلك ، فالمؤكد رغم كل الحرارة والايماں الصادق اللذين يتمتع بهما معظم أفراد التيارات الاسلامية الجديدة ، أن المستوى الثقافى والكفاءة الذهنية لدى الأفراد والقادة على السواء ، وباستثناء قلة قليلة كالشيخ حسن البنا وسيد قطب ، هما أقل بكثير منهما لدى المصلحين الاسلاميين إبان العقود الأولى من القرن العشرين . فالرؤية لديهم قاصرة ، والأهداف غير واضحة ، والمنهجية فاسدة ، وفكرتهم عن اجماع السلف الصالح مشوشة ، والمسامهم بالتاريخ واه معيب . والأخطر من هذا كله أنهم رغم اصرارهم على شمولية الاسلام وتفردده ، وتميز كل نظمه ومفاهيمه عن كل النظم والمفاهيم الغربية ، لم يفلحوا الا فى إبراز حفنة من النقاط والقضايا ، ركزوا عليها ، والحفوا فى تكرارها الى حد الاملال ، دون أن يتجاوزوها الى غيرها الا فى النادر . وأعنى بهذه النقاط : موضوع الربا وفائدة البنوك ، وسفور المرأة وتحديد النسل ، وكراهة العلمانية والعقلانية ، والنفور من استخدام سبيل البحث العلمى والمنهج التاريخى فى مجال الاسلاميات . وهم فى ربطهم هذه الاتجاهات بالغرب ونزعة التغريب ، يتفقون اتفاقا أساسيا مع وجهة نظر المحافظين الذين يشاركونهم أيضا فى عدائهم للمصلحين التوفيقيين .

ثم عيب خطير آخر يتمثل فى مفهوم أفراد هذه الجماعات عن المعرفة .

فهى عند المجتمعات المتسمة بالحيوية والتحضر تعنى استخدام المعروف فى اماطة اللثام عن المجهول . أما عند هؤلاء فهى لا تعنى أكثر من تجميع المعلومات . والمعلومات فى رأيهم ليست بالمتطورة ، النسبية ، القابلة للاتساع ، وانما هى ثابتة خالدة . وقد نجم عن هذا المفهوم ثلاث عواقب ، الأولى : أن المعرفة عندهم لم تعد عنصرا ديناميكيا فى الفكر ، بل كتلة جامدة ، مما أسهم فى قهر كل نشاط فكري حر بدعوى مخالفته لأحكام السلف ، والثانية : أن اعتبار المعرفة دائرة مغلقة ثابتة يجعل من المحال اطراح شئ من المعارف المقبولة متى ثبت خطأها أو عدم مساهمتها لأحوال العصر ، ويجعل من الصعب تقبل المعارف الجديدة ما لم تجد لها سندا فى فكر الأقدمين ، والثالثة : أن صار سبيل اكتساب المعرفة هو تجميعها من كتب الأسلاف ، أو الكتب الحديثة القائمة على كتب الأسلاف ، لا التحليل والاستنباط والتجربة والفكر الحر . وكلها عواقب خلقت عند غير المسلمين اقتناعا بأنه لا يمكن أن يكون للإسلام مستقبل ما دام عاجزا عن مسايرة التطور على ضوء الجديد من الأفكار والنظريات العلمية .

لقد كان رجال الدين فى الغرب المسيحي هم الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تطوير العقيدة ، وإعادة تكييف أحكامها على ضوء المعارف التاريخية والأفكار الفلسفية الشائعة . أما فى مصر فيكاد يكون محمد عبده ومصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق ومحمود شلتوت الوحيديين من بين رجال الدين الذين نهضوا ، أو حاولوا النهوض ، بهذه المهمة ، فى حين ظلت غالبية المشايخ ترفض فى عناد كل تجديد وتوفيق بين العقيدة وبين الفلسفة والعلوم ، باعتبارهما من الأهواء ومن الحبائل التى نصبها الشيطان للتغريب بالغافلين . ورغم إيمان هؤلاء بفكرة تطور الأديان ذاتها بحيث جاء كل دين أرقى درجة من سابقه ، فقد أصروا على أن هذا التطور قد توقف نهائيا منذ القرن السابع الميلادى .

وقد أصاب الأفغانى ومحمد عبده وأتباعهما فى بيانهم لضرورة إعادة تفسير الاسلام تفسيراً يوائم احتياجات العصر الحديث والمجتمع المتغير . غير أن موقفهم الدفاعى والاعتذارى تجاه الحضارة الغربية حال دون تقديمهم لمثل هذا التفسير الشمولى ، ومال بهم الى الاقتصر فى فكرهم على التصدى لفضية هنا وقضية هناك من قبيل الرغبة فى الرد على خصوم الاسلام فى الغرب ، أو الأخذ بمشورة الأصدقاء الناصحين فى الغرب أيضاً . وقد كان انصار التيارات الاسلامية الجديدة على حق فى انتقاداتهم للموقف «التغريبي» لدى هؤلاء المصلحين التوفيقين ، لما ينطوى عليه بالضرورة من احساس بالنقص دفعهم الى محاولة التبرير . غير أن انصار هذه التيارات ، باندفاعهم فى الاتجاه المضاد ، وقعوا فى خطأ مماثل . اذ بينما ركز الأولون على نفى أن تكون فائدة البنوك من الربا المحرم ، ونفى أن يكون الاسلام قد انتقص من حقوق المرأة ، وحد من دورها الاجتماعى ، والاصرار على أن الشورى الاسلامية هى بعينها ديموقراطية الغرب السياسية ، وعلى اهتمام الاسلام بالدعوة الى تنمية العلوم وتحصيلها ، أو بعبارة أخرى : بينما ركز الأولون على بيان اتفاق الاسلام مع المقومات الايجابية للحضارة الغربية ، اتجهت الجماعات الاسلامية الجديدة الى انتقاء قضايا محدودة للغاية لاثبات تميز الاسلام واختلافه عن المفاهيم والقيم الغربية ، كضرورة عودة النساء الى الحجاب ، وضرورة تأسيس بنوك اسلامية لا فائدة فيها ، وضرورة اقامة الحدود الشرعية كقطع يد السارق وجلد الزانى وشارب الخمر ، والتفرقة فى المعاملة بين المسلمين وأهل الذمة . أما فيما عدا هذا من مسائل اقتصادية واجتماعية وسياسية بالغة الحيوية والاهمية ، فلا يكاد يكون ثمة علاج أو برامج أو فكر . وهو ما يقودنا الى نتيجة هامة : هى أن فكر الجماعات الاسلامية الجديدة ليس أقل انشغالا بالغرب من فكر المصلحين التوفيقين . ولكن الأفغانى ومحمد عبده وتلامذتهما انشغلوا به على نحو ايجابى ، فى حين

- ١٣٥ -

انشغلت به الجماعات الجديدة على نحو ساذج • وشيخ الغرب عند هؤلاء وأولئك هو الشيخ الجاثم الرابض ، مغر ومنفر معا ، يدعو الى الاعجاب ويستثير الكراهية في آن واحد •

قلة قليلة فحسب من المفكرين الاسلاميين المحدثين رأت الحل الأمثل فى الاقدام على دراسة موضوعية هادئة للأفكار والنظم الغربية ، من أجل تحديد طبيعة الاستجابة الصحية الواجب على المسلمين أن يتبنوها ازاء الضغوط الغربية المختلفة على مجتمعهم • فان كان فى الحضارة الغربية من العناصر ما هو فاسد مفسد ، فالكثير من الأفكار والنظريات التى ورثناها عن أسلافنا المسلمين فاسد مفسد هو أيضا • وما لم نتصد بالدراسة لتراثنا وتقاليدنا هى الأخرى بنفس الموضوعية والهدوء والمعايير العلمية والحرص على تجنب الآراء التحكيمية • فما من أمل يبقى فى قدرتنا على مواجهة التحديات المعاصرة • كما أنه ما لم نول اهتماما بما يمكن للدين أن يحققه لحير الانسان الاجتماعى والاقتصادى ، مماثل لاهتمامنا بما يمكن للانسان أن يفعله من أجل تمجيد الخالق • فما من أمل يبقى فى قدرة الاسلام على حل المعضلات •

غير انه حتى هذه القلة القليلة المتعقلة نراها اليوم فى انحسار • فتفاقم مشكلات المجتمع المصرى ، وتعاطم خطر الفرنجة فى المنطقة ، يميل البعض ، كالتراثيين الجدد (١) ، الى هجر الاعتدال وفقد الثقة بجدواه ، والتعاطف مع التطرف باعتباره السبيل العمل الأوحى الى مواجهة الأخطار الحقيقية التى تهدد بابتلاع هويتنا • واستفطاع بهالة الثمن الاجتماعى والنفسى الذى لا مفر من دفعه ان نحن أردنا اللحاق بركب الغرب فى مضمار

---

(١) طارون البشرى ، عادل حسن ، الخ •

## - ١٣٦ -

التقدم . أضف الى ذلك أن انتشار تأثير الجماعات الاسلامية المتطرفة في صفوف الجماهير العريضة ، وازدياد فرص استيلائها على الحكم ، على نحو ما حدث في إيران ، خلال سنوات قلائل ، دفعا بعض الانتهازيين من المفكرين الى التضحية باستنارته ، والتعبير عن تعاطفه واتفاقه في الرأي مع فكر تلك الجماعات ، من أجل ضمان الرضا والشعبية ، أو الاستفادة المالية من حكومات دول عربية غنية تنفق بسخاء على وسائل نشر ذلك الفكر . هذا الى أن ميل السلفيين الى الدخول في تنظيمات تجمع شتاتهم وتنسق خطاهم ، وميل المجددين المستنيرين ، شأن المصلحين التوفيقيين قبلهم ، الى العمل فرادى ، لا يصبرون على تنظيم ، ويعزز من دواعي الفرقة بينهم ما في طباعهم من تحاسد وتدافع على الشهرة والمجد ، يزيد من فرص نيل الاولين دون الآخرين لأغراضهم ، وبلوغ أهدافهم .



### ثالثا : التيار القومي العربي

تعنى القومية العربية تلك الحركة التي نشأت بين طهراني عرب أقطار الدولة العثمانية ، ودعت في بدايتها - بمباركة الحلفاء الاوروبيين وتشجيعهم ، بل وربما بوحى منهم - الى الاستقلال عن تركيا حليفة الألمان في الحرب العالمية الأولى ، ثم تطورت بعد تحقيقها لهذا الهدف ، وبعد وقوع عدد من الأقطار العربية في براثن الاحتلال البريطاني والفرنسي ، الى الدعوة الى قدر من الوحدة السياسية والاقتصادية بين هذه الأقطار يتفاوت بتفاوت أفكار الدعاة . وقد ذهب هؤلاء الى أن ثمة أمة عربية واحدة ، قد انقسمت بسبب ظروف خارجية عن ارادتها الى دول مستقلة ، وأن الواجب العمل على إعادة توحيدها في كيان سياسى عضوى واحد ذى سيادة ، بالنظر الى ما يجمع بينها من عناصر هي الدين ( الاسلام ) ، واللغة ( العربية ) ،

والثقافة ( الاسلامية ) ، والأرض الممتدة ، والتاريخ المشترك ، ثم المصلحة الاقتصادية التى ستعود على الجميع من جراء الوحدة . ولا شك فى أن ظهور المشكلة الفلسطينية وقيام دولة اسرائيل ، أضافا الى الدعوة حافزا جديدا يتمثل فى وحدة الهدف ، والاحساس المشترك بالخطر .

وكان أول من لهج بفكرة القومية العربية عبد الرحمن الكواكبي الحلبي المولد ، ( ١٨٤٩ - ١٩٠٢ ) ، حين كرر فى كتابه « أم القرى » بالحرف الواحد ما سبق لويلفرد بلنت البريطانى أن عبر عنه من آراء فى كتابه « مستقبل الاسلام » عام ١٨٨٢ . ثم حدث أن تبنى السيد رشيد رضا ( وهو الذى اتهمه محمد فريد فى مذكراته بأنه عميل للبريطانيين ) ، هذه الدعوة فى مجلته « المنار » . وكانت دعوة الرجلين المستقاة من افكار بلنت ، والتى عنيت بإيضاح المركز الخاص الذى يتمتع به العرب فى اطار الاسلام ، أول نقلة حاسمة من فكرة الجامعة الاسلامية التى حمل الأفغانى لواءها ، الى فكرة القومية العربية . وقد جاء هذا التحول لدى معتنقى الفكرة من الانتماء الاسلامى الى الانتماء العربى نتيجة لعدة عوامل ، منها ، الضعف المطرد الذى طرأ على العقيدة الدينية لدى الكثيرين من العلمانيين وممن تبنوا نمط المعيشة الغربى ، والوهن المتزايد فى الصلات بين أطراف العالم الاسلامى نتيجة للتطورات السياسية والاجتماعية فى دوله ، والرغبة فى ضمان مساهمة الأقاييات غير المسلمة فى هذه الحركة ، وتجنب وقوفها بمنأى عنها أو مقاومتها . كل هذا بالرغم من أن فكرة القومية العربية نابعة فى المقام الأول من مفهوم مثالى لماض حضارى دينى .

وقد كان السياسيون والصحافيون والكتاب فى العراق وسوريا ولبنان ( أى مجموعة أقطار الهلال الخصيب التى حررها البريطانيون والفرنسيون من حكم الاتراك خلال الحرب العالمية الأولى ثم أخضعوها بعد ذلك لاحتلالهم ) ،

اول من حمل لواء فكرة القومية على نحو جاد ، بادئين بصياغة الأسس النظرية والفلسفية والتاريخية لها . غير ان الدعوة ظلت قاصرة او تكاد على العراق وسوريا ولبنان ، وظلت مصر خارج نطاقها ، لا تأبه كثيرا بها ، حتى احتضنها جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٥٥ ، ربما حين رأى فيها وسيلة فعالة لبسط هيمنته على أقطار المشرق والمغرب العربيين ، فتحولت الفكرة عند المصريين من مجرد مفهوم وديع متواضع لا يكاد يتعدى كتابات عدد محدود من المفكرين ، ومآدب فى القصر الملكى لزعماء العرب ، الى حملة منظمة واسعة النطاق ، تحاول غرس مفهوم القومية والانتماء العربيين فى أذهان أفراد الشعب ، وذلك عن طريق وسائل الاعلام القوية ، والمناهج الدراسية فى المدارس والجامعات ، وكتابات المفكرين والصحافيين المنصاعين للنظام ، او المخاضين فى عقيدتهم ، وخطب الزعماء والقادة ، ودعايات الاتحاد الاشتراكى وشعاراته ولافتاته .

ولم يكن فى تبنى الفكرة فى حقيقة الامر تنازل كبير من جانب مصر عن هويتها المتفردة . فقد كان ثمة دائما احساس بأنه متى ما تطلعت مصر الى خارج حدودها ، فانما تفعل ذلك لكى تلعب دورا قياديا فى المنطقة . أضف الى ذلك ان المسلمين المصريين أكثر تفهما ووعيا للتاريخ الاسلامى وشخصياته منهم للتاريخ المصرى القديم وفراعنته . هذا الى تجاوب حقيقى مع الثورات العربية ضد الاستعمار ( كالثورة السورية مثلا ) ، واحساس بمصالح ومشكلات يشترك فيها العرب معهم ، وما يربط بينهم وبين سائر العرب من ثقافة واحدة ، وأساليب عيش متقاربة .

وقد بدا فى وقت من الاوقات ، خاصة مع قيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ التى ضمت مصر وسوريا ، وكان فكرة القومية العربية بمفهومها المعادى للغرب ، قد بدأت تدخل حيز التطبيق ، وتحرز قسما



ملموسا من النجاح . فكان أن شمر الغرب عن ساعده لضربها بالتحالف مع الأنظمة المسماة بالرجعية فى المنطقة ، وكان انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١ . وكانت حرب يونيو عام ١٩٦٧ التى قلمت نهائيا من أطفار عبد الناصر وأذهبت ريحه ، وشككت العرب فى أنفسهم وقدراتهم ، وشككت شعب مصر فى جدوى النظام الاشتراكى وجدوى اقحام نفسه فى الشؤون العربية الداخلية ، خاصة وقد اعتبر تدخل عبد الناصر المشثوم فى اليمن احد أسباب الهزيمة فى الحرب على يد الد أعداء القومية العربية ، وهى اسرائيل .

فشل عبد الناصر اذن فى توحيد الأمة العربية عن طريق الدعاية او الثورة او استخدام القوة ، كما فشل حزب البعث فى تحقيق الوحدة او الاشراكية فى فلاحه الأصلية ، وهى سوريا والعراق والأردن ، وقد انتهى الحال بعبد الناصر فى السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه ، وبعد أن خالته الأمة العربية صلاح الدين الجديد ، الى الاعتماد الكامل تقريبا على الاتحاد السوفييتى من أجل انقاذه من ورطتيه : العسكرية والاقتصادية .

غير أن اخفائه من مسرح الأحداث العربى عام ١٩٧٠ ، والظروف التى أدت الى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ضد اسرائيل ، وهى التى أسفرت عن قدر من النصر رد الى العرب ثقتهم المفقودة بأنفسهم ، وتعاطف عدد من دول النفط العربية النرية وتأثيرها فى الاقتصاد العالمى وفى اتجاهات الدول الغربية حنى ازاء اسرائيل ، كل هذا أدى الى اعطاء دفعة مستجدة للقومية العربية ، ولكن مع اضفاء طابع جديد عليها . فقد تبددت الآن الأوهام الرومانسية التى كانت لصيقة بأفكار حزب البعث ، كما تبخرت النزعات والمطامح البروسية للزعامة المصرية ، ودخل مفهوم القومية العربية فى صورته الجديدة شكل من التضامن قائم على أساس من المصاحبة المشتركة ،

وادراك للمخطر الاقتصادي والسياسي والحضاري الذي يمثلته الغرب ، ووعى بإمكان اقامة تكتل اقتصادي اقليمي عربى ينافس الدول الغربية الصناعية . وقد كانت هذه هي الصورة الجديدة التى بدت عليها القومية العربية عقب حرب ١٩٧٣ . وحيث أن أغنى الدول العربية المحتضنة لهذا الشكل الجديد هي من الناحيتين السياسية والاجتماعية أكثر دول المنطقة محافظة وتمسكا بالتقاليد الاسلامية ، فان الاشتراكية لم تعد الطابع البارز للقومية العربية ، وانما أصبح طابعها الغالب ربط العروبة بالاسلام ربطا دعامته المال والشراء ، وهو ثراء يستخدم فى المقام الأول فى الصراع ضد اسرائيل والامبريالية ، ومن أجل اعادة الحقوق المشروعة للفلسطينيين .

ولم يكن ثمة مفر ازاء هذا البعث الجديد للقومية العربية عقب حرب ١٩٧٣ ، وازاء صورتها التى بدت أكثر واقعية وأقرب احتمالا لتحقيق أهدافها ، من أن يحاول الغرب تسديد ضربات أخرى إليها ، والعمل جادا على بث بذور الشقاق والفرقة فى الصفوف . وكما أنه فى عام ١٩٦٧ قد اختار مصر هدفا رئيسيا لصب نغمته ( عن طريق الحاق الهزيمة الساحقة بجيشها ) ، فقد اختارها الآن لتحقيق أغراضه ، ولكن على نحو مخالف ، وبناء على الاعتبارات التالية :

● أن فكرة القومية العربية والوحدة لم تظهر فيها على نحو جاد الا متأخرة عن بزوغها فى الدول العربية الأخرى ،

● أن هذه الفكرة لم تتغلغل فى نفوس المصريين تغلغلا كافيا ، ولم تتعد بأى حال من الأحوال رهوس أقلية من أصحاب الأقلام المتأثرين بالافكار الغربية ( لا الاسلامية ) من سكان المدن ، ولم تنفذ على الاطلاق الى الأغلبية الساحقة من سكانها من الفلاحين ثم من العمال الذين لم يشعروا فى أى وقت من الأوقات بالحاجة إليها . أما القبط فبالرغم من أن بعض مثقفهم مال الى

## - ١٤١ -

الفكرة باعتبارها اطارا سياسيا دنيويا مقبولا لديهم ، فان غالبية أفراد الطائفة ظلت دائما فى خشية من قيام ارتباط عضوى بينها وبين الاسلام ،

● أن التجربة الفاشلة للوحدة مع سوريا قد شككت المصريين فى جدوى الوحدة وامكان تحقيقها عملا ،

- ميل عدد كبير من المصريين الى الاحساس بانتماء لهم غير عربى ، وهو احساس يغذيه فيهم قدم ماضيهم وأمجاد أجدادهم من الفراعنة ،
- ضعف حصيلة المصريين بوجه عام من التراث العربى والاسلامى بالمقارنة بغيرهم فى سوريا أو العراق مثلا ،
- تزايد مشاعر الاستياء من العرب لدى المصريين ، وهى الناجمة عن :

أ - مذلة يستشعرها العاملون من المصريين فى البلاد العربية ، وجلهم من طلاب الرزق الذين اضطرتهم الضائقة الاقتصادية فى قطرهم الى التنكسب بالعمل فى الدول العربية الغنية ، وما استتبع ذلك من احساس باستعلاء حقيقى أو وهمى من جانب مستخدميههم تجاههم بعد احقاب طويلة كان حال المصريين خلالها على عكس من ذلك تماما ،

ب - النفور من مسلك بعض الأغنياء الوافدين الى مصر من العرب ، وهو مسلك ينطوى على احساس بالقدرة على الاقدام على أى شئ وشراء أى شئ بما فى ذلك أعراض نساء المصريين بفضل أموالهم ،

ج - اعتقاد الكثيرين من المصريين بأن ما لحق بلدهم من ضائقة اقتصادية انما تمخض أساسا عن خوضها حروبا باهظة التكلفة لم يسهم فيها غيرها من الدول العربية اسهما كافيا ،

- ١٤٢ -

د - احساسهم بضعف المساعدة المالية العربية لمصر رغم التضحيات التي تقدمها في سبيل قضية عربية تهم الجميع ، ( وهو احساس غدته فيهم الصحافة المصرية ووسائل الاعلام الأخرى في عهد أنور السادات ) .

هـ - ثم فوق كل شيء ، ذلك التدهور الرهيب الذي طرأ على الأحوال الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية في مصر ، مما ضخ في نفوس أبنائها الرغبة في إنهاء الصراع وسلسلة الحروب مع اسرائيل ، وهو صراع صور لهم على أنه السبب الرئيسي في هذا التدهور .

وكان أن انصرفت جهود الغرب الى محاولة تحقيق صلح بين مصر واسرائيل ، يخرج أقوى دولة عربية وأعظمها نفوذا من حظيرة الدول العربية ، مساعيا في الوقت ذاته الى بذل بذور الشقاق في جهات متعددة داخل العالم العربي ، ومعتمدا في سعيه هذا على ما بين قادة العرب من تنافس على الزعامة ، وعلى ركائز قرائع غالبيتهم ، وغلبة الأثرة عليهم . ثم كان أن تحقق هذا الهدف ، وبادرت الدول العربية بقطع علاقاتها مع مصر ، مما دفعها الى عزلة عن سائر العرب ، ودفع السادات وصحافته وكتاب نظامه الى التأكيد على « مصرية » مصر .

٦

#### رابعاً : موقف القبط من التيارين القومي العربي والاسلامي

ان كان المسلمون قد عرفوا مبدأ التسامح الديني منذ زمن بعيد ، فان فكرة المساواة بين المسلمين وغير المسلمين لم تكن لتخطر ببالهم حتى القرن التاسع عشر ، وذلك بتأثير أفكار الغرب وضغط سياسي منه . ومع نبني قبط مصر اللغة العربية ، فقد ظلوا يحيون حياة منفصلة ، ويسكنون احياء خاصة بهم ، دون توسع في العلاقات مع المسلمين ، بل وكانوا يرسلون

- ١٤٣ -

إبناءهم الى مدارس مقصورة عليهم ، ويشغلون بمهن أو حرف تكاد تكون وقفا عليهم .

وفى عام ١٨٣٩ أصدر السلطان العثمانى تنظيمات بالغة الأهمية قضت بالمساواة بين كافة رعايا الدولة بغض النظر عن ملتهم ، وبفتح باب الوظائف المختلفة أمام أهل الذمة ، وفرض الخدمة العسكرية عليهم أسوة بالمسلمين ، والغاء الجزية التى فرضها الاسلام عليهم . فان كان السلاطان قد اضطر الى اصدار هذه التنظيمات من أجل ارضاء الدول الغربية ، واسكات منتقديه فيها ، ومراضاة رعاياه من المسيحيين ، فالواقع أن المسيحيين فى أقطار دولته ، ومنها مصر ، ظلوا على عزلتهم التقليدية ، وعلى نظرتهم الى الدولة والسلطة الحكومية باعتبارهما عدوين لهم لا يكون لهما الولاء ، فى حين اتجه ولاء الكثيرين منهم الى الدول الأجنبية المسيحية التى يتمتعون بحمايتها ، ويسعون الى اتقان لغاتها ، وينهلون من منابع ثقافتها . وقد زاد من هذه العزلة ما ظهر بعد تولية السلطان عبد الحميد من تيار الجامعة الاسلامية الذى يعيد تأكيد الطابع الاسلامى للدولة ، والذى حظى بتأييد الكثيرين من المثقفين المسلمين .

ومع ذلك فانه بمرور الوقت ، وبضعف تيار الجامعة الاسلامية ، بدأت تظهر أفكار غامضة فى البداية ، وأكثر وضوحا فيما بعد ، عن مصالح مشتركة تربط المسلمين بالمسيحيين ، قوت منها دعوة الطهطاوى الى حب الوطن والوطنية . لقد كانت الدولة العثمانية غريبة عن القبط ، ولم تكن اعتداءات الأوروبيين عليها تعنى عندهم ما تعنيه عند المسلمين . بالعكس ، لقد كانوا يستفيدون أحيانا من هذه الاعتداءات فى نيل الحقوق والمساواة وتولى الوظائف . غير أن ظهور الاتجاه الوطنى ، بما ينطوى عليه من نزعة علمانية ، وادخال تغيير جوهري على مفهوم المسلمين عن الدولة ، وبدء الدعوة الى فصل الدين عن السياسة حتى من جانب عدد كبير من المسلمين

المصريين المتأثرين بالأفكار الأوروبية ، أوجدت أساسا يمكن للمسلمين والأقباط البناء عليه معا من أجل مصيرهم المشترك .

وهكذا شرعت غالبية القبط فى مناصرة التيار القومى المصرى لما ارتأت فيه من خدمة لمصالح الطائفة . أما فكرة القومية العربية فلم تستسغها تلك الغالبية على أساس أنه لا مفر من اتخاذها الاسلام حجرا للزاوية ، صرح بذلك دعايتها أم نفوه أم سكتوا عنه . فالاشادة بأمجاد الماضى العربى ، وبالتراث الفكرى العربى ، وباللغة العربية ، هى فى جوهرها اسلامية ، وتنطوى على تأكيد للذات الاسلامية تضييع معه مصالح القبط . ومع ذلك ، ذهبت قلة من المثقفين المسيحيين الى أن التاريخ العربى والترات الاسلامى ينبغى أن يدخل فى المكونات الفكرية الأساسية للمسلمين والمسيحيين جميعا ، دون أن يعنى هذا صبغ فكرة القومية العربية بصبغة دينية ، مع العمل فى نفس الوقت على محاكاة أقطار أوروبا الايبيرالية فى توفيرها أسس المساواة التامة بين أتباع الديانات المختلفة فى الحقوق والواجبات . غير أن أكثرية المسلمين من أنصار القومية العربية أثبت تجريد الدعوة من طابعها الدينى أو ارتأت هذا التجريد مستحيلا . وكان أن ساد احساس لدى الجميع بعجز الدعوة عن توفير حل للمشكلة يرضى كافة الأطراف ، ويطمئن الاقليات على نيل حق المساواة ، وهو حل كانت الحركة الوطنية المصرية التى ساهم فيها المسلمون والأقباط معا أقدر على توفيره .

والواقع أنه كان ثمة اعتباران آخران ، أقوى حتى من الحركة الوطنية ، وأكثر فعالية من القوانين والتنظيمات ، أسهما فى تحقيق مبدأ المساواة الفعلية بين المسلمين والقبط فى مصر . الاعتبار الأول هو مقتضيات الحياة اليومية فى مجتمع سريع التغير . فمع بزوغ القرن العشرين ازدادت الصلات الاجتماعية والعلاقات اليومية العادية بين أفراد الطائفتين ، ونمت بين بعضهم

صداقات بددت من جهل كل من الطرفين بالطرف الآخر ومن شكه في نواياه ، وظهرت بوادر احترام متبادل واحساس بمصلحة مشتركة في مواجهة عدو مشترك ، يستغلهم جميعا بنفس الدرجة ، ألا وهو الاحتلال الأجنبي . وكان لا بد ازاء هذه الظاهرة الجديدة في التاريخ الاسلامى كله من أن يتبلور اتجاه لدى السياسيين والمثقفين المسلمين يدعو الى فصل الدين عن الدولة ، وذلك لتوطيد دعائم هذه المصالحة المرغوب فيها من أجل مصلحة الوطن . فالدين اذن لله ، والوطن للجميع . وقد بارك القبط هذا الاتجاه وآزروه . ثم جاء الدستور عام ١٩٢٣ منها لوضع القبط باعتبارهم أقلية ، ومحققا لهم قدرا من المساواة لم يتمتعوا به من قبل .

وأما الاعتبار الهام الثانى فهو تغلغل الأفكار والمفاهيم الأوروبية العلمانية فى عقول شطر كبير من المصريين ، خاصة المثقفين المقبلين فى شغف على القراءة فى الآداب الغربية ، وزيارة الدول الأوروبية للدراسة أو السياحة ، وأولئك الذين يتلقون تعليمهم فى وطنهم اما فى مدارس أجنبية ، أو فى مدارس مصرية وضعت مناهج التعليم فيها على غرار المناهج الغربية . وقد نشأ عن كل هذا وغيره اضعاف لسلطان الدين فى نفوس المسلمين والقبط معا ، لا شك فى أنه أسهم فى ازالة موانع كانت تحول دون اقامة الصلات وتقوية الروابط بين أفراد الطائفتين . أضف الى ذلك أنه بالتحول التدريجى عن نظام التعليم الدينى لكل طائفة ، الى المدارس الحكومية والأجنبية التى باتت تستقبل صببة المسلمين والقبط جميعا ، والتى لا تشغل دراسة علوم الدين فيها غير مكانة ثانوية ، مع التركيز على العلوم الأخرى المدنية ، تقاربت عقليات المسلمين والأقباط واهتماماتهم ، وتزايدت بالتالى فرص التلاقى والانخراط فى أوجه عديدة من النشاط الاجتماعى المشترك .

ومع ذلك فقد استمر فى كل من الطائفتين وجود عناصر نشطة ترفض

قبول فكرة احلال القومية المصرية والدولة الوطنية فوق الاعتبار الدينى .  
فالدين عند جماعة الاخوان المسلمين والجماعات الاسلامية الاخرى التى تلتها  
له الأولوية المطلقة على الوطنية ، ودراسة التاريخ الاسلامى تفوق فى أهميتها  
دراسة تاريخ مصر الفرعونية والقبطية ، ومساواة أهل الذمة بالمسلمين ،  
( حتى ان رؤى أنها فى صالح القضية الوطنية ) ، تناقض تعاليم الاسلام ،  
ولا يجوز أن تضمن الدولة لغير المسلمين فيها غير الحماية وحسن المعاملة  
لا المساواة فى الحقوق والواجبات .

ومن ناحية أخرى ، ظل القبط يشكون - حتى فى المدارس الحكومية -  
من تركيز الاهتمام على الاسلام فى دروس التاريخ واللغة العربية والأدب  
والتربية ، رغم اشتراك الأقباط فى حضورها . وقد رد المسلمون بأنه من  
المحال تفرغ التاريخ والأدب العربيين من مضمونهما الاسلامى ، وأضافوا  
ساخرين قولتهم الشهيرة : « أبت النصرانية أن تتعرب ! » . وقد أنكر  
الأقباط ذلك ، وأضافوا شكواهم من أن وسائل الاعلام والفنون والآداب  
تتجاهل طائفتهم وأسلوب عيشها ، وانهم ، أى القبط ، ( رغم كل التشدد  
بالمساواة ) مغلوبون على أمرهم .

وبازدياد قوة التيار الاسلامى فى مصر منذ هزيمة يونيو عام ١٩٦٧  
على يد اسرائيل ، وقيام متطرفين من الغوغاء بالاعتداء على الكنائس والممتلكات  
القبطية بل والأفراد ، ظهرت بين القبط حركات متطرفة مماثلة ، يجمع بين  
أفرادها الخوف من قيام نظام اسلامى فى مصر على غرار نظام الحمينى فى  
ايران ، فيدفع القبط دفعا الى حمل السلاح دفاعا عن حقهم فى المواطنة  
الكاملة . أو على حد تعبير أحد كبار مثقفيهم : « لقد كنت دائما أشعر  
بالانتماء الكامل لمصر ، وأكرر قوله مكرم عبيد : ( أنا مسيحي الديانة ومسلم  
بحكم انتمائى الوطنى ) . غير أن تدفق الموجة الاسلامية يدفعنى الى أن أصبح



مسيحياً مائة في المائة ، ومتعصبا لطائفية لا تقبل فى رجعيتهى عن طائفية  
 خصوصنا » .

وقد زاد من هذا الاحساس بالمرارة والقلق والاكتئاب لدى القبط فى  
 الآونة الأخيرة ، مزايدات الأحزاب السياسية ، خاصة عشية الانتخابات العامة  
 المصرية ، بالدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية ، والسعى الى توحيد  
 الصفوف مع بعض الجماعات الاسلامية أملا منها فى اجتذاب الأصوات وكسب  
 المؤيدين ، بما فى ذلك حزب الوفد الذى رأى بعض الأقباط أنه يتحالفه مع  
 الإخوان المسلمين عام ١٩٨٤ قد تنكر لماضيه العلمانى ولمبادئ مؤسسيه .  
 والشعور السائد اليوم لدى القبط هو أن الصدع قد شارب على أن يصبح  
 هوة سحيقة ، وأن التطرف الدينى المتصاعد داخل الطائفتين قد يودى بكل  
 الانجازات التى حققتها المائة عام الأخيرة فى مجال توحيد الصفوف ، وتحقيق  
 المساواة ، وإزالة الشكوك وسوء الظن ، وهى انجازات تحققت بفضل  
 التيار العلمانى .

## ٧

### خامسا : الاتجاه التغريبى العلمانى ، والنزعة المصرية

كانت الغاية الرئيسية للمدارس التى أنشأها ولاية مصر فى القرن  
 التاسع عشر على غرار النماذج الأوروبية ، وتحت إشراف الأوروبيين فى أكثر  
 الأحيان ، هى تخريج الأطباء والمهندسين والموظفين والخبراء المهنيين من كل  
 نوع ، وذلك من أجل النهوض بالمشروعات التى اختطها هؤلاء الولاة .  
 واذ أدرك هؤلاء الخريجون أن الإلمام بالمعارف الأوروبية هو سبيل الترقى  
 فى الوظائف العامة ، كان طبيعيا أن يتطلعوا ، هم وأعضاء البعثات المصرية  
 فى أوروبا ، الى التزود منها ، ثم أن يشرعوا بعد ذلك فى المقارنة بين مختلف

النظم الغربية التى قرأوا عنها أو عاينوها وبين النظم السائدة فى بلادهم . وقد كان موقفهم من تلك النظم الغربية خلال القرن التاسع عشر يتسم بقدر كبير من الاتزان الوقار الحليقين بالاعجاب . وهما اتزان ووقار لا نجد تفسيراً لهما غير ايمان لم يزعزعه شئ بتفوق العقيدة الاسلامية ، وبأن الأوروبيين مهما بلغوا من تقدم مادى حضارى هم من أهل الضلالة والكفر ، جهنم مصيرهم .

ومع اشتراك المحافظين ودعاة الاغتراف من الحضارة الغربية فى هذه الثقة فى الاسلام ، فان هذا لم يحل دون انشطار الدوائر الفكرية فى مصر الى شطرين متنافرين ، تفصل بينهما هوة سحيقة ، وينظر كل منهما الى الآخر نظرة الاستخفاف . فالجامدون انصار القديم كانوا بمنأى عن التطورات التى تهز الفكر المعاصر من جذوره ، لا يلقون القبول الا لدى فئة محدودة ممن يماثلونهم فى الروح والنزعة . لذلك كانوا فى واقع الحال انما يخوضون معركة خاسرة . أما دعاة التغريب فقد انساقوا فى تيار الحركة الجديدة مجاوزين الحدود المعقولة . وهو ما يعكس ميلا ملموسا لدى المصريين .. والمسلمين عامة - الى المبالغة ، وميل مفكريهم الى أن يخلقوا من النقطة الصغيرة الصحيحة التى بدأوا بها ، نظاما شاملا لكل ما فى السماء والارض جميعا ! وهم حين حاولوا أن يجندوا صلتهم بالماضى كله عدا الدين ، فانما كانوا يقطعون جذورهم ذاتها ، بحيث تأثرت العقيدة الدينية هى الأخرى بهذا الجند . وما كان ليرتجى من هؤلاء فى تلك المرحلة الأولى أن يخرجوا بأى أثر فكري يتسم بالابتكار ، وهم الذين ظلوا يتخبطون فى حيرة واضطراب نجما عن هذه الثورة المفاجئة ، وكان انتحالهم لأفكار الغرب وقيمه أسرع من أن يسمح بتجاوز السطح الى ما هو أبعد من السطح .

ومنذ أن قال الحديو اسماعيل ان مصر أضحت قطعة من أوروبا ،

نهضت نخبة من المفكرين بمهمة التعبير عن استقلال الفكر المصرى عن  
التقاليد الآسيوية والافريقية . بدأوا بتمجيد مظاهر المدنية الغربية القائمة  
على العلم ، وأثنوا على مصر اذ أثبتت استعدادها للأخذ بأساليب الارتقاء من  
دون جلبة ، وقبول الخير لا تسأل عن مصدره ، والدخول فى طور النهضة  
التي دفعها الغربيون اليها . فأكثر ما فى مصر والبلاد العربية الأخرى من  
أمارات النهضة هو من حسنات الغرب عليها . عرفنا منه فكرة مساواة  
الناس عامة أمام القانون ، وحرية العمل وحرية الاعتقاد والفكر ، وحقوق  
الانسان والمعنى الحقيقى للإصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، ومعنى الوطن  
والوطنية ، وفهمنا أن البقاء والتقدم منوطان بالتضامن والتكافل بين أفراد  
الشعب ، وأنه بقدر حفظنا من الماديات تكون صحة المعنويات . ومن الغرب  
اقتبسنا اختراع الطباعة ، وأصول الصحافة ، وتعلمنا السفر فى القطارات  
ثم الطائرات ، وكيفية مكافحة الأوبئة ومقاومة الأمراض ، وبناء الجسور  
وتوليد الكهرباء ، وتنظيم المدن ورصف الطرق ، وتوصيل المياه النقية فى  
الأنابيب ، وبناء الخزانات وإدارة المصارف وإنشاء الجمعيات الخيرية ، وتأسيس  
الأحزاب السياسية والشركات الصناعية ، ورعاية أصحاب العاهات وتحرير  
المرأة والرقيق ، ونقلنا عنه المسرح فالسينما ، والراديو فالتليفزيون . بل إن  
للغرب علينا فضل اماطة اللثام عن تاريخ مصر القديمة ، وتعريفنا بأمجاد  
أجدادنا الفراعنة . وله الفضل فى نهوضنا باللغة العربية ، وبعث اهتمامنا  
بأمهات كتب تراثنا الإسلامى . فالأوروبيون هم الذين أنشأوا منذ القرن  
الرابع عشر مدارس فى قارتهم لتعليم اللغة العربية ، وتهافتوا على اقتناء  
مؤلفات علماء المسلمين . فما اخترعت الطباعة حتى كانت المخطوطات العربية  
من أوائل ما طبع فى أوروبا من كتب ، فى حين أصر المشايخ فى دار الاسلام  
على تحريم الطباعة . وقد عنى الأوروبيون بتحقيق المؤلفات العربية النفيسة  
فى الطب والطبيعة والفلسفة تحقيقا علميا نقانا أصوله عنهم . فبفضاهم عرفنا

تراث أسلافنا وطرق أحيائه ، وعرفنا مزاياه ووسائل الاستفادة منه ، وهم الذين دربونا على العناية بالآثار فى بلادنا ، ونبهونا الى أهميتها فبدأنا ندرسها ، وبدراستنا لأمهمات الكتب فى تراثنا ارتقت لغتنا العربية ، ونمت ملكات مؤلفينا ، ولولا الغرب لما نبغ لدينا شعراء أو كتاب ، واختصارا فانه ان كان الغربيون قد أخذوا عن العرب كل ما نفعهم يوم نهضتهم من ضروب المعارف البشرية ، فهم اليوم يعيدون إلينا ، عن سماحة نفس ، شيئا مما تعلموه من أجدادنا ، بعد أن زاد بعلمهم وبارتقاء الزمن وتداول الأيام ، فلا يشقن ذلك علينا ، فهذه سنة المدنيات التى درجت عليها البشرية ، ولا غضاضة على المتأخر اذا أخذ عن المتقدم ، ولا أمل لمصر أو لغيرها من الدول المتخلفة فى اللحاق بركب المدنية الا بتبنى المزيد من حضارة الغرب ، فان كان فى مدنيته مساوئ ، فلكل مدنية مساوئ تندمج فى مطاوى الحسنيات ، وحيث أن المدنية وحدة لا تتجزأ ، من أخذ بخيرها لا بد أن يستهدف لشروها طوعا أو كرها ، فان أمر الفصل فى الأخذ منها أو الازورار عنها يتوقف على نسبة حسناتها الى سيئاتها .

هذا الموقف لدى طائفة كبيرة من الكتاب كان تعبيرا أدبيا واعيا عن ظاهرة عامة متفشية بين الأفراد العاديين من سكان المدن ، وبلورة لاتجاه متصاعد نحو تبنى أساليب العيش والسلوك والقيم الغربية ، ونظرة الى أبناء الحضارة الغربية على أنهم من معدن نفيس ، وباعتبارهم السادة والمعلمين ، واعتقادا بأن للمقبة فضلا على العمامة والطربوش لأنها تغطى رأسا ممتازة . أضحي لفظ « الخواجة » لدى الرجل العادى والمثقف على سواء مرادفا للجنس الأسمى ، وصارت محاكاته فى كل شئ ، من تبنى قيمه الى تقليده فى زيهِ ومسلكه العادى ، مقياسا للتقدم والرقى . وصحب ذلك بالضرورة موقف احتقار لكل ما هو « بلدى » ، وسخرية بالتقاليد ، وإهمال للغة العربية ،

وازدراء لثراث الأقدمين ، ووصف كتبهم بالكتب الصفراء ، ونسبة التخلف الراهن الى التعلق بهذا التراث وهذه التقاليد البالية وارتباط مصر بالشرق الهمجى .

والمصريون بالذات من أكثر الشعوب احساسا بنقائصهم ، ومرارة فى الحديث عن بلدهم ، وميلا الى التندر على أنفسهم ، والى المقارنة بين أحوالهم المتعثرة وبين أحوال الغرب . اذا أراد مثقفوها اثبات قضية عززوا حججهم برأى مفكر أوروبى . وما من فنان أو كاتب تثبت لديهم كفاءته الا اذا كان « عالميا » ، أى معترفا به من الغرب . وهم يهللون تهليل الأحمق ان قرأوا ثناء من كاتب أوروبى على الاسلام ونبيه ، ولا يجدون ما هو ادعى الى الفخر من الاشارة الى اعتناق جارودى للاسلام ، والى تأثر دانتى فى كوميدته الالهية برسالة الغفران ، وينعتون المعرى بلوكريتيوس العرب ، وابن خاسدون بمونتسكيو العرب ، والجاحظ بفولتير العرب ، وكأنما فى هذه النعوت شهادة موثقة بفضلهم .

واذ رسخت فى النفوس عقيدة أن التغرب العقل هو التفوق بعينه ، حدثت نقلة أخرى حين اتجه بعض المفكرين المصريين ، مثل طه حسين ( الذى التقط فكرته من كتاب لجورج ديهاميل الفرنسى ! ) ، الى التشكيك فى عروبة مصر وانتمائها الى الشرق ، ونعنى أن يكون العقل المصرى شرقى التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء ، وتأكيد صلة مصر الوثيقة منذ فجر تاريخها بشعوب البحر الأبيض المتوسط ( بحر الروم ) وأوروبا ، لا بالعرب والافارقة ، والقول بأن الوحدة الدينية واللغوية لا تصلح أساسا للملك وقواما للدولة . وقد كانت مصر من أسبق أقطار الدول الاسلامية الى استرجاع شخصيتها القديمة التى لم تنسها فى يوم من الأيام . والتاريخ يحدثنا بأن رضاها عن السلطان العربى بعد الفتح لم يبرأ من السخط ،

ولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن الا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل أحمد بن طولون ، وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده . فالسياسة شىء والدين شىء آخر . وانما يقوم نظام الحكم وتكوين الدول على المنافع العملية والمصالح الاقتصادية والحضارية قبل أن يقوم على أى شىء آخر . وكما أن أوروبا لم تصبح شرقية بانتشار المسيحية فيها ، فان مصر لم تصبح شرقية أو عربية بانتشار الاسلام فيها . فالاسلام لم يغير العقل المصرى المتأثر أساسا بحضارة بحر الروم . ولا ينبغى أن يحسب المصرى أن بينه وبين الأوروبي فرقا عقليا قويا أو ضعيفا ، ولا أن يظن الشرق الذى ذكره كيبلنج فى قولته الشهيرة « الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » ، يصدق عليه أو على وطنه ، ولا أن يحسب قولة الخديو اسماعيل التى جعل بها مصر جزءا من أوروبا فنا من فنون التمدح والمفاخرة ، وانما كانت مصر دائما جزءا من أوروبا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية .

« فان كان المصريون أجمعون يقرّون بحاجتهم الى نهضة سياسية واقتصادية وثقافية ، فلا بد من أن يقرّوا بحاجتهم الى وسائل هذه النهضة . ووسائل هذه النهضة هى أن نتعلم كما يتعلم الأوروبي ، ولنشعر كما يشعر الأوروبي ، ولنحكم كما يحكم الأوروبي ، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي ، ونصرف الحياة كما يصرفها . فهذه الوسائل هى التى مكنت للأوطان الأوروبية والأمريكية أن تكون حرة فى داخلها ، مستقلة فى خارجها ، كريمة فى نفوسها وفى نفوس الناس » (١) .

كان مدشن هذه النزعة المصرية أحمد لطفى السيد المدير السياسى

---

(١) « مستقبل الثقافة فى مصر » الجزء الأول .

لجريدة « الجريدة » التي تأسست عام ١٩٠٧ ، وأصبحت لسان حال حزب الأمة ، والتي أزرها المستعمرون البريطانيون سعياً منهم الى مقاومة تيار الجامعة الاسلامية ، والتمهيد لفصل مصر عن الدولة العثمانية . ونسجل فى هذا المقام ملاحظة طريفة . فمع ظهور الاتجاهات المتباينة فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، من وطنية واسلامية وعلمانية وعربية وتغريبية ، كان المفروض أن يتجه الأفراد الذين يجمعهم فكر واحد ، الى تكوين حزب له برامج صيغت على ضوء مبادئهم ، ثم يؤسس الحزب جريدة له تنشر هذه المبادئ ، ثم تجد الجريدة فى جهات عليا من يساندها ويمولها . غير أن الوضع فى مصر اتخذ صورة معكوسة : فالغالب أن تكون ثمة جهة عليا ( الخديو أو الانجليز ) ، حريصة على نشر فكر معين ، فتختار لذلك رجلاً مناسباً ( مصطفى كامل أو لطفى السيد ) ، فيؤسس هذا الرجل جريدة تحتضن هذا الفكر ( « اللواء » أو « الجريدة » ) ثم يتجمع حول الرجل والجريدة أفراد لهم مبادئ أو ميول مماثلة ، فيتكون الحزب منهم ( الوطنى أو الأمة ) !

وقد التفت حول لطفى السيد وجريدته شباب جيل جديد نالوا من العلم الغربى حظاً أوفى من حظ أسلافهم ، واستوعبوا قسطاً كبيراً من روح الثقافة الغربية من خلال اتصالهم الطويل بها فى سنى الطلب ، خاصة فى فرنسا . ولم تكن آمال هؤلاء مقتصرة على أن يروا بلادهم حرة من الناحية السياسية فحسب ، بل أن تكون أيضاً قادرة على أن تتبوأ مكاناً لائقاً بها فى العالم المتحضر . وقد كانت غالبيتهم فى الوقت نفسه مسلمين ممن دفعتهم تعاليم الشيخ محمد عبده الى محاولة تكييف الأصول الاسلامية لتلائم المتطلبات الحديثة فى الحياة والفكر . ومع ادراكهم العميق للتناقض القائم فى مجتمعهم ، كانوا يؤمنون بأن ازالة هذا التناقض ممكنة وواجبة ،

شريطة ألا تتم هذه الإزالة بالعودة الى القديم ، ولا بقطع كل صلة به ،  
وانما عن طريق التربية والتعليم والاصلاح المتدرج مهما بدا للبعض أنه أبطأ  
مما ينبغي .

وقد بدا من هؤلاء ميل ملموس الى الحديث عن مصر لا عن العالم  
العربى . فهم وان أقروا بأن مصر جزء من ذلك العالم ، أكدوا ضرورة أن  
تسهم اسهامها الخاص فى الأدب والفكر ، بل ورحب بعضهم بالتوسع فى  
استخدام العامية المصرية على حساب الفصحى فى المؤلفات الروائية والدرامية .  
واذ تميزت تلك الفترة بالذات ، فترة ظهور هؤلاء ، بكثرة الاكتشافات الأثرية  
الفرعونية ، وتدفق الكتابات عن تاريخ مصر القديم وأمجاد الفراعنة ، فقد  
صادف ذلك هوى فى نفوس أفراد هذه الطائفة ، ورد اليهم الحديث عن عظمة  
الأسلاف الثقة فى أنفسهم . ذلك أن فى ربط الهوية بالماضى السحيق سبيلا  
الى الهرب من ذكريات ماض قريب لا تشير الى غير تبعية مصر للخلافة  
الاسلامية أو السلطنة العثمانية . لذا انبرى هؤلاء يؤكدون أن لمصر ، منذ زمن  
الفراعنة ، عبقرية مميزة صبغت بسماتها كل مستورد حضارى . وبلغ  
الاعتزاز بمآثر مصر القديمة عند الدكتور محمد حسين هيكى بالذات حد  
الغيرة من مآثر العرب ، والتنكر الغربى للأدب العربى القديم الذى اعترف  
بأنه كف عن الاكتراث به منذ عام ١٩١٠ .

ثم مضى سلامة موسى الى أبعد من ذلك . فالأدب العربى القديم عنده  
يفتقر الى المعرفة الصحيحة ، والى الاتصال بحقائق الحياة . وبعد أن كان فى  
البداية راضيا بأن يترك للتراث الاسلامى نصيبا ثانويا فى تكوين الثقافة  
المصرية الحديثة ، صار بعد ذلك يدعو الى قطع الصلة بالماضى على نحو بات ،  
والتركيز على تشرب الفكر الغربى . ومع أن الآراء التى انبرى سلامة موسى  
فى حرقه للدفاع عنها ، كمنظرية التطور مثلا أو العدالة الاجتماعية ، لا تتميز



فى كثير أو قليل عن الآراء العادية لأى مثقف أوروبى ، فقد اتهم فى مصر بالجرأة الزائدة ، وبأنه يمثل الجناح المتطرف فى حركة المجددين المصريين ، لمجرد أنه ، وهو المسيحى ، كان يتناول تناولا صريحا موضوعات لا يدنو المسلمون المجددون منها الا بشعور من الحذر والرغبة .

على أى حال ، فقد كان لهؤلاء التغريبيين العلمانيين فضل لا ينكر فى هدم جانب كبير من التأثير الضار للمحافظين الجامدين ، وفى تعويد الجيل الجديد على التفكير على خطوط وأنماط جديدة لم تكن شائعة من قبل ، وفى ترويج مناقشة موضوعات حيوية كالمحافظة والاصلاح ، والدين والعلم ، والجمود والاجتهاد ، والأوتوقراطية والحكومة النيابية ، وموقف مصر من دول الفرنجة .

ولم يكن دعاة التغريب ليفرقون فى الواقع بين دول الفرنجة حتى تبنى بعضهم مبادئ الماركسية . غير أن هؤلاء الآخرين ظلوا أمدا طويلا عاجزين أو عاجزين عن تقديم فكر جديد مستقل نابع عن الواقع المصرى . فهم رغم انشغالهم أساسا بقضية العدالة الاجتماعية فى مصر ، وتصفية الاستعمار والقضاء على الاستغلال ، والربط بين الثورة الوطنية والتحول الاشتراكى ، ظلوا فى فكرهم وتنظيمهم عالمة على الاتحاد السوفيتى ، خاضعين خضوعا شبة مطلق لتفسيراته النظرية ، ومواقفه السياسية التكتيكية ، ان رأى فى فكرة القومية العربية خطرا حاربوها ، وان دعا الى مصالحة عربية اسرائيلية دعوا اليها ، حتى اذا ما عاد يهاجم اسرائيل هاجموها . وكان هذا التذبذب والتناقض ، والخشية من الاجتهاد ، واهمال استلزام الواقع المحلى ، أسبابا رئيسية فى ضعف اجتذاب فكرهم للجماهير العريضة ، حتى من العمال والفلاحين ، وذلك بالرغم من احجام غالبيتهم عن الدخول فى معارك صريحة ضد التراث والدين ، مع ايمانهم القطعى بأنهما لا يصلحان أساسا لتنظيم

اجتماعى ، أو رابطة سياسية • والملاحظ بوجه عام أنه رغم انتشار الالحاد بين كثرة من المثقفين المصريين ، فإنه نادرا ما جرؤ كاتب من بينهم على التعبير فيما يكتب عن آرائه بصدد الدين ••

## ٨

### خاتمة

ما من شك فى أن مسئلة الأمة يتوقف بصفة أساسية على قدرتها على التوصل الى مفهوم ايجابى يساعدها على مواجهة التوترات الناجمة عن تغيرات هائلة طرات على المجتمع المصرى فى القرنين الماضيين ، والتغلب على القوى المخربة التى تدفع المجتمع دفعا الى المزيد فالزيد من التفكك والتحلل • كذلك فإنه ما من شك عندى فى ان كافة الحلول التى طرحت خلال المائة سنة الأخيرة ، والتى عرضنا لها فى هذا البحث ، معيبة قاصرة :

● فالمحافظون الرافضون لكل تجديد ولكل مساس بالافكار والمعتقدات الموروثة ، قد فقدوا صلتهما بالعصر واحتياجاته ، ولم تعد حججهم بالقادرة على اقناع المثقفين ، وهى التى يصوغونها دوما فى قوالب فكرية شكلية تستند استنادا كاملا الى أقوال السلف ، مما لا يمكن أن يتجاوب المحدثون معه • بل انهم حتى فى اللغة التى يستخدمونها ، بل وفى طريقة نطقهم لها ، يوحون على الفور بخلو جعبتهم من رسالة لعصرنا الذى نعيش فيه • ففكرهم تستغرقه التكاليف الشرعية ، وجهودهم تكاد تكون قاصرة على مراقبة نشاط المصاحين والمجددين ثم الوثوب عليهم والخذ بخناقهم • بحجة أنهم حماة الدين والأخلاق ، خاصة ان كان المجدد من علماء الدين مثلهم ، كالشيخ على عبد الرازق الذى دعا عام ١٩٢٥ الى فصل الشؤون المدنية عن التشريع الدينى ، والشيخ محمد أبو زيد الذى نشر عام ١٩٣٠

تفسيرا للقرآن يفسر فيه الظواهر الخارقة تفسيراً طبيعياً حتى يشجع الجيل الجديد على العودة الى الاهتمام به . وما من أحد منهم حاول أن يوجه الاسلام فى قنوات خلاقة ، وانما قيده بنظرة رومانسية درامية لتاريخه ، أساسها أحكام مطلقة على شخصياته وأحداثه ، وانتقاء تحكمى للمادة ، واستبعاد لكل ما ينقض الصورة التى يفضلون أن تكون أحداث الماضى قد تمت عليها . وهم بهذا أغلقوا الباب فى وجه أهم عامل كان بوسعه أن يحفظ على الفكر الاسلامى مرونته ، ويحول دون تعفن العقائد ، ألا وهو المنهج التاريخى العلمى ، والنظرة التاريخية الى الأمور . فبالرغم من ايمانهم بأن التاريخ هو مظهر الارادة الالهية فى المجتمع البشرى ، لم يكن فى وسعهم أبداً أن يفرقوا بين الحقائق والأوهام التى هى من صنع مخيلتهم ، ولا أن يدركوا أنه ما دامت الارادة الالهية قائمة فى التاريخ ، فان رفض استقصاء الحقائق التاريخية فى امانة مطلقة ، والعبث بها من أجل ادخالها فى اطار محدد سلفاً ، لا يعنى ان غير عدم اكتراثهم بمعرفة كنه هذه الارادة . فان دفعوا بأن الاسلام كان دائماً مع العلم والبحث العلمى ومواجهة الحقائق دون خوف ، أجنبناهم بأن نعم ، فمن المسئول اذن غيركم عما يعانى به البحث التاريخى الموضوعى فى الاسلاميات اليوم من اختناق ؟

لقد دفع موقفهم غير المسلمين الى اتهام الاسلام بالتعفن . وهو ليس كذلك ، وان كان العفن قد أصاب القائمين على أمره . وانما هو عقيدة حيوية حية كان بوسعها وسيظل بوسعها ، أن تستميل الملايين من القلوب والعقول والضمائر المستنيرة ، وأن توفر الاطار لحياة غنية تقيّة منتجة .

● وأما المصلحون الاسلاميون التوفيقيون ، فموقفهم فى جوهره مشابه لموقف دعاة التغريب العلمانيين ، وبالتالى فانهم لم يطرحوا بديلاً حقيقياً للقيم الغربية ، اذ انبروا لمؤازرتها ببيان شبهها بالاسلام ، فان كان

دعاة التغريب قد أعلنوا أن « القيم الغربية هي القيم المثلى ، فلنتبنّاها ! » ،  
فإن المصلحين التوفيقيين قد أعلنوا أن « القيم الغربية شبيهة بالقيم الإسلامية ،  
فلنتبنّاها ! » . وقد ظل هؤلاء دوماً يلهثون في عدوهم وراء التغريبيين كي  
يبرروا كل جديد ، ولكي يوجدوا الأسس الدينية لتبنى المفاهيم الغربية .  
فإن كان العلمانيون قد نادوا بأن العام والعقل هما مفتاحا التقدم والحضارة ،  
فقد تركوا للمصلحين الإسلاميين مهمة اثبات أن الإسلام يقر هذا الموقف .  
أو على حد تعبير الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر وأحد التلاميذ  
المخلصين للإمام محمد عبده :

« لا يمكن أن يكون ثمة صراع بين الدين الحق والعلم الحق . فإن نحن  
وثقنا بصحة نظرية علمية تبدو مناقضة لتعاليم الإسلام ، فإنما سبب  
ما يبدو لنا من تناقض هو أننا لم نفهم القرآن والحديث فهما سليما ،  
والقاعدة المتفق عليها في الإسلام هو أنه كلما خالفت شواهد علمية نصا  
قرآنيا ، فعلياً أن نعتبر النص رمزيا . هذا علاوة على القرآن هو بلسان  
عربي ، والعربية كما تعرفون شديدة المرونة ! »

وقد اتسم معظم هؤلاء المصلحين الإسلاميين بالافتقار إلى احترام  
الرجل العادى في مجتمعهم ، وإلى الثقة في قدراته واستعداداته الروحي .  
وهم في هذا يشتركون مع دعاة التغريب ويختلفون اختلافا جدياً عن قادة  
الجماعات الإسلامية الجديدة . إذ بينما تعبر هذه الجماعات عن مشاعر الرجل  
العادى ومفاهيمه ، يسعى المصلحون إلى أن يسوقوه سوقاً إلى ما يرونه هم  
خيالاً له . ولعل هذا الافتقار إلى الثقة هو الذى حدا بهم إلى الإصرار على قيام  
علاقة أساسية بين السلوك الاجتماعى والعقيدة الدينية ، وعلى أن إصلاح  
المجتمع لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الدين لا مستقلاً عنه ، وذلك لأعتقادهم  
أن المصرى متى خبا نور الدين فى قلبه فسد خلقه ، ولا مندوحة عن استقامة

الحلق في أية محاولة للإصلاح الاجتماعى .

● وأما دعاة القومية العربية والوطنية المصرية ، فلم تكن ثمة صلة حقيقية بينهم وبين الجماهير . فالفكرتان ليستا عميقتى الجذور ، ان كان بإمكانهما أن توحدتا الناس ضد الأجنبي حتى ينالوا استقلالهم ، أو يحققوا وحدة بينهم ، فانهما سرعان ما يذبلان بعد ذلك حين تفضح خيبة الأمل خرافة الاكتفاء ، ويبرز استمرار الحرمان والظلم والتخبط بعد نيل الاستقلال مسئوليتنا الكاملة عن هذه الشرور . وعلى أى الأحوال ، وكما سبق أن ذكرنا ، فليس هناك من هو أضعف من المصرى ثقة بقومه ، وثقته بغير قومه من العرب أوهى وأضعف .

● وأما عن دعاة التغريب والعلمانية ، فانهم مع كل تحسبهم للديموقراطية والمساواة وغيرهما من المفاهيم الغربية ، لم يكن بوسعهم قط الادعاء بأنهم يعبرون عن ارادة الشعب ، وانما أفصح لسان حالهم عن أنهم انما يسعون للمصالح العالم باعتبارهم الصفوة ، ولأنهم أدركوا من الشعب باحتياجات الشعب ومصالحه ، وقد يقرون أحيانا بضرورة الهبوط الى مستواه . فهم صفوة حسنة النية ، غير أنهم دائما صفوة ، مباينة للجماهير فى عقائدها وطريقة تفكيرها . صحيح أن المفهوم العلمانى والاتجاه الى محاكاة الغربيين كانا قد انتشرا فى صفوف الجماهير من جراء التعليم المدنى ، ووسائل الاتصال والاعلام المتزايدة ، والتصنيع والحياة فى المدن ، وأنماط الاقتصاد وغيره ، وأن تأثير الفرنجة انما كان ضخما بقدر ما كان الفراغ فى الساحة المصرية ضخما . غير أن الثابت الواضح الآن أن الولاء الاول لدى الجانب الأعظم من الجماهير فى مصر هو للإسلام دون غيره ، وأن الفكر الإسلامى لا يزال له بعد أربعة عشر قرنا سلطان عليها تصعب زعزعته . وقد تعاطف تأثير فكر الجماعات الإسلامية المتطرفة فى العامة نتيجة لتدهور

مستوى التعليم بعد ثورة عام ١٩٥٢ . وبالتالي فقد ضعف تأثير دعاة التغريب فيها ، خاصة أن القليلين منهم فحسب هم الذين تأثر فكرهم بالاسلام ، لا يعرفون تعاطفا مع غيرهم من المسلمين الا ان كانوا عربا ، ولا يتحمسون لاقامة روابط أقوى مع المسلمين فى تركيا مثلا أو فى ايران أو باكستان .

\* \* \*

وسيمثل الحل دائما كامنا فى العقيدة الدينية . وهو حل لا يمكن تأجيل توفيره زمنا أطول دون حلول كارثة تتمثل فى اصابة مجتمعا بالتحلل . غير أنه لن يكون حلا حقيقيا ما لم نعد صياغة هذه العقيدة الدينية صياغة علمية تتفق مع العلم الحديث ، وتحقق للأقليات الدينية المساواة الكاملة ، وما لم نعد تقييم المادة التاريخية بنفس الدرجة من الأمانة التى ظلت قائمة لدى المسلمين حتى القرن الرابع الهجرى ، ثم هدمها علماء الدين حتى لا يكون للتاريخ من غرض غير الدروس الأخلاقية والعبرة الدينية . فمثل هذه الأمانة التاريخية هى وحدها القادرة على أن تعيد الى الاسلام مرونته المطلوبة لمواجهة مشاكل الوجود ، ومسايرة احتياجات العصر . أما التطلع الرومانسى الى الماضى من أجل أن نخفى عن أعيننا مسئوليات الحاضر وضرورة التأهب للمستقبل ، فلا يعنى غير تكييف هويتنا على ضوء ذكريات مزيفة ، ذكريات فى بطون كتب لا تقرأها الغالبية ، وتقرأها الأقلية اما للافتخار ، أو للاحتجاج بأطروحات قررتها تطلعاتها وكبرياؤها .

والحل على أية حال لن يتأتى الا بصراع . وما من أحد يتوقع للحق أن يشبذ ذاته فى سهولة ويسر . كما أنه من قبيل الغفلة والافراط فى التفاؤل أن نثق بأن النصر سيكون حتما حليفه .

## التيارات الإسلامية في مصر خلال السبعينات

كانت هزيمة العرب في حرب حزيران عام ١٩٦٧ نقطة تحول جوهريّة في تاريخ التيار الإسلامي في مصر . فمن ناحية أصيبت المطامح البعيدة التي أثارته السّنوات الأولى من حكم عبد الناصر لدى الشباب المصري بضربة ساحقة كان لا بدّ معها من إعادة تقييم الأوضاع بأسرها . ومن ناحية أخرى فقد انطلوت تلك الحرب على كافة العناصر الباعثة على الثورة ، ألا وهي : الهزيمة العسكريّة ، وانهيار الجبهة الداخليّة ، وسخط المثقفين ، واتساع الفجوة الفكرية التي تفصل بين الأجيال . وقد شاع عندئذ الاعتقاد بأن الوطنيّة وحدها لا تكفي . وهو ما عناء عبد الناصر نفسه إذ أشار في أول خطاب عام له بعد الهزيمة إلى أنه لا بدّ من التمكين للدين من أن يلعب دورا في المجتمع أهم من دوره في الماضي . كما شاع بين الناس تفسير ديني للهزيمة ، وهو أن اليهود انما انتصروا بفضل اخلاصهم لدينهم ، ولأن دولتهم قائمة على مبدأ ديني لا علماني ، ولأن الدين أصلح من فكرة القوميّة في إثارة حماس المقاتلين .

وقد اتجه البعض بعد الهزيمة إلى الدين يلتمس فيه السلوى ، وانتعشت الاتجاهات الصوفيّة شأنها دائما عقب الكوارث الحربيّة . غير أن هذه التوجهات الفرديّة السلبية بدت هزينة بالمقارنة بما ساد لدى غالبية الشباب من اتجاه يربط بين الدين والثورة . فقد رأى هؤلاء أن ما يسمى في العالم العربي بالثورات ، هي في حقيقة أمرها مجرد انقلابات لا تمس لب الأنظمة ، وأن الحكام حين يشيدون بالإسلام لا يشيدون به عن تقوى

- ١٦٢ -

مخلصة ، ولكن عن رغبة فى استغلال تقوى الجماهير ، وأن المؤسسات الدينية كالأزهر لا تعدو أن تكون خادمة للنظام ، ولا يتعدى دورها مباركة خطوات الحكومة ولو تناقضت ، واصدار الفتاوى وارسال برقيات التهنية لرؤساء سواء بمناسبة الدخول فى حرب ، أو ابرام اتفاقية سلم ، أو اعلان نية انتهاج الطريق الاشتراكى ، أو التحول عن الطريق الاشتراكى الى سياسة الانفتاح .

وعندما تولى السادات الحكم فى أواخر عام ١٩٧٠ ، كانت صورة التيار الاسلامى فى مصر قد تغيرت ، وان ظلت الحكومة لعدة سنوات بعدها على اعتقادها أن قوام هذا التيار اما الفلول الباقية من جماعة الاخوان المسلمين ، أو أفراد من الأتقياء لا يجمعهم تنظيم ، وأن السبيل الى التعامل مع هؤلاء وأولئك هو عن طريق المؤسسات الدينية ( الحكومية ) ، أو شراء الدم ، أو التأثير بمختلف الوسائل فى الشخصيات الدينية المرموقة المؤثرة بدورها فى الأفراد والجماعات . غير أن واقع الحال هو أن قوة جماعة الاخوان ( بمفاهيمها العتيقة عن التغيير ) كانت قد بدأت تنحسر أمام مد جماعات جديدة عديدة أكثر ثورية وغلوا ، وأقل تبجرا فى علوم الدين ، ( وإن كان البعض لا يزال الى الآن يعتقد أن هذه الجماعات ان هى الا صور جديدة لجماعة الاخوان التى اضطرت فى حربها ضد السلطات الى اللجوء الى الترمويه والتظاهر بتعدد الاتجاهات كستار لنشاطها ) .

وكان للسادات منذ البداية هدفان رئيسيان : تدشين انفتاح اقتصادى يخدم مصالح الغرب ، واحراز قدر من النصر فى حرب مع اسرائيل يرد للعرب كرامتهم الضائعة ويبرر اقدامه فيما بعد على ابرام اتفاقية سلام . وقد اصطدم بالضرورة مع الناصريين واليساريين الذين باتوا الآن يحاربونه تحت لواء واحد ، خاصة منذ تحوله الصريح عن اشتراكية عبد الناصر وعن



## - ١٦٣ -

صداقته مع الاتحاد السوفييتى . وكان لا بد للسادات من الاعتماد على أعداء هؤلاء . غير أن اليمين السياسى كان وقتها من التعفن والافتقار الى الشعبية بحيث لم ير السادات مناصا من الاعتماد فى المقام الاول على التيار الاسلامى ريثما تنهيا لشخصه شعبية تغنيه عن كل هؤلاء . وكان أن توصل الى مصالحة مع جماعات اسلامية ( ساهم الملك فيصل فى تدبيرها صيف عام ١٩٧١ ) ، بعد اقناعها باتفاق أهدافه وأهدافها ( مقاومة الشيوعية والحاد ) ، ووعدها بالسماح لها بممارسة نشاط علنى .

وقد كان السادات أكثر من سخي فى وفائه بوعده . فهو لم يكتف بالسماح لصحف الجماعات الاسلامية بالظهور ، وبمقد هذه الجماعات بالأموال ، وانما تعدى ذلك الى مدها بالأسلحة لاستخدامها عند الضرورة ضد اليساريين . وبعد أن كان هؤلاء الاخيرين الهيمنة على اتحادات الطلاب فى الجامعات ، مكن للجماعات الاسلامية من سلب هذه الهيمنة ، وتغاضى عن جو الارهاب الذى أفلح التيار الاسلامى فى فرضه على سائر الطلبة بل وعلى الأساتذة أنفسهم . وكان من أعوانه المقربين من اهتم بأن يوفر لأعضاء الجماعات من الجنسين الزى المسمى بالاسلامى ، والوظائف داخل القطر وخارجه ، ولحديثى الزواج منهم الشقق السكنية والمساعدات المالية . كل هذا فى سبيل دعم قوة تخدم أغراض السلطة وتضرب مناهضيها .

والى جانب هذه المساعدات من جانب الحكومة ، تدفقت الأموال على هذه الجماعات من أنظمة دول اسلامية معينة تستهدف أمرين : ضرب الفكر اليسارى فى المنطقة ، والتحكم فى قوة مؤثرة فى سياسة أقوى دولة عربية . وقد كان لهذا التدليل وهذه المساندة اللذين تلقتهم الجماعات الاسلامية من النظام فى الداخل وأنظمة غنية فى الخارج ، أثرهما فى زيادة احساس أفرادها بقوتهم ، وبقدرتهم على التعامل مع السلطات المصرية معاملة

النقد للنقد .

وزاد هذا الاحساس قوة تهافت الآلاف المؤلفة من الشباب المصرى وافراد طبقة البورجوازية الصغيرة على الانضمام الى هذه الجماعات ، حين بدأت تظهر للأعين الآثار الوخيمة لسياسة الانفتاح الاقتصادى التى انتهجها السادات . لم ينخدع هؤلاء بفقهاء السلطان ينصحون بالاعتدال ، وباجراءات حكومية مثل دعم برامج اذاعة القرآن الكريم ، وبالأذان يقطع برامج النيلىفزيون ، أو بالصور العديدة للرئيس المؤمن يودى صلاة الجمعة أو العيد . وانما رأوا فى الانفتاح الداعر على الغرب تهديدا للقيم الاسلامية كلها ، وللتقاليد المصرية ، ولكل خيط ولو رفيع فى نسيج الامة . كان معظم من أفاد من الانفتاح ممن لا أخلاق لهم ولا مبدأ . وضاع مع التضخم طبقة الموظفين والبورجوازية الصغيرة . وأضحت السلع فى مناول القلة وحدها . وهان على النساء بيع الأعراض فى سبيل تملك هذه السلع . وصار من المألوف أن يعير الأبناء آباءهم بالتمسك بالمبادئ والشرف ، وقد باتت هذه المبادئ وهذا الشرف عقبة كأداء فى سبيل تملك الثروات . وأضحى لتجار المخدرات الهيمنة والنفوذ . وداخل أصحاب العلم والثقافة الرفيعة الشك فى قيمة ما حصلوه وهم يرون الحرفيين البسطاء يكسبون أضعاف أضعاف ما يأتينهم من دخل .

أضحت من أهم ظواهر المجتمع المصرى فى عصر السادات ظاهرة الرعب لدى البورجوازية من أن تتحول الى بروليتاريا ، وادراكها عجزها عن صد التيار الذى يجرفها تجاه هذا المصير الا بتقبلها فكرة الانحراف . وقد انحرف الكثيرون بالفعل . غير أن أولئك الذين لم تسمح لهم ضمايرهم بالانحراف ، أو كانوا أعجز من أن يزاحموا الغير على أطايب العيش ، رأوا أنه لا بديل أمامهم من أجل الحيلولة دون انهيار كيانهم غير الانضمام الى جماعات

- ١٦٥ -

تشعرهم عضويتهم فيها بأنهم ليسوا وحدهم فى خضم الصراع ، بعضهم يشد من أزر بعض ، ويسعون جميعا الى اسقاط نظام لا يفيد منه غير القوادين والأفاقين .

وبامتلاء صفوف الجماعات الاسلامية بهؤلاء الساخطين الذين باتوا يكونون الأغلبية فيها ، كان لا بد أن يفرض سحقهم نفسه على القيادات المتعاونة مع السادات ، وأن تغير من اتجاهات هذه القيادات ، وأن تزيد من شعورها بالاستقلال عن السطة . وقد لمست الحكومات الاسلامية التى تمتد هذه الجماعات بالعون مدى جاذبية الاسلام لهؤلاء الذين يعانون أشد معاناة من جراء الفوضى الاجتماعية والاقتصادية فى مصر ، وترددت فترة ما بين مؤازرة اتجاه الساخطين وتعزيد اتجاه السادات المناهض للاستراكية والاتحاد السوفييتى . غير أن هذا التردد سرعان ما حسمه ابرام السادات لصالحه مع اسرائيل ، فتحولت تلك الحكومات الى التأييد المطلق للجماعات الاسلامية فى سعيها للقضاء على حكم السادات .

وقد تسبب ابرام اتفاقية السلام فى زيادة تدفق الشباب للانضمام الى هذه الجماعات . سخط البعض على هذا الصلح المنفرد لما ينطوى عليه من خيانة للقضية الفلسطينية واضعاف لشوكة العرب . غير أن الدافع لدى الغالبية كان الشعور بالاحباط اذ لم ينجم عن ابرام الصلح ذلك الرخاء السريع الذى وعدهم السادات به ، مع استمرار المشكلات المصرية على حالها من التفاقم . وقد غذى هذا السخط عندهم لجوء السادات الى سياسة القمع ( بعدة فترة من الديمقراطية النسبية ) ، خاصة عقب حوادث يناير ١٩٧٧ التى أسماها السادات بانفاضة الحرامية ، فى الوقت الذى كان يسمح فيه للصيغ الحقيقين من أفراد الطبقة الطفيلية المستفيدة من الانفتاح بأن يعبثوا فى الأرض فسادا كما يحاو لهم .

- ١٦٦ -

الغريب فى الامر أن السادات لم يدرك الا متأخرا جدا حقيقة أنه بمؤازرته للحركات الاسلامية ، قد أطلق من القمم عملاقا رهيبا لا قبل له به . حتى حركة صالح سرية الذى قاد عام ١٩٧٤ هجوما على الكلية الفنية العسكرية كخطوة أولى للاستيلاء على السلطة ، وحتى مقتل الشيخ محمد الذهبى ، وكشف النقاب عن جماعة التكفير والهجرة ، لم يكن كافيا لإقناعه بالتحول عن هذه السياسة . ولم يدرك السادات حقيقة الوضع الا فى بداية عام ١٩٨١ حين قرر الضرب على أيدي هذه الجماعات قبل أن يفلت منه الزمام . غير أن الزمام كان قد أفلت بالفعل . وكان اغتيال السادات فى ٦ أكتوبر من نفس العام ، ضمن خطة من وضع احدى هذه الجماعات التى طالما آزرها من أجل ضرب جماعة لا حول لها ولا قوة من الناصريين والاشتراكيين .

## عن التسامح الدينى

آمل أن تتسع صدور القراء ، من مسلمين وأقباط ، لما سأبديه هنا من ملاحظات ، وأن يطبق حيالى مبدأ التسامح الذى هو موضوع المقال .

وأبدأ بملاحظة فرعية ، هى استنكارى لاستمرار استخدامنا لكلمة Tolerance ( أى التسامح أو الاحتمال ) ، حتى يومنا هذا . فهى كلمة ان جاز استخدامها فى القرن السابع عشر وقت كتابة جون لوك لرسالته فى التسامح لمقاومة ما ساد فى زمنه من اضطهاد دينى ، فهى لا تعنى اليوم غير قلة الاكثريات بالتفرقة بين الحقيقة الروحية والخطأ الروحى ، ولا سند لها على الاطلاق من حى الآخرين واحترامهم . . هى كلمة توحى فى واقع الامر بنوع من الاحتقار للدين ذاته . . فان قال لى امرؤ انه ( يحتملنى ) ، فالمؤكد أنه ليس صديقى . وان قال انه يتسامح مع آرائى ، فالمؤكد أنه لا يحترم هذه الآراء . وفى اعتقادى أن من الواجب فى زمننا هذا أن نتجاوز الاحتمال والتسامح الى الاعتراف والمعايشة .

ثم أمضى فأقرر أنه لا أمل فى تحسين وضع ، ولا بالوسع الشروع فى ازالة مظالم ما دمنا سنظل الى ابد الآبدين نكرر ما اعتدنا أن نكرره من تعابير مبتذلة بالية ، لمجرد طمأنة الخواطر ، وراحة الضمائر ، وغرس الوهم فى الأذهان بأن الأمور هى على خير ما يرام ، لولا حفنة من المتعصبين ، ولولا دسائس الصهيونيين والاستعماريين ، وأنه لولا هذه وتلك لحلت العلاقات الطائفية من كل شائبة . . أقول ، انه لا أمل فى تحسين وضع ما دمنا نخاطب الأمانى بالواقع ، فنظل نكرر عبارات مثل ( ان تعاليم الأديان الكبرى تمجد

مبدأ التسامح ) ، أو ( ان جميع الأديان لديها فى جوهرها فكرة الأخوة العالمية ورسالة مشتركة من الرحمة والمحبة ) ، أو ( ان المصدر الرئيسى للتسامح قائم فى التعاليم الدينية التى تبشر بعدم التمييز والاخاء والاحترام المتبادل بين البشر ) ، أو ( لقد فشلت كل جهود المستعمر الأجنبى فى التفرقة بين المسلمين والمسيحيين ) ، الى آخر ما ورد ويرد من مثل هذه العبارات فى كتابات وتصريحات من تصدوا فى الآونة الأخيرة لهذا الموضوع . وانما يكمن الحل الحقيقى فى رأى فى مواجهة واضحة صريحة لوضع قبيح صريح .

### الاختلافات بين الأديان

ذكر بعض هؤلاء أن الاختلافات بين الأديان ظاهرة أكثر منها حقيقية ، وانها جميعا متفقة فى جوهر تعاليمها ، وأنه بالإمكان التوفيق بينها وتوحيد أساسها كخطوة فى سبيل تعزيز التسامح الدينى . مثل هذا الموقف التوفيقى فى رأى يضع نفسه فوق الأديان كافة ، وينتحل صفة الاله وامتيازاته ، ويحل الفلسفة محل الدين . وهو بالتالى موقف لادينى . وعندى أن كل معاشية وكل حوار بين الأديان يفقدان مغزاهما ما لم يكونا دينيين . ولو صبح هذا الرأى الذى طالما سمعناه ليس فقط من العوام ومحدودى الثقافة ، بل ومن زعماء الطوائف الدينية فى مناسبات معينة ، لصارت حصيلة الفكر البشرى أشد فقرا وجدبا وضحالة مما هى عليه اليوم . فلو كانت الأديان جميعا على اتفاق فيما بينها ، لما كانت ثمة حاجة الى أكثر من دين . . . وانما هى رؤى متباينة يعكس كل منها مفهوما مخالفا عن الكون والحياة والسلوك البشرى . وليس اله هذا الدين باله ذاك . فما الاله فى مفهومى غير حصيلة مكونات هذه الرؤية المتباينة للرؤى الأخرى . ( لكم دينكم ولى دين ) .

والاعتراف بهذه الحقيقة التى يدركها فى قرارة نفسه كل ذى دين  
يأبه له ، خطوة ايجابية فى سبيل التعايش الدينى والاحترام المتبادل بين  
أفراد الطوائف الدينية المختلفة ، شريطة أن يستقر فى النفوس مبدأ أساسى :  
هو أن كل رؤية تحمل جانبا من الحقيقة لم تركز عليه سائر الرؤى ، وأن  
ثراء الروح البشرية والفكر الانسانى هو فى الاطلاع على كنه تلك الرؤى  
المباينة ، ومحاولة الغوص الى أعماقها للاستفادة من الجديد الفريد الابداعى  
المتميز فيها ، وأن معيار رقى الفرد وعظمته الروحية هو مدى فهمه وتوقيره  
لكافة ضروب الفكر التى أسهمت فى تشكيل البشرية .

### هل أمرت الأديان حقا بالتسامح ؟

وذهب البعض الآخر الى أن كافة الأديان قد أمرت بالتسامح واحترام  
الأديان الأخرى . وهو قول لن ندعه يمر . . أى دين بالضبط أمر بالتسامح  
واحترام الأديان الأخرى ؟ اليهودية التى أباحث السرقة من مال غير اليهود ،  
والزنا بغير اليهود ، واقتضاء الربا من غير اليهود ؟ أم المسيحية بقول عيسى  
عليه السلام : ( أجبرهم على الدخول حتى يمثل بي ) انجيل لوقا  
١٤ : ٢٣ ؟ أم الاسلام والقرآن الكريم يذكر صراحة ( ومن يبتغ غير الاسلام  
دينا فلن يقبل منه ) آل عمران ٨٥ ؟

انه لمن السهل ، ومن المألوف ، أن يسترشد البعض بعبارة أو آية  
أو حديث من هنا أو هناك لاثبات ما يؤيد حجته فى أى موضوع شاء . غير  
انه من حقنا أيضا أن نسأله : هل هذه العبارة أو الآية أو هذا الحديث هو  
كل ما ورد فى الكتاب المقدس أو كتب الحديث بصدد الموضوع الذى نتحدث  
فيه ؟ وهل تعنى هذه العبارة أو الآية أو الحديث حقا ما تعنى أنت ، أم أنك  
تفرض على ما اخترته تأويلا ومعانى لم يقصدها النص ؟ وعلى سبيل المثال  
أذكر أن أحدهم قد استشهد وهو فى معرض التدليل على أن الاسلام قضى

## - ١٧٠ -

بالتسامح وحرية العقيدة بآية ( لا اكراه فى الدين ) ، وتغافل عما أوردته الطبرى فى تفسيره من أن الآية نزلت قبل أن يؤمر المسلمون بقتال أهل الكتاب . فهلا استشهد بآية : ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ) ؟ أو آية ( فان لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ) ؟ أو آية ( وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ) ؟

### تنافس الأديان

والخلاصة أن الخطوة الايجابية الثانية فى سبيل التعايش الدينى تتمثل فى ادراك الحقيقة التالية : وهى أنه ان كان كل من الأديان يرى لنفسه الحق فى أن يعم وأن يسود على حساب الأديان الأخرى ، فان فكرة التعايش والاحترام المتبادل هى من انجازات العقل البشرى ، والعلمانية ، ومن أعظم ثمار الحصيلة البشرية من الخبرة التاريخية الطويلة المرة ٠٠٠ هى من خلق الانسان ، لا من وحى الأديان .

الأديان بطبيعتها تتنافس فيما بينها على أرواح البشر . وهى بالضرورة غيورة متميزة شأن مشاعر القبلية والوطنية . ولا يكمن خطأ المتعصب فى اعتقاده أن دينه هو أفضل الأديان ، فهو أمر طبيعى ومشروع ، ولو لم ير المرء لدينه الحق فى الشمولية والعالمية لما كان هذا دينه . انه لا يلتمس لنفسه « طريقا » ، وانما يلتمس لها « الطريق » ، ولا يسعى وراء « حقيقة » ، وانما يسعى وراء « الحقيقة » . وانما يكمن خطاه فى عجزه المطلق عن ادراك ما يدور بين الله وروح المؤمن من أتباع الديانات الأخرى ، وعن ادراك حقيقة انه ليس ثمة دين مخطئ ان كان معتنقه يرويه كافيا لسد احتياجاتهم الروحية والحياة الفاضلة على هديه ، وعن ادراك أن جهود التبشير أشبه شىء



بمحاولة الاستعماريين فرض ثقافتهم وحضارتهم وأسلوب عيشهم على مختلف  
انحاء العالم مما لا يمكن أن ينجم عنه سوى فقر الفكر البشرى .

كذلك يكمن خطأ المنعصب فى عزله نفسه عن الجوانب الايجابية فى  
الاديان الأخرى ، وانخاذه لمعتقده ووجهة نظره مقياسا للحكم على معتقدات  
الآخرين . ومن هنا نأى أهمية الحوار وضرورة التلاقى والتلاقح ، فما تلاقى  
الاديان غير مظهر واجب آخر من المظاهر المتزايدة لتلاقى الحضارات والشعوب  
فى عصرنا هذا . ولا يعنى هذا مطالبة أتباع أى دين باطراح أية حقيقة  
جوهرية فيه . وانما يعنى تجاوزنا الاستماع فى صبر ، والجدال فى تادب .  
الى السمع الذى يمكننا من الاستفادة والتعلم من الآخرين ، بل والى تصحيح  
بعض معاهيمنا عند الضرورة ، والى التفرقة بعناية أكبر بين الجوهرى وغير  
الجوهرى فى الدين . وبين الرمزى وغير الرمزى ، ثم اعادة صياغة الجوهرى  
واعادة تفسير الرمزى .

على المسلمين مثلا أن يبذلوا جهدا أكبر فى التعرف على تعاليم السيد  
المسيح وفهمها ، والا يشبطهم ايمانهم بتحريف التوراة والانجيل عن  
دراسهما . وعلى المسيحيين أن ينظروا مثلا فى امكان اعادة صياغة عقيدة  
التثليث بهدف التركيز على وحدانية الله التى يقول بها الاسلام ، وأن يشرعوا  
فى تقييم محمد صلى الله عليه وسلم تقييما أكثر ايجابية ينطوى على الاحترام  
والتقدير والفهم . وهو ما لن ينعارض مع جوهر المسيحية . وعلى الجميع أن  
يبدوا استعدادا لتقبل نتائج الفكر العلمى الحديث ، خاصة تلك النظريات  
المتعلقة بالدين فى كل من علمى النفس والاجتماع ، وتقبل منهاج البحث  
التاريخى الحديث فى الدين ، وتمديد مناهجهم الفكرية . وعلى هؤلاء وأولئك  
أن يدركوا أن اقدام المرء على تعميق فهمه لدين الآخرين يعنى تعميق فهمه  
لدينه هو ، وقديما قالوا : من لم يعرف غير وطنه لم يعرف وطنه ، ومن لم

## - ١٧٢ -

يعرف غير لغته لم يعرف لغته ، ومن لم يعرف غير دينه لم يعرف دينه . كما عليهم أن يدركوا أن المتدين الحق ليس من كان بوسعه تنفيذ الأديان الأخرى ، والسخرية من معتقدات أهلها كما يفعل بعض الدجالين المشعوذين فى برامجهم التليفزيونية ، وإنما المتدين الحق هو من كان بوسعه أن يميز الحقائق الواردة فى الديانات الأخرى ثم ينتقل بعدها الى ما هو أبعد من ذلك .

### هل الأمور على ما يرام ؟

نقطة ثالثة تتعلق بالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال تعاميا عن الخطر الذى يلاحقها . لو كانت الأمور كما يراها البعض تتعلق بخطط استعمارية أو صهيونية تهدف الى التفرقة ، أو بنوايا خبيثة لدى بعض مثيرى الفتن والشغب ، لما كان ثمة مبرر كبير لما تشعر به الحكومة والأمة من قلق ازاء خطر حقيقى يتهدد الوحدة الوطنية . فالتطرف الدينى الذى يهدد بنسف هذه الوحدة فى ازدياد ، وكذا الاحساس لدى عدد غفير من المسلمين المصريين بأن الانتماء الى العالم الاسلامى يجب الانتماء الى مصر ، والشعور لدى عدد متزايد من الأقباط بأن « الأقباط قد يضطرون فى مستقبل غير بعيد الى الدخول فى مواجهة مسلحة » .

يقول المستشار وليم سليمان قلادة فى أحد أبحاثه « لقد فشلت كل جهود الاستعماريين للتفرقة بين المسلمين والأقباط » . غير أنى سائله : وماذا عن جهود غير الاستعماريين من أبناء مصر أنفسهم فى سبيل خلق التمييز والتفرقة ؟ وماذا عن فشل الحكومات المصرية المستقلة المتعاقبة فى إيجاد حل لهذه المشكلة ؟ أم أنه ليست هناك مشكلة ، وأن الأمر لا يتعدى بعض الحوادث الفردية من الاغتيالات ، وبعض الحوادث العارضة من المناوشات الدامية ، وبعض الحوادث المؤسفة من احراق دور العبادة ، وبعض

المزايدات الدينية التى يابها الضمير المصرى ، وبعض مظاهر الانتهازية واستغلال الدين من جانب الأحزاب السياسية المعارضة للحكومة ؟

وأقولها هنا صراحة دون ودون التواء : انى أرى القبط مسئولين هنا مسئولية جسيمة عما يحدث لهم ، وذلك بانطوائهم التقليدى ، وسلبيتهم وحذرهم المشهورين به فى العالم كله ، واختيار الكثيرين من أفضل العناصر فيهم وأكثرها ثقافة وخبرة ومهارة للهجرة من وطنهم ، دون المجابهة الايجابية النشطة لما يجرى فيه ، والاشتراك اشتراكا فعالا مع المسلمين المستثمرين فى ايجاد مخرج من هذه الورطة ، ومساعدة الحكومة باقتراحاتهم على تعزيز التعايش الدينى بين الطائفتين ، وانه ليحزننى ويدمى قلبى ان أرى مواقفهم لا تتعدى فى الأغلب ردود الفعل ازاء ما يحدث ، اما بالهجرة الى الخارج ، او الشكوى والتبرم فى مجالسهم الخاصة ، او الصبر على مضض ، او التسار مما يلحق بهم ، اما التخطيط لانقاذ الوحدة الوطنية فلا يكادون يعرفونه ، واما بصدد حقهم فى المواطنة والمساواة الكاملة فى قطر لهم فيه ما للمسلمين ، فان مثقفهم وقادتهم يكتفون بأن يرددوا فى المحافل العامة ما لا يؤمنون به ولا يؤمن به أحد ، من أن كل شئ على ما يرام ، وليس بالامكان ابدع مما كان ، وان « كل جهود الاستعماريين من أجل التفرقة قد فشلت » !

### بين الاتحاد والعاطفة الدينية

نقطة رابعة : لطالما لمست فى وطننا وفى غيره أن أفضل العلاقات بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة هى تلك التى تسود بين الملحددين من كل طائفة ممن قد تلاشت لديهم العقيدة ، وجمع بينهم الشك فى صحة الأديان جميعا . . هنا يختفى التعصب وضيق الأفق ، والشك المتبادل والحيطة والحذر ، ويصبح من المتصور والممكن أن تقوم الصداقة الحرة ، والالفه الحقيقية ، ويضحى شعارهم بيت الشاعر القروى :

- ١٧٤ -

سلام على كفر يوحسد بيننا  
وأهلا وسهلا بعده بجهنم !

وربما وافقنى القارىء على أنه من المؤسف أن يكون للاتحاد مثل هذا الفضل ، ولا يكون للعاطفة الدينية ، وأنه من المحزن أن نرى المتدينين فى كل من الطائفتين وقد غلبت عليهم مشاعر الشقاق والمرارة والشك اذا متدينى الطائفة الأخرى ، فى الوقت الذى تجابه الأديان كلها قوى عاتية تعارضها وتسعى الى هدمها جميعا ، هى أعتى وأبلغ خطرا مما كانت عليه فى أى عصر مضى . قد كان ثمة أزمات كتلك التى عرفها الاسلام وقت محنة خلق القرآن ، أو التى عرفتها أوروبا فى عصر الاصلاح الدينى ، غير أنها كانت أزمات داخل الدين ، فى حين نجد الأزمة الراهنة تتمثل فى هجوم ضد الدين ، سواء جاء هذا الهجوم من جهة الماركسية ، أو الانسانية ، أو المادية العلمية ، أو نمط الحياة المعاصرة . وقد زاد عدد أولئك الذين بات الدين لا يلعب دورا كبيرا أو صغيرا فى حياتهم ، ولا يعرفون القيم الدينية التى هى الوسيلة الأكيدة لمقاومة فقر الحياة الروحية فى المجتمع الحديث . فبدون هذه القيم لا يمكن أن يكون ثمة سلوك متجانس ، ويضحى ساوك الفرد مجموعة من التصرفات وردود الفعل لا رابط يجمع بينها .

وقد أحست الكنائس المتصارعة فى الغرب بهذا الخطر الذى يتهدها جميعا فى السنوات الأخيرة ، فسعت بنجاح الى راب الصدع بينها ، وفتحت باب الحوار من أجل اقامة جبهة متحدة ضد العدو الحقيقى ، بل ومدت جميعها يدها الى اليهودية والاسلام للمشاركة فى الدفاع ، وأعلنت أن المطلوب هو مجرد احترام الدين فى حد ذاته ، وتقدير العاطفة الدينية حيثما وجدت وإيا كان موضوعها ، فى سبيل احداث التقارب وتحقيق التلاقى . وبقينا نحن فى مصر نعيش فى بيت قد انقسم أهله على أنفسهم ، ولا يغطى سقفه غير جزء من مساحة أرضه .

### الناس اعداء لما جهلوا

بقيت كلمة أخيرة : لئن كان المثل العربى يقول : « الناس اعداء لما جهلوا » ، فانى لا أرى جهلا من فئة بعقيدة فئة أخرى كجهل كل من المسلم والقبطى فى مصر بعقيدة الآخر . لا هذا قرا الكتاب المقدس عند الآخر ، ولا هو تعلم عقائده فى مدرسته ، ولا تطلع الى معرفتها حين شب ونما . ان سالت القبطى عن الاسلام اجابك بأنه دين يحرم الخمر ولحم الخنزير ويحلل زواج الرجل من أربع . وان سالت المسلم عن المسيحية اجابك بأنها دين يحلل الخمر ولحم الخنزير ويحرم زواج الرجل من أكثر من واحدة . وقد كُنَّ المفروض أن تندارك المدارس ووسائل الاعلام والآداب عندنا هذا الحلل الذى هو - دون شك - أحد أسباب التعصب وسوء العلاقات . غير أنها لم تفعل . فخصص الدين فى المدارس قاصرة على أبناء كل طائفة ، وكان يمكن أن تدرس للجميع ديانات الجميع . وثمة ستة قرون من تاريخ مصر المسيحية ( هى أطول من تاريخ الولايات المتحدة بأسره ) ، لا يكاد المسلم المصرى يعرف عنها شيئا . والصحف والمجلات لا منبر فيها لفكر قبطى ويكاد الأمر يقتصر على صحيفة واحدة لا يقرأها غير القبط . والاذاعة والتليفزيون لا يلقيان بالا الى عقيدة القبط ، فى حين يبدى أدباء القبط وكتابهم تقصيرا عظيما فى تصوير أحوال طائفتهم وطريقة عيشها وتفكيرها ، سواء فى الروايات أو المسرحيات أو الأفلام . أما الأحزاب السياسية فإن كل ما تسعى اليه باتجارها بالدين ، هو الوصول الى كرسي من خشب ، حتى ان استندت قوائمه الى فوهة بركان . فما حسانا أن نتوقعه بعد هذا غير الجهل ، وغير مشاعر الاحباط والمرارة ، وتمذر قيام علاقات صحية من التمايش الدينى ؟

- ١٧٦ -

وختاما ، فانى زعيم لكم بأن الأمور ليست على ما يرام ، وأن الافتقار الى الصديق التام والصراحة الكاملة فى عرضها ، الى الحوار الحر المباشر من أجل الوصول الى حلول معقولة ، كفيل بأن يبقى الأوضاع على حالها . كما أنى زعيم بأن التركيز على دور الاستعماريين ، والحديث عن زمرة مأجورة . أو قلة قليلة من مثيرى الفتنة والشغب ، وتفسير الصدامات بقمماش تظهر عليه علامة الصليب ، هى أمور لا أقول انها لا تقال الا للأطفال ، بل هى لا تقال أصلا حتى للأطفال ، خشية تشويش أفهامهم ، وتشويه مداركهم .

## حسين ومرقص وكوهين<sup>(١)</sup>

هتف بى صاحبي فجأة وقد حانت منه التفاتة الى الزجاج الخلفى  
لسيارتى :

- ما هذا ؟! أمجنون أنت ؟
- وسرت الى عدوى فزعه ، فاوقفت السيارة فجأة لاستطلع اى خطأ  
بدر منى أو حادث تسببت فيه .
- ماذا صنعت ؟
- زجاج سيارتك ؟ أمجنون أنت ؟ أين الملصقات ؟
- أية ملصقات ؟
- ملصقات « لا اله الا الله محمد رسول الله »
- أمن اللازم لشخص يشهد الا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ،  
أن يلصق هذه الشهادة على زجاج سيارته ؟
- بالتأكيد !
- لم أجد هذا لا فى قرآن ولا فى سنة .
- أعرف أنها ليست فى القرآن والسنة ، ولكنها بائت الآن أمرا  
حيويا .. جوهريا .. مسألة حياة أو موت .. اعنى بالنسبة للسيارة .
- كيف ؟ كيف يمكن أن تفيد الملصقات السيارة ؟

---

(١) كتب هذا المقال فى ٢٧ مايو ١٩٨٥ على ضوء انتشار ظاهرة الملصقات الدينية على  
السيارات فى مصر ، ونشر فى مجلة « المصور » فى عدد ٦ يونيو ١٩٨٥ ، وفى ٣٠ يونيو  
أمرت السلطات المصرية بإزالة هذه الملصقات عن التو .

- ١٧٨ -

- لا تمزح أرجوك . ألم تسمع الشائعة القائلة بأن أفراد الجماعات الدينية المتطرفة تنوى بعد تاريخ معين أن تحرق أو تهشم كل سيارة لا تحمل مثل هذه الملصقات ؟

- أجاد أنت ؟

- بكل تأكيد . وقد لصقتها أنا شخصيا لا على الزجاج الخلفي فحسب ، بل وعلى الزجاج الأمامي وأبواب السيارة الأربعة ، زيادة في الاحتياط والتحصين .

- وحسنا فعلت !

- فلتسرع اذن ، خاصة أننا لا نعرف بالضبط الأجل الذى حددوه ،

- ومن أين أشتريها ؟

- ما يفيظنى منك هو أنك تتكلم وكأنك لست من أهل هذا البلد .

« من أين أشتريها ؟ » . انه لمن الصعب الآن يا صاحبي ألا تشتريها !  
ألا تسير فى شوارع البلد ؟ ألا تدخل أيا من متاجرها ؟ ألا تمون سيارتك بالوقود من محطات البنزين ؟ « من أين أشتريها !! » غير أنك ان أحببت فسادلك على متجر فيه عينات مختلفة متنوعة بوسعك أن تختار منها ما يناسبك .

\* \* \*

دلقت الى المحل الذى دلنى صديقى عليه ، فاستقبلنى صاحبه مرحبا

بابتسامة :

- فى خدمتك .

- أريد واحدة من تلك الأوراق المصمغة التى تلتصق على زجاج

السيارة ، والمكتوب عليها « لا اله الا الله » .



— ١٧٩ —

- نعم نعم • بارك الله فيك وبارك في دينك • • سيارتك ، أى لون هي ؟ •
- بيضاء •
- عظيم • البيضاء تناسبها كافة ألوان الملصقات • وليس عليك إلا أن تختار •
- ومد يده الى رف وراءه وأنزل منه مجموعة هائلة متنوعة من الأوراق •
- ذهبى • أسود • بنى • أبيض على خلفية سوداء • ذهبى على خلفية خضراء • فضى • أزرق غامق على خلفية لبنية • • تحت أمرك •
- هذه لا بأس بها • صغيرة شفافة لن تحجب الرؤية •
- استغفر الله العظيم • مثل هذه الملصقات لا تحجب الرؤية يا سيدى • انها تشحذ الرؤية • • الروحية •
- طبعى • وانما كنت أقصد الرؤية الأخرى : رؤية السيارات خلفى •
- مفهوم • نعم • هذه شفافة لا تحجب رؤية السيارات خلفك •
- وهى بالفعل رقيقة اللون • أتعرف صلاح بك الميناوى مدير بنك « ف » ؟
- لقد اشتري هذا الصباح من هذا اللون نفسه عشرة • أتريد أن تنتقى من موديلات أخرى أم تشتريها كلها من هذا الموديل ؟ •
- ماذا تعنى ؟ لا أريد غير واحدة فحسب للزجاج الخلفى •
- وماذا عن الزجاج الامامى ؟ •
- لا ياسيدى • على الزجاج الامامى ستحجب الملصقات الرؤيتين :
- المادية والروحية مما ! يكفى الزجاج الخلفى •
- ولكن الجميع قد باتوا الآن يلصقون أكثر من ورقة على الزجاج الخلفى • أحدث العهد أنت بالعودة من الخارج ؟ •
- نعم •

- ١٨٠ -

— قد حذرت ذلك من طريقة كلامك • نعم • لم يعد أحد يكتفى  
بـ « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » • هناك العديد من الملصقات التي  
تحمل عبارات أخرى • هذه مثلا تحمل آية ( ان الدين عند الله الاسلام ) ،  
زيادة في الكيد للأقباط • وهذه تحمل آية ( أفغير دين الله يبغون ؟ ) وهذه  
( ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ) • وستصلني بعد أسبوع تشكيلة كبيرة  
من الشعارات الأخرى التي يجرى طبعها الآن • يمكنك المرور في نهاية  
الأسبوع القادم للاختيار منها •

— ساكتفى الآن بملصق واحد • وقد أمر عليك فيما بعد •  
— كما تشاء •  
— بكم هذا ؟

— غبرى يبيعه بثلاثين قرشا • غير انى سابعك الواحد بخمسة  
وعشرين ان اخذت عشرة أو أكثر ••• هناك ماصقات أرخص تحوى  
اعلانات •• هذه مثلا : ( والسابقون السابقون • أولئك المقربون • فى  
جنات النعيم ) مع تحيات فندق سونيستا ، افخر فنادق الشرق الأوسط ••  
بعشرين قرشا •• وهذه : ( ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ) مسع  
اطيب تمنيات شركة اير فرانس بسلامة الوصول •• بعشرين قرشا هى  
الأخرى •

وفتح باب المحل ، ودخله رجل سمين فى نحو الخمسين يحمل حقيبة  
صغيرة ، رآه التاجر فاتجه نحوه يضافحه وعلى وجهه ابتسامة عريضة :  
— اهلا بالاستاذ مرقص •• نورت المحل •• طلباتك يا استاذ مرقص •  
— الملصق الذى بعته لى فى الأسبوع الماضى لا يكاد يكون فيه صمغ  
على الاطلاق • كلما حاولت لصقه على زجاج السيارة لم يثبت الا لبضع  
ثوان • وقد جئتكم به لأرده واختار آخر •

— ١٨١ —

— وحسنا فعلت • على عيني وراسي يا مرقص بك •• أى ملصق ذاك الذى اشترينته ؟ •

— ( نعمة يسوع المسيح مع جميعكم ) •

— نعم • كل الملصقات التى وصلتنا من المطبعة وتحمل هذا الشعار صفحتها بالغ الرداءة • لم تعد هناك فى البلد ذمة أو أخلاق •• ولكن عندى عشرات غيرها جيدة التصميم •• هل عندك صورة الانبا كيرلس ؟  
— لا •

— ساوريك اياها ، مع مجموعة من الملصقات الأخرى التى وصلتنى هذا الصباح •• هل رأيت ملصق ( الرب راعى فلا يعوزنى شئ ) ؟ أو ( طوبى للذين يطيعون وصاياهم ) ؟ ستكون سيارتك أول سيارة تحمل هذا الماصق الجديد •• صدقنى •

واتجه التاجر الى رف فى ناحية أخرى من الدكان ، فى حين شرع الأخ مرقص يفتح حقيبته ليعيد البضاعة المفقوشة •

وفجأة ، خطرت فى ذهنى فكرة :

— لا مؤاخذه يا استاذ مرقص •• اسمى حسين أمين • وكنت قد اتيت هنا لأشترى شعارا اسلاميا لسيارتى • غير انى حين سمعتك تطلب شعارا مسيحيا لسيارتك ، خطرت بذهنى فكرة ملصق ثالث لسيارتك وسيارتى معا •

ورأيت يد التاجر تتوقف عند رف علوى ، ووجهه وقد تطلع الى يستمع فى انتباه شديد :

— ملصق ثالث ؟ وما عساه يكون ؟

— ١٨٢ —

— فكرت فى أنه بدلا من هذه الملصقات التى توحى بشيء كالتنافس بين فريقى الأهلى والزمالك للكرة ، أو بأغنية أحمد زكى وسعاد حسنى : « هوه أعظم من هى ٠٠ وهى أذكى من هوه » ، نضع ملصقا جديدا عاينه شعار ( لا تجعلوا من مصر لبنان آخر ) ٠ ما رأيك ؟ ٠

صاح التاجر وقد أنزل يده فارغة من الرف المسيحى :  
— بارك الله فيك يا أستاذ حسين ٠٠ بارك الله فيك ٠ تصور أن هذه الفكرة قد راودتني أنا منذ أسبوعين ، وشرعت على الفور فى طلب تنفيذ كمية ضخمة من هذا الشعار من المطبعة ١٩ ٠  
— لا أصدق ! ٠

— لا تصدق ؟ ولكنك ربما قد تصدق عينيك اذا رأيت الملصق مطبوعا بالفعل ٠

واتجه بسرعة الى رف ثالث فى ناحية أخرى من المحل ، فأنزل منه نسخا من الملصق الجديد بنفس العبارات التى كنت قد اقترحتها ٠  
— ما قولك الآن ؟ صدقتنى ؟ ٠

ومكثت أرمقه فى ذهول وصمت ٠ قال :

— أعتقد أن مثل هذا الشعار سيروج راجا لا بأس به على الإطلاق ، خصوصا عند أولئك الذين يخشون الفتنة الطائفية فى مصر ٠ غير أنى لا أتوقع بالطبع أن أبيع منه نفس الكميات التى أبيعها من الملصقات الأخرى ٠ والآن ٠٠ تريدان نسخا من ( لا تجعلوا من مصر لبنان آخر ) ؟ ٠

قلنا فى صوت واحد : نعم ٠

قال للأستاذ مرقص :

— ولا داعى اذن لصورة قداسة الأبنا كيرلس ، أم تريد الملصقين ؟ ٠

— ١٨٣ —

— يكفى هذا المصق الأخير .

— جميل . . . عندي منه ألوان : فضى . ذهبى على خلفية بنية . أحمر على خلفية سوداء . يرتقلى . . . أعتقد أن الأحمر هو اللون الأنسب لما فيه من تلميح الى بحر الدماء التى تراق فى لبنان . ما رأيكم ؟ آه ! خطرت لى فكرة جهنمية . ما رأيكم فى ملصق « لا اله الا الله » على يمين زجاج السيارة ، وملصق « الله محبة » على اليسار ، وملصق « لا تجعلوا من مصر لبنان آخر » فى الوسط من قبيل التوفيق بين الطائفتين ؟ رائعة ، اليس كذلك ؟ هل آتى لكل متكما بالثلاثة معا ؟ ساحاسبكم على الثلاثة بسعر اثنين فحسب ، ورزقى على الله .

وازداد ذهولى اذ أسمع حديثه . . . كدت أن أسأله عما اذا كان يعرف مصدر الشائعة عن نية تهشيم السيارات التى لا تحمل الملصقات بعد تاريخ معين . غير أنى لم أر حاجة الى السؤال . ثم خطر لى أن أسأله عن اسمه هو . غير أنه تجاهل سؤالى ولم يجب .



## حول أزمة تعاملنا مع التراث العربي

أبدأ بملاحظة عامة : هي أن تكرر طرح الاشكاليات منذ عصر الطهطاوي الى يومنا هذا من السمات المؤسفة لمجتمعنا الاسلامي . ففي المجتمع الغربي مثلا ، تطرح الاشكالية للمناقشة بين الخصوم ، ثم ينجم الحل اما بالوصول الى صيغة وسط ، او بتغلب مذهب هو أكثر مسايرة لاحتياجات العصر ، وينتقل المجتمع بعد ذلك الى مجابهة اشكالية جديدة ، فلا يعود الى النظر في اشكالية سبق طرحها الا فيما ندر . أما في مجتمعنا الاسلامي فان المشكلة تطرح وتحل ، ثم نطرح مرة أخرى بصيغتها العتيقة وتحل ، ثم تطرح ثالثة ورابعة ، وكأننا نحن في دائرة مغلقة لا نعرف كيف نتجاوزها الى غيرها . وعلى سبيل المثال : من ذا بوسعه أن يصدق أو يسيغ العودة الى مناقشة قضية حجاب المرأة على نفس النحو الذي تصدى له به قاسم أمين وخصومه منذ أكثر من ثمانين عاما ، وبنفس الحجج والأسانيد البالية ١٩ .

### قضية الأصالة والمعاصرة

ومن تلك القضايا التي يتكرر طرحها في مجتمعنا الاسلامي ، بصيغ مختلفة ، قضية الأصالة والمعاصرة ، وإن كان هذا التكرار ينطوي على بعض الاختلاف في طبيعته عن الاشكاليات الأخرى . فهي قضية لم يصل بصدها أي جيل الى حل مرض أو الى أي تقدم ، عكس قضية تحرير المرأة مثلا . وتكرر الطرح كرة بعد أخرى ، هو في كل مرة في صورة أشد عنفا وحدة ، إنما يعني أن المشكلة تزداد تعقدا بمضي السنين ، وأن الوضع يزداد تازما . فالازدواجية ولصام الشخصية لدى أبناء مجتمعنا ينموان نموا ينذر بأن

## - ١٨٦ -

تضحى أمتنا أمتين على نحو وصف كارل ماركس للمجتمع الانجليزى فى زمنه . وقد سبق أن أوضحت بدايات الأزمة وأرجعتها الى طبيعة نظام التعليم المزدوج الذى فرضه محمد على وغيره من ولاة اقطار الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر . وأضيف هنا أنها أزمة ترتبط ارتباطا وثيقا بتزعزع الثقة بالنفس ازاء التفوق المادى والحضارى للفرنجة . وبالتالى فانه كلما ظهرت فى مجتمعنا من الأسباب والدواعى ما يعيد الى أبنائه بعض هذه الثقة المفقودة ، ويرد اليهم قدرا من الايمان بالمستقبل ، خفت حدة الاشكالية . وهو بالضبط ما حدث ويحدث فى فترات المد فى الحركة الوطنية .

### إزمة تعاملنا مع التراث

ان هناك بالقطع أزمة فى تعاملنا مع التراث وفى تحديد موقفنا من المعاصرة . والسبب فى رأى يتصل بحدة الازدواجية التى أشرت اليها ، وهى ازدواجية أساسها عجز المتفرنجين منا عن استساغة التراث ووصل ما بينهم وبين ماضيهم ، وعجز السلفيين عن المعاصرة والاستفادة من حضارات الغير ، وعجز هؤلاء وأولئك عن تمثل مختلف الاتجاهات ، والخروج منها بناتج جديد متجانس ، له ما لتلك الاتجاهات من الاستقلال . وقدima قالت العرب : « اذا سمعت الرجل يقول : ( ما عند الله خير وأبقى ) ، فاعلم أن فى جواره وليمة لم يدع اليها » ! فالعنب اذن هو فى العادة حصرم . ثم اذا بهذا العجز من أولئك وهؤلاء يتبلور فى عداء كل لموقف الطرف الآخر ، دون أن يحقق أى منهما الانسجام المنشود .

ولا اعتقد أن مجتمعات كثيرة غيرنا تعرف مثل هذه المشكلة العقيمة . فالغربى مثلا ان قرأ فانما يقرأ توما الاكوينى اليوم ، وبرتراند راسل غدا ، ثم افلاطون بعد غد ، كتبهم جميعا ضمن سلسلة واحدة ، على رف



واحد ، فى مكتبة واحدة ، لا يقال عنه انه تراثى ان فضل اسخيلوس ، او انه عصرى ان هو آثر دورينمات ، ويدخل كل هذا فى تكوينه ليجعل منه الانسان الذى هو عليه . لا مشكلة ولا حيرة ولا احساس بالتمزق . مشكلة العربى المعاصر هى اذن كمشكلة امرىء يحاول تدارك صعوبة حمل العديد من صحون الطعام فى يدين اثنتين ، بينما الغربى أشبه بمن أكل منها جميعا وتمشأها فسرت فى بنيانه وصارت الى هيئة جسد مخالفة . وعندى انه فى مقدورنا تحقيق مثل هذا الانسجام متى اتخذنا من تراثنا ومن حضارات الغير موقفين مغايرين لموقفنا اليوم :

من تراثنا : بحيث لا يكون الهدف من الاقبال عليه الهروب من حاضر ثقيل الوطأة ، او الترويع عن النفس ، او التفرج على اطلال العصور الخوالى ، وانما هو الاستفادة من حكمة الاقدمين وتجارب الاسلاف فى ان نجعل من عالمنا المعاصر عالما افضل ، وان نهىء لانفسنا وابنائنا مستقبلا ازهى ، لا نحترم الماضى لمجرد انه ماض ، ولا السلف لانهم سلف ، ولا نقصر الحق فى التفكير على الاموات .

ومن حضارات الغير : بحيث لا يحكم موقفنا عقدة نقص او استكبار او فقدان الثقة بالنفس وبالدين والتقاليد ، مع الاقرار بان الاستفادة من معاصرة غيرنا ممكنة على نحو استفادة أوروبا من معاصرة العرب ابان العصر الوسيط فى تجاوزها لواقعها الى عصر النهضة فعصر الاصلاح الدينى .

### مسئولية نظم التربية والتعليم

وتنبع المشكلة والحيرة عندنا فى رأى من أمور ثلاثة لا مناص من أن تتصدى لها نظم التربية والتعليم فى اقطارنا ان هى ارادت المساهمة فى ايجاد الحلول :

**الأول :** الفهم الخاطئ لدى جميع الأطراف لماهية التراث والمعاصرة .

**والثاني :** تخريج صنف من الناس لا يملكون ناصية لغسات أجنبية تعينهم على تذوق ثمار حضارات غير حضارة أسلافهم .

**والثالث :** تخريج صنف آخر من المتفرنجين ، بالغوا في النظرة الى الغربيين وكانهم أنصاف آلهة ، وبالغوا في التحقير من شأن تراث أمتهم الذي حسبوه خطأ المسئول عن التخلف الذي صرنا اليه ، قد حرمهم فساد منهج تعليم اللغة العربية في مدارسنا من القدرة على النظر في كتب الأقدمين ، فان نظروا فيها كان ذلك من قبيل الرغبة في التندر على سخافة نظرة الأسلاف .

فاما عن التراث فانه يمكن الحديث عنه بأحد معنيين : أنه مجموع ما خلفته قرائح الأقدمين وصفوة الأسلاف من فكر وفن وعلم ونمط عيش وفنون حضارة مما يمكن لجيئنا الحالى الافادة منه والاستعانة به على حل ما يواجهه من المشكلات والتحديات ، أو تعريفه بأنه كل ما أفرزه الماضي من افراغات ، ضارة ونافعة ، سامة وسليمة ، لا يزال لها اثرها الفعال في مسلكنا ومعتقداتنا وأسلوب معيشتنا ونظرتنا الى الحياة ، منها ما يجدر بنا التمسك به وتنميته ، ومنها ما ينبغي علينا محاولة استئصاله أو الحد قدر الامكان من نطاق سلبياته .

واما عن المعاصرة فتفترض موقفا إيجابيا نشطا من جانب مثقفين يستهدفون الادراك الواعى لحقائق الزمن الذي يعيشون فيه ، وعناصره ، وموقعه من مجرى التاريخ ، وعلاقته بالمستقبل المرئى ، ثم تحملهم رؤيتهم على تقبل ما هو حتمى لا قبل للانسان بتغييره ، ومحاولة التغلب على الاتجاهات التى تسير ضد تيارات التاريخ ، وتقاوم حتميته ، وتعرقل وصوله الى هدفه كما يفهمه هؤلاء المثقفون .

واستنادا الى هذه المفاهيم أمضى فأقول : ان ماضى وتراثى وسلفى ، وماضى الحضارات الأخرى وتراثها وأسلانها ، لا يعنينى منها الا الجانب الذى ثبت لدى أنه حى ، وأن بوسعه أن يشرى حياتى وحاضرى ، ويزيد من قدرتى على مواجهة تحديات مستقبلى ، ومن قدرة أمتى على مواجهة تحديات مستقبلها .

كذلك فانه بوسعنا من نفس المنطلق أن نتخيل تغير تقويم اهل كل زمان لرجال تراثهم وثماره عن تقويم اهل الزمان الذى سبقه ، وأن من حق كل جيل ، ومن واجبه ، أن يعيد تقويم عناصر تراث أمته للتمييز بين ما يمكن استخدامه منها فيبقى عليه ، وبين ما لا يمكن استخدامه فيغضى عنه . فنحن انما نعيش فى زماننا نحن لا زمان الأقدمين ، وما لا يساعدنا من تراث الأسلاف على حل مشكلات زماننا هو ميت الى حين اكتشاف جيل تال لجيلنا ان فيه حلا لمشاكله فيحييه . اما ما نجد فيه العون فهو حى الى حين اكتشاف جيل تال عدم جدواه له فيهجره .

ونقاط البداية عندى تتلخص فيما يلى :

١ - تشخيص الأدواء التى تعاني أمتنا منها ، والتعرف على حقيقة موقعنا من الخريطة الحضارية للعالم .

٢ - التعمق فى دراسة تراثنا للنظر فيما يمكن أن يقدمه من حلول لهذه الأدواء .

٣ - دراسة تاريخ تطور أمتنا ، وتاريخ تطور غيرها من الأمم ، بفرض الاستدلال منهما على ملامح المستقبل .

٤ - الاستفادة من تجارب الحضارات الأخرى والنظر فى ما اذا كان لديها أو فى تراثها ما يمكنه مساعدتنا على مواجهة تحديات المستقبل ، من

دون أن تخل هذه الاستفادة بتفرد شخصيتنا الحضارية .

وأقولها صراحة اننى لست كبير التفاؤل بصدد بعض هذه النقاط :  
فحصيلة شباب أمتنا من اللغة العربية فى تضاؤل مستمر رهيب ، ونفورهم  
من النظر فى أمهات كتب تراثهم الاسلامى فى ازدياد ، واتجاههم يقوى يوما  
بعد يوم الى تبني قيم الغرب وتقليد أهله فى أساليب عيشهم ، خاصة وقد  
ضاعت ثقتهم فى أمة لا يبدى أبنائها الحماس الا فى حرب بعضهم لبعض ،  
ولا يعرف ساداتها سبيلا الى انفاق الثروات أفضل من انفاقها على اشباع  
شهواتهم الحسية ، وتصريح حكوماتها على عدم المساس بسلطاتها المطلقة ، وعلى  
استئصال شافة كل فكر حر .

### الاقتراح

فان اتفقنا بعد هذا على أن من أهم الأهداف التى يجب أن تتوخاها  
اية محاولة لاصلاح نظم التربية والتعليم عندنا هو أن يسترد شباب أمتنا  
احترامهم لتراثهم الفكرى ، والرغبة فى الاستزادة منه ، والقدرة على النظر  
فيه ، فالأجدى أن نبدأ بالاعتراف بأن الحصيلة التى يخرج بها أبنائنا من  
اللغة العربية بعد انقضاء سننى دراستهم لا توفر القدرة على فهم ما كتبه  
الأقدمون ، والنماذج التى تدرس لهم فى المدارس لأدب هؤلاء ، كهجاء  
الفرزدق لجريز ، وفخر المتنبى بنفسه ، ومدح الأعشى لوالى الحيرة ، فى كتب  
رديئة الورق ، سيئة الطباعة ، قبيحة الصور ، لا يمكن أن ينجم عنها احترام  
حقيقى لتراث العرب كذلك الاحترام الذى ينجم لديه لأدب الفرنجة حين  
يدرس فى حصص أخرى مسرحية لشكسبير أو قصائد هيجو ، فى كتب  
أنيقة الطباعة ، بهية الصور والاخراج .

وقد أقدم الغربيون منذ بضع سنوات ، من أجل تعزيز المام شباب  
الغرب بتراثه والجذور الفكرية لحضارته ، على اخراج مجموعة من الكتب

تضم أربعة وخمسين مجلدا أصدرتها دائرة المعارف البريطانية وتحمل اسم « أعظم كتب العالم الغربى » ، من هوميروس الى فرويد . هذه المجموعة باتت تشكل جزءا من أثاث معظم العائلات المثقفة القادرة على اقتنائها فى أوروبا وأمريكا الشمالية .

فان كان عالما العربى قد نشر فيه بالفعل عشرات الآلاف من كتب التراث ، فان شبابنا يضل فى متاهاتها ، عاجز عن اقتناء ولو اليسير منها ، مفتقر الى من يهديه الى القمم الشامخة فيها ويثنيه عن النظر فى تافه الشأن منها . فلو أن حكومة من حكومات دول النفط تبنت مشروعا كمشروع دائرة المعارف البريطانية ، وشكلت لجنة من عشرة أو عشرين من العلماء المتبحرين فى التراث العربى ، المدركين مع ذلك لطبيعة ذوق شباب أمتنا المعاصر ، فالتقت بعد النقاش والفرز وتمحيص الآراء المختلفة أعظم مائة كتاب مثلا من المؤلفات العربية منذ امرئ القيس الى الجبرتى ، واستبعدت من هذه الكتب المائة الغث الكثير الذى تحفل به كتب عظيمة كاغانى أبى الفرج أو السلوك للمقرئزى ، وأبقت على بعضها الآخر بصورته الكاملة كمقدمة ابن خلدون وحى بن يقطان لابن طفيل وفصل المقال لابن رشد ، ونشرتها فى خمسين أو ستين مجلدا أنيقا بسعر فى متناول العائلة متوسطة الحال ، بحيث تصبح جزءا من أثاث دارها ، وفى متناول أبنائها وتحت نظرهم فى كل يوم ، لأسدت بهذا الصنع خدمة جليلة لأبناء جيلنا والأجيال التالية اذ تصل بينهم وبين ماضيهم .

ويا حبذا لو تبع ذلك ترجمة كاملة لمجلدات مجموعة « أعظم كتب العالم الغربى » ، فيجمع شبابنا بين الحسينيين . وأذكر هنا أن اللجنة التى نهضت بالمشروع الغربى كانت تعتزم فى البداية أن تضم المجموعة أعظم كتب العالم ، ثم عدلت عن ذلك واكتفت بكتب العالم الغربى ، على أساس

- ١٩٢ -

ان ابناء الحضارات الأخرى أقدر على تقييم كتب حضاراتهم من غيرهم ،  
ووعدت فى مقدمة المجموعة بأنه متى أخرجت الأمم الأخرى مجموعات مماثلة ،  
فقد تضمنها جميعا فى مجموعة ضخمة واحدة ، هى تراث الانسانية ،  
لا شك ان من شأنها أن تسهم اسهاما عظيما فى اقامة الجسور الفكرية بين  
الحضارات .

## حلاوة زمان أو ظاهرة الحنين إلى الماضي وانعكاساتها السياسية في مصر

شهدت مصر خلال السنوات العشرين الماضية نموا مطردا في ظاهرة الحنين الى الماضي . وهي ظاهرة عمت شرق العالم وغربه خاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . بل انه حتى في الاتحاد السوفييتي والصين ، حيث كانت السلطات الى زمن قريب تجرم مجرد التعبير عن الحنين الى العهد السابق على قيام الثورة الشيوعية ، باتت تلك السلطات تفضي الطرف عن انتشار هذه الظاهرة ، وتتساهل بشأنها ، وهو تساهل لمسناه في مصر أيضا منذ وفاة عبد الناصر .

غير أننا لن ندعى أن الظاهرة - ظاهرة البكاء على الأطلال - قاصرة على زمننا . فقدima عبر امرؤ القيس والمتنبى ، وفيرجيل وبترايك ، بل وهوميروس نفسه ، عن الحنين الى ماض « مجيد سعيد » يختلف في كل مظاهره عن حاضريهم « التافه التعس » ، والى سلف « صالح » يتمتع بكل ما يفتقر اليه معاصريهم من « القوة والشهامة ، وكريم الخاق والسجايا » . وثمة نص فرعونى يشكو فيه صاحبه من أن شباب زمنه لم يعد يبدى من الاحترام للآباء ما كان يبدىه الشباب فى الماضى ! كما أن ثمة امرأة عربية فى القرن الأول الهجرى سئلت عن سبب لزومها دارها ، فأجابته بقولها : « قد كنت أخرج والناس ناس ، أما وقد فسد الناس فلزوم بيتى أجدر بى » !

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام  
( المتنبي )

كذلك فقد اشرايت أعناق مفكرى عصر النهضة الأوروبية وفنانيا  
تتطلع فى حنين الى أمجاد اليونان وتراثهم ، وعبر مارتن لوتر فى عصر  
الاصلاح الدينى عن حنينه الى المسيحية الخالصة من الشوائب فى زمن بولص .  
والجيروند وقت الثورة الفرنسية الى عظمة الدولة الرومانية القديمة ، ومدرسة  
« ما قبل رفايل » فى الفن الانجليزى ابان القرن التاسع عشر الى روعة الفن  
الغوطى ، وتغنى الأمريكيون فى أعقاب أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية بمناقب  
أسلافهم مؤسسى الجمهورية ، وصلابة عودهم وخلقهم .

### فى الدول المتقدمة

فان كانت ظاهرة الحنين الى الماضى قديمة قدم الماضى نفسه ، فان  
لم يحدث فى التاريخ كله أن اتخذت مثل هذه الصورة الوبائية التى اتخذتها  
خلال الأربعين سنة السالفة ، ولا كان الناس قبل الآن يستشعرون مثل  
هذه الرغبة العارمة فى الهرب من الحاضر ، أو أقل تحرجا من التصريح بهذه  
الرغبة ، وأكثر وضوحا فى التعبير عن الحنين الى الماضى ، والتشديق بسحره  
وبريقه .

وليست الظاهرة قاصرة على شعوب قد اختلت أمورها وتدهورت  
الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فيها . فهى مألوفة شائعة ، وبنفس  
القوة ، فى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا واليابان . فهناك  
الى جانب العناية الكبرى التى يولونها للآثار القديمة ، وترميم الكنائس  
والأماكن الأثرية وقصور الملوك والنبلاء ، وإنشاء المتاحف وجمع المخطوطات :  
نشهد الاقبال على البحث عن الأنساب ( كما فى رواية « جذور » لالكرس  
هيل ) ، واهتمام الأسر بأن يكون لديها رسم لشجرة العائلة ، واليوميات



الصور العائلية ( حتى لقد أوضح استفتاء أجرى مؤخرا في إنجلترا أن أكثر من نصف أفراد الشعب الانجليزي يفضل أن يفقد حليه أو ملبسا أو كتبه أو نقوده على أن يفقد اليوم صور العائلة ! ) . وهناك الشغف بالروايات والأفلام التاريخية ( وقد فسروا شعبية المسلسل التلفزيوني «Upstairs, Downstairs» ونجاح الفيلم السينمائي «A Room With a View» في إنجلترا وغيرها بمجرد أنهما يعرضان للحياة الانجليزية في بداية هذا القرن ) ، والغرام بجمع العملات القديمة ، وشراء التحف والانتيكات وكل اثر من الماضي مهما صغر . وثمة اقبال على الاستماع الى الموسيقى القديمة ، والأغاني القديمة ، وعودة الى صنوف أطعمة كانت معروفة من جيلين أو ثلاثة ثم اختفت أو كادت ، أو الى أزياء اندثرت ، وإلى مشاهدة أفلام الثلاثينات والأربعينات ، ( That's Entertainment ) ، واقتناء قطع من اثاث الأجيال السالفة ، وشراء أجهزة الفونوغراف ومطاحن البن التي تدار باليد ، والسيارات العتيقة ذات الذراع الذي يدير محركها . وقد بات الكثير من أساليب الديكور واثاث المنازل قريبا من أساليب القرون الماضية فتمة أثاث الحجرة الصالون على طراز لويس الخامس عشر ، والحجرة النوم على طراز لويس فيليب ، ومصابيح كهربائية في هيئة الشموع أو قناديل الغاز أو فوانيس عربات الخنطور ، ومدفثات كهربائية تحوى ما هو فى صورة قطع الخشب حتى تصفى عليها مسحة القدم . . وهكذا .

وهناك الى جانب كل هذا وغيره ذلك الشغف الواضح الذى يبدي السياح بزيارة مدن أو جزر قد احتفظت بطابعها العتيق ، وشوارعها ومبانيها عريقة القدم ، ولم تتأثر بمظاهر الحياة الحديثة الا قليلا ، كالبندقية فى إيطاليا وستراتفورد فى إنجلترا ، وايفوار فى فرنسا على ساحل بحيرة ليمن وباراتى وسلفادور فى البرازيل ، وإن كان بعضها ، مثل هاواى ، قد استغل

أهلها هذا الحنين لدى السياح الى البساطة والطبيعة والماضى ففقدت البساطة فيها عذريتها ، وأضحت فى مثل تصنع العروض المسرحية . وزيفها . وفى الولايات المتحدة ما يعرف بالمدينة التاريخية التى يخير زائرها بين الإقامة فى مسكن على طراز المساكن فى زمن شكسبير ، أو فى زمن واشنطن ، أو نابليون ، أو يوليوس قيصر ، وتقدم له الأطعمة المعروفة فى ذلك الزمان وفى صحونه ، ويحاط بجو مماثل أو مقارب لجوّه . ومن زار منا « ديزنى لاند » فى كاليفورنيا لا شك قد ركب فى بحيرتها سفينة show boat المنتمية الى زمن مارك توين ، وتجول فى أرجاء الجزيرة التى هيئت بنفس المواصفات الواردة فى روايته « توم سوير » و « هكلبرى فين » .

لقد أضحى الحنين الى الماضى والاستغراق فى أحلامه والتفكير فيه « موضة » هذا الزمان ، وساد بين الناس الاعتقاد بأن كل قديم هو بالضرورة ثمين نفيس ، وارتبط الماضى فى أذهانهم بالبساطة والراحة والاحساس بالأمن والحياة الطبيعية السهلة ، مما يخالف وطأة الحاضر وتعبده . ولو أن الناس سئلوا أى زمان يفضلون العيش فيه لذكرت غالبيتهم أى عصر عدا عصرهم . وقد اتسع مؤخرا نطاق الماضى الذى يحنون اليه وامتد . فبعد أن كانوا يحنون الى ما قبل عشرين قرنا أو عشرة ، أو ما قبل قرنين أو قرن واحد ، باتوا الآن يتنهدون لذكرى الفترة ما قبل أربعين أو ثلاثين عاما فحسب ، ويقبلون على اقتناء ما يذكرهم بتلك الحقبة . بل انه حتى الحقب القبيحة بيئة السوء ، قد بات لها الآن سحر ورونق . فالكثيرون من شيوخ انجلترا مثلاً يحنون الى الزمن الذى كان النازيون فيه يقصفون بلدهم بالقنابل باعتباره زمنا سعيدا ، ويذكرون ما كانوا يتحلون به وقتها من ايمان قوى ، وثقة فى انتصار الحق على الباطل ، وقدرة بطولية على احتمال الآلام والمشاق . . . ذلك أنه من السمات الجوهرية لمشاعر الحنين

## - ١٩٧ -

الى الماضى أنها تستبعد دائما العناصر البغيضة المؤلمة من الذكريات .  
فذكرياتنا عن الطفولة غالبا ما تتجاهل أمراضها ومتاعبها وشجاراتها  
العائلية . أما الآلام فطابع يومنا هذا ، وحاضرنا هذا . . . وقد يختار بعضهم  
الاستغراق فى ذكريات زمن قريب ، كالطفولة أو الشباب ، وقد يختار  
البعض استعادة ذكرى زمن سحيق ، كعصر الاغريق أو عهد الخلفاء الراشدين .  
وكثيرا ما نردد القول ، بأن الحياة فيما مضى كانت مريحة سهلة ، طبيعية  
بسيطة ، ذات معنى وطعم وهدف ، وأن الناس « كان فيهم الخير » ،  
والعلاقات الانسانية تتسم بالدفء والتراحم والتعاطف . وما السر فى  
اقبال السياح على التقاط الصور الفوتوغرافية وشراء ما يذكرهم برحلاتهم ،  
سوى ادراكهم أنهم حين يتأملونها فيما بعد ، سيتخيّلون أنهم كانوا يشعرون  
وقت التقاطها أو شرائها بسعادة لم يكونوا فى الحقيقة يشعرون بها . . . وقد  
قيل « انتظر حتى يصبح الحاضر ماضيا ، وسترى كيف كنت سعيدا  
وقتئذ » ١١

## فى مصر

وقد شاعت هذه الظاهرة فى مصر شيوعا رهيبا خاصة منذ هزيمة  
يونيو عام ١٩٦٧ . فاحب الفترات الى القلوب الآن هى العشرينات والثلاثينات  
والأربعينات من هذا القرن ، حين كانت المواصلات صالحة لاستخدام الآدميين ،  
والشوارع لا تعرف الزحام ، والسماء خالية من سحابات التلوث ، وحين  
كانت يافطات « شقة للايجار » تصادف العين فى كل طريق ، وسيارات  
الاجرة تقف فى ادب لكل من يشير لها بالوقوف ، وحين كانت مظاهر الحياة  
بسيطة غير معقدة ، خالية من التوتر والضغط العصبي والتزاحم  
والتكالب على كسب المال ، وقبل أن تفسد الاخلاق وتخلو العلاقات  
الاجتماعية من التآخى . . . واحب الافلام الى مشاهدى التلفزيون الآن

عندنا - حتى المثقفين منهم - هي أفلام على الكسار ونجيب الريحاني ومحمد عبد الوهاب وغيرها من أفلام تلك الحقبة ٠٠ وأحب الفرق الموسيقية والغنائية الى المستمعين هي فرقة الموسيقى العربية بما تقدمه من ألحان داود حسنى وسلامة حجازى وسيد درويش ٠٠ وقد خصصت مجلات اليوم ، وبدون استثناء تقريبا ، صفحة كاملة أو صفحتين لباب محبب الى النفوس هو « مصر من سبعين عاما » ، أو من خمسين عاما ، أو من ثلاثين ، يتنهد الناس عند قراءته ٠٠ فان ركبت سيارة أوتوبيس فقد يصعد اليك فيها بائع أقراص نعناع يهتف بك : « نعناع بتاع زمان ! » ، وكأنما ما دام « بتاع زمان » فهو بالضرورة أفضل من أقراص نعناع اليوم بعد انقراض الصنعة والدثار السر ٠٠ وأحب صورة للعلم المصرى هي الراية الخضراء بهلالها ونجومها الثلاثة ٠٠ ومذكرات السياسيين والصحافيين والأدباء من العهد السابق تملأ رفوف المكتبات واكتشاك الجرائد ٠٠ وجنازة النحاس باشا قد تحولت الى مظاهرة قومية كبرى طابعها الحنين الى عهده ٠٠ وقد كثرت محلات الأشغال الفنية التى تستلهم القديم فى صياغة الحلى والتحف ٠٠ وكثيرا ما تظهر سيدات المجتمع الراقى فى الحفلات بجلابيب الفلاحات ، وقد تحلين بالكردانات والخلاخل ٠٠ وأضحى جانب كبير من حديث الناس عن أيام كانت البيضات العشير بقرش واحد ، وكيلو اللحم بعشرة ، وأيام كان لدى الناس أخلاق وذمة ، وأيام كان الشباب يحترم الشيوخ ، وحين كان بوسع أفراد الطبقة العليا أن يترددوا على دور السينما والمسارح قبل أن تدهمها الفوغاء ، وحين كان عدد تلاميذ الفصل فى المدارس لا يتجاوز العشرين وعن مناطق سكنية ملوثة كانت منذ أعوام قلائل مزارع خضراء تشرح القلب ، وعن أشياء لم تعد تصنع كما كانت تصنع فى الماضى ٠٠٠ اذ أين الحلاوة الطحينية « بتاعة زمان » ؟ والسحلب الأصلى والمغات ؟ والنوجة بالفستق ؟ وكشاكيل « الطاحونة » الفاخرة ؟ وباعة الفستق تذرع بلالات

الاسكندرية جيئة وذهابا ؟ واين اسكندرية الامس ببلاجاتها النظيفة وكازينوهاتنا ومطاعمها اليونانية وحدائقها ومواصلاتها من اسكندرية اليوم التى اختل أمرها وتلوث بحرنا وعلاها البلى والصدأ ؟ وبور سعيد أيام العز ، أيام كان كيلو البطارخ فيها بجنيه واحد ، و كيلو الجمبرى بنصف جنيه ؛ ويا الف حسرة على رأس البر فى الأربعينات ؛ واين ممثلو وممثلات اليوم من نجيب الريحاني وهارى منيب ؟ وهل ظهر مطرب أو مطربة منذ أن مات فريد الأطرش وأم كلثوم ؟ أو أدباء فى مثل قامة طه حسين وعباس العقاد ؛ حتى سماء القاهرة نفسها كانت أكثر زرقة ؛

### مدى صحة الدعوى

قال محمد بن جرير الطبرى :

« حدثنا وكيع عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تنشد بيت لبيد بن ربيعة :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم  
وبقيت فى خلف كجسد الأجرب

ثم تقول : رحم الله لبيدا ! كيف لو أدرك من نحن بين ظهرائهم !

قال عروة : رحم الله عائشة ! فكيف بها لو أدركت من نحن بين ظهرائهم !

قال هشام بن عروة : رحم الله أبى ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرائهم !

قال الطبرى : رحم الله هشاما ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرائهم ! » .

هذه القصة التى أوردها كتاب « الأغاني » لأبى الفرج وأمثالها توضح عمومية ظاهرة الحنين الى الماضى وأهله ، وأنها تشمل الشعوب كافة ، فى

العصور كافة ، وفى ظل كافة الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وعمومية الظاهرة تدفعنا دفعا الى الشك فى صحة الدعوى ومصادقية الشعور بأن الأمور فى تدهور مستمر فى كل مكان . فلو أن الشهاب حقا كان قد بدأ يفقد احترامه للآباء منذ زمن قدماء المصريين ، واستمر هذا الاحترام بعد ذلك فى التضائل تدريجا ، جيلا بعد جيل ، لما بقى منه شئ على زمن الرومان على أكثر تقدير ! ولو أن الأخلاق شرعت فى الانحطاط منذ زمن لبيد بن ربيعة ، وبدرجة أحست بها عائشة ، فعروة ، فهشام ، فالطبرى ، فالأجيال التالية جيلا بعد جيل ، لكان من العجب أن نسمع بوجود بقية منها فى زمن الملك فاروق ! وقد كان الشاعر الألماني هاينى يقول : « كانت لدى الناس فى الماضى معتقدات ، أما أهل زماننا فليس لديهم غير آراء ! » . قال هذا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر قبل خروج ماركس وانجلز ونيتشه وتولستوى ولينين وموسولينى وهتلر وجمال الأفغانى بمعتقداتهم فالأمر اذن لا بد راجع الى طبيعة بشرية تميل دوما الى الانتقاص من قدر الحاضر ، وإضفاء مسحة رومانسية على الماضى . وهو ما يتمثل فى قولهم : « أزياء العام المنصرم قبيحة ، وما قبل عشر سنوات مضحكة ، وما قبل خمسين عاما لطيفة ، وما قبل مائة عام رومانتىكية ، وما قبل مائة وخمسين عاما رائعة » .

والمؤكد عندى أن الماضى لم يكن له سحره ، أو على الأقل ، لم يكن ساحرا بالدرجة التى يخالها الناس . فان قبلت شهادة رجل مخضرم مثل ولد فى زمن الملك فؤاد ، قلت ان الأحوال لم تكن بالروعة التى يظنها الكثيرون من شباب مصر اليوم ، ولدعوتهم الى مقارنة الأحوال المعيشية للفلاحين والعمال والحرفيين بالأمس بأحوالهم فى يومنا هذا ، والوضع الاجتماعى للمرأة فى مستهل القرن بوضعها الآن ، وكذا بالنسبة لقدرة الوعي السياسى

- ٢٠١٠ -

والإمام بما يدور فى العالم الخارجى ، وتفتح العقول للتيارات الفكرية المختلفة ، وإدراك معنى حقوق الإنسان ، والعناية بالطفل ، واحترام حق الأبناء فى استقلال الرأى ٠٠ الى آخره ٠ فان كان للضائقة الاقتصادية آثارها السلبية ، فبالوسع الإشارة الى ما أدت اليه من اضطراب الأفراد الى بسذل المزيد من الجهد والبحث عن أعمال انتاجية اضافية تزيد من دخولهم ، بدلا من تبديد الوقت فى المقاهى كما كانوا يفعلون فى الماضى ٠ ثم فليقارنوا ان شاءوا بين ثلجات الأمس بفريجيديرات اليوم ، وفونوغراف الأمس بأجهزة الكومباكت ديسك ، ووابور الغاز بالفرن الكهربائى ٠٠ فان حسبوا أن بوسعهم افحامى بالاشارة الى شوقى وسيد درويش ، وسعد زغلول وطلعت حرب ، دعوتهم الى المقارنة بين كتابات المنفلوطى وصادق الرافعى الاشبه بغزل البنات وكتابات فؤاد زكريا الدسمة المفعمة بالفكر ، وبين تماثيل مختار وتماثيل صالح رضا ، وبين مسرحيات محمد تيمور ومسرحيات عبد الرحمن الشرقاوى ، وبين قصص محمود تيمور وقصص يوسف ادريس ، وبين أفلام على الكسار وأفلام صلاح أبو سيف ، وبين تمثيل يوسف وهبى وعزيزة أمير وتمثيل نور الشريف وسعاد حسنى ٠٠٠٠

ان أفراد الجماعات الدينية يتغنون بمناقب السلف الصالح وزمن الخلفاء الراشدين ، وقت أن كانت الأمجاد والحياة المثالية ٠ وقد رأيت بنفسى فى احتفال « الدوبار » بشمال نيجيريا صحفيا مصريا تدمع عيناه لرؤية الفرسان يرمحون بخيولهم ، اذ ذكره منظرهم بأيام وجيوش الفتوحات الاسلامية فى زمن أبى بكر وعمر ٠٠ وفى اعتقادى أن أولئك الذين يتشدقون بروعة الحياة فى العصرين الأموى والعباسى مثلا لن ترضى غير قلة قليلة منهم بالحياة فيهما لو كان بوسعهما ذلك ، ولو أنها كانت على دراية كاملة بالاحوال وقتها ٠ وحسبنا أن نذكر أنها أزمنة عرفت الرق وعبودية المرأة ،

وتكرر وقوع الأوبئة والطواعين ، وانتشار المجاعات ، وغلبة الفقر والامية ، ومآسى تعدد الزوجات ، ووهن الصلة العاطفية بين الأزواج ، وبين الآباء والأبناء ، والسياسة المطلقة للحاكم ، وضعف تأثير الرأى العام ، وقسوة العقوبات ولا انسانية معاملة المجانين والسجناء ، وسوء الأحوال الصحية والجهل بسبل الوقاية من الأمراض ، وسذاجة نظم التعليم ، وجلد الشعراء وقطع الرؤوس لمجرد نزوة من الحاكم ، واحراق المبتدعين من المفكرين وتقطيع أوصالهم ( اقرأ ما حدث لعبد الله بن المقفع فى زمن المنصور ) وسوء حال المسنين والعجزة ، وقلة وسائل الراحة والترويح عن النفس . وقد كان تشارلس ديكنز على دراية بخرافة عظمة الماضى اذ جعل على رف بحجرة مكتبه ورقا مقوى فى صورة سبعة كتب يحمل جميعها عنوان « حكمة الأقدمين » ، ثم عنوانا فرعيا لكل منها . والعناوين السبعة هى :

الجهل - الخرافة - المقتلة - المشنقة - التعذيب - القنطرة - المرض !

### أسباب ظاهرة الحنين الى الماضى

فالعالبية اذن تريد أن تحلم بالماضى شريطة ألا تعود اليه ٠٠٠ وانما يجد الناس للماضى سحرا ورونقا لأسباب بعضها قائم فى كل عصر ، وبعضها يتصل بعصرنا الحديث وظروف الحياة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

فأما عن الأسباب القائمة فى كل عصر فمنها :

**أولا :** أن الماضى ان بدا أكثر حيوية وأعظم بريقا فليس ذلك لأنه كان أفضل من الحاضر ، وانما لأننا كنا أنفسنا أكثر تألقا وحيوية أيام الطفولة والصبا والشباب ، ثم ما عدنا الآن نشعر بالأشياء والأحداث بنفس القوة السالفة . فافلام يوسف وهبى هى بالتأكيد دون مستوى افلام يوسف شاهين . غير أنه ان كان الشيوخ منا يشاهدون اليوم من جديد



## - ٢٠٣ -

« بنات الريف » على شاشة التليفزيون فتدمع أعينهم ، ولا تدمع أعينهم إذ شاهدوا « اليوم السادس » ليوسف شاهين ، فانما تفسير ذلك هو أنهم حين شاهدوا الفيلم الأول فى شبابههم كانت قدرتهم على التأثر والتجاوب أكبر من قدرتهم على التأثر بالفيلم الثانى بعد أن شابت منهم الرؤوس ووهنت العواطف ، فجاء تفضيلهم الأول على ضوء استعدادهم لذكرى جيشان عواطفهم وقت الصبا والشباب . كذلك الحال بالنسبة لما قرأناه فى شبابنا من كتب ، أو استمعنا اليه وقت الصبا من الموسيقى والأغاني . فان نحن أعلننا اليوم تفضيلنا اياها على غيرها ، فانما نحن فى الواقع نعلن تفضيلنا لأنفسنا وقت قراءتها أو الاستماع اليها أول مرة على أنفسنا اليوم . فالنحن الى الماضى هو فى حقيقته نحن الى المشاعر القديمة لا الى الأشياء القديمة . نحن الى أيام كنا نخال كل شئ ممكنا ومتاحا لنا ، أيام كنا نشعر بالحب ونثير فى الغير مشاعر الحب تجاهنا ، أيام كانت الحياة أمامنا لا خلفنا .

**ثانيا : أن الماضى يحمل فى طياته سمة الأمن والاطمئنان . كل شئ فيه قد تحدد مكانه ، واستقرت معالنه ، ومعروفة سلفا ملاسباته وعواقبه . فهو كالمسرحية نأتى لمشاهدتها بعد قراءة نصها وقد ألمنا بأحداثها وعرفنا خاتمته . هو معروف ومفهوم وآمن ثابت لا يتغير ولا يتحول ، قد أودعت فى الكتب والوثائق والمتاحف تفاصيله ، وسهل علينا الانغماس فيه دقائق التاريخ وحيوية الأفلام والروايات والصور التاريخية . اما الحاضر فمجهول العواقب ، متميع المعالم ، لا نكاد نفرق ازاء تعدد جوانبه وانغماسنا فيه بين ما له قيمة دائمة وما هو عرضى زائل .**

**ثالثا : ذلك السخط الملموس دائما عند الكافة على الحاضر . فالحياة فى جوهرها أكثرها شر . غير أن الناس تأبى أن تصدق أن الشر كان دوما طابعها ، وتتوهم أن الحياة فى الحاضر وحده هى التى يغلب الشر والنقائص**

— ٢٠٤ —

عليها • وعلى ذلك فهم يتصورون أن الحياة في الماضي كانت دائما ذات غرض وهدف ، وأن الناس فيه كانوا لا يعرفون مللا أو ضياعا وحيرة ، وإنما كانوا يتحركون ويتصرفون وقد عمرت صدورهم الثقة ، لا كما نتحرك ونتصرف نحن وكأننا نساق الى الذبح • وبالتالي فهم يسبغون على الماضي البريق ، ويجدون الراحة في النظر فيه واستعادة ذكراه ، وينقبون فيه عما يفتقدونه في الحاضر التمس الأجرد •

رابعا : أن جهل الغالبية بالتاريخ يسهل على الناس تزييف الماضي • فلو أننا عدنا الى الماضي بملاساته الحقيقية بعد تقديسه وتفخيمه ، لأصابتنا خيبة أمل عظيمة ، ولو أتيح لنا أن نلتقى بأبطاله والشخصيات التاريخية التي نعجب بها ، لكان الأغلب أن نفجع فيهم • وكلنا يعلم هذه الحقيقة من واقع تجربتنا حين نعود لزيارة بقعة لها في أنفسنا ذكريات سعيدة ، أو حين نلتقى لأول مرة بأديب أو فنان أو سياسي كنا نخاله كاملا • وهل ننسى كيف ظل توفيق الحكيم يحلم بباريس وزهرة العمر ، فلما أراد عبد الناصر أن يكافئه في شيخوخته بتدبير عمل له فيها ، لم يطق أن يمكث بها أكثر من أشهر قلائل ؟ وفي ظني أنه لو كان بوسعنا أن ننبئ هارون الرشيد أو سيف الدولة الحمداني مثلا بأسباب تفضيلنا لعصره على عصرنا ، لظن بنا الخبال ، ولضحك من جهلنا بزمه ، ولرد بأن أسباب تفضيلنا لزمه هي بعينها أسباب كراهيته له •

أما عن الأسباب المتصلة بعصرنا خاصة فمنها :

أولا : أنه بالرغم من أن المستقبل كان دوما غامضا بالنسبة لأبناء أي عصر ، فهو بالنسبة لأبناء زماننا ، وبالرغم من كتب الفين توفار وأمثاله ، أكثر غموضا وأحلك ظلمة ، في حين أضحت دواعي عدم الاطمئنان اليه أقوى مما كانت عليه في أي وقت مضى ، وذلك بسبب انتشار الأساحة

النووية ، واطار نشوب حرب عالمية ثالثة مدمرة ، وتلوث البيئة ، وتآكل مصادر الثروات الطبيعية والطاقة ، واضطراب أسس الاقتصاد العالمى .

ثانيا : ما ساد شعوب المجتمعات الحديثة فى معظم انحاء العالم من شعور بأن عملية التحديث لم تحل الجانب الأكبر من مشكلات البشرية ، بل وتسببت فى خلق مشكلات جديدة ، كتلوث البيئة ، وانهيار القيم ، وتفاقم الأمراض النفسية ، وانتشار تعاطى المخدرات بين الشباب ، واللجوء الى الجريمة وأعمال العنف ، الى آخره . فثمة اذن خيبة أمل فى فكرة التقدم والتحسين المستمر التى ازدهرت فى أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، وتضاءلت الثقة فيما يخبئه الغد لنا ، وفى قدرة العلم على استئصال ما تعانى به البشرية من شرور . قد يكون أهل القرن التاسع عشر أكبر شغفا منا بدراسة التاريخ ، غير أنه من المؤكد أن شكوكنا بصدد المستقبل اعظم واطغر . وقد فقدت الحداثة ذاتها ما كان لها فى أعيننا من سحر وروعة ، وبات الناس يتطلعون الى الفرار منها بالعودة بذاكرتهم الى الماضى ، بعد أن تفاقمت ثورتهم على الحاضر واستفحل نفورهم منه .

ثالثا : إنه مما ساعد على تغذية مشاعر الحنين الى الماضى تزايد معدل سرعة التغيرات فى عصرنا ، وضخامة هذه التغيرات ، وما يحدث من ثورات كبرى تنقل مجتمعاتنا فى زمن قصير من وضع الى وضع مغاير تماما ، خاصة منذ الثورة الفرنسية . وهو أمر من شأنه أن يجعل الماضى القريب يبدو وكأنه ماض بعيد ، ويفسر ما سبق أن ذكرناه عن اتساع نطاق الماضى بحيث بات الناس يحنون الى فترة ما قبل ثلاثين عاما أو أربعين عاما حينهم الى العصور السحيقة .

رابعا : ما حدث ويحدث منذ الثورة الفرنسية الى اليوم من انهيار وتبدد للمفاهيم القديمة المتوارثة عن الحياة وقدر الانسان والمرأة والأخلاق

## - ٢٠٦ -

والقوانين والمجتمع ، وعن الله والدين ومقتضيات السلوك ، وتآكل التقاليد والأنماط المعيشية والعلاقات الاجتماعية المألوفة ، وكلها كانت من عوامل ثبات نظرة الانسان الى الكون والحياة والعالم حوله ، والى كيانه وجيرانه ، وتحفظ عليه أمله وثقته فى المستقبل .

**خامسا :** وهو سبب تختص به مصر ، ويتصل بما شاع بين شبابها ومثقفها ومفكرها من خيبة أمل وفقدان الثقة فى مختلف الحلول والمذاهب والأيدىولوجيات التى جربتها مصر واحسده اثر أخرى على مدى قرن من الزمان ، مع حماس زائد فى كل حالة ، واستعداد للتضحية بالنفس فى سبيلها ، وإيمان مطلق بفاعليتها ، وتهليل وتمجيد لقادتها ، واحتمال السجن والنفى والتشريد والتعذيب من أجل محاولة تطبيقها ، حتى اذا ما طبقت ، لم ينجم عنها غير شيوع الفساد ، والدمار الاقتصادى ، وانهايار القيم والأخلاق ، والهزائم العسكرية ، وقمع الديمقراطية والحريات ، وتفاقم المشكلات الاجتماعية ٠٠٠ قد جربنا الليبرالية والحكم العسكرى ، والديموقراطية والفاشية ، وتعدد الأحزاب ونظام الحزب الواحد ، والرأسمالية والاشتراكية والانفتاح الاقتصادى ، والسير فى ركاب الغرب والسير فى ركاب الشرق ، والقومية المصرية والوحدة العربية والانتماء الافريقى ، ومساندة الأنظمة التقدمية ( كنظام السلال فى اليمن ) ومساندة الأنظمة الرجعية ( كنظام النميرى فى السودان ) وناديننا بكافة الشعارات ، وتلوننا أجهزة اعلامنا بألف لون ، وقلب الكتاب والصحافيون معاطفهم ألف مرة ، ورقعوها بألف رقعة ، وتغنينا بمدح الحكام ثم بهجائهم ، وأقمنا لهم التماثيل ثم حطمانها بعد وفاتهم ، وسمينا الشوارع والميادين بأسمائهم ثم غيرناها ، وحاربنا اسرائيل ثم صالحناها ، وهللنا لثورة القذافى ثم لعناها ، واتحدنا مع سوريا ثم خاصمناها ، وسببنا السعودية ثم تلقينا المساعدات منها ثم هاجمناها ، وقاومنا النفوذ الأمريكى ثم استسلمنا له ، وأبرمنا

معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتى ثم مزقناها . .

فما الذى بقى لنا مما لم نجربه بعد ؟ ما الذى بقى لنا غير الاستغراق  
بكائيتنا فى ماض قد استأصلنا من معالنه كل ما هو مؤلم مزعج ، وأبقينا منها  
على كل ما هو مشرق مبهج ؟ .

### عبادة الأسلاف

فاما الجماعات الاسلامية فقد اختارت الماضى البعيد ، عصر النبوة  
والخلفاء الراشدين والسلف الصالح . وقد لجأ أفرادها الى ارتداء الجلابيب  
واطلاق اللحي وفضلوا الجلوس على الأرض عند تناول الطعام كخطوة أولى  
فى سبيل العودة الى العصر الذهبى . وثمة أمران يدفعان الغالبية العظمى  
من هؤلاء الى الاستغراق فى الحنين الى الماضى ، كلاهما يتمثلان فى عجز :  
العجز عن تبوء مكان يرضون به فى اطار النظام الاجتماعى والاقتصادى  
السائد ، والعجز عن موااة تعاليم الاسلام مع معالم العصر الحديث وعن  
اقامة الجسور النفسانية مع المجتمعات غير الاسلامية الأكثر مرونة وتحركا .  
فهنا ثورة على الحداثة ، وتنفيس مرضى عن مشاعر العقم والقهر ، وتفضيل  
واختيار مؤسف للهروب الى الماضى على بذل الجهود الشاقة من أجل التأقلم  
والتكيف والتغيير . وهنا حضارة مهزومة اطلت برأسها هنيهة من فوقعتها  
فى محاولة للحاق بالعصر الحديث ، ثم اذا بها عند أول صدمة ترتد بسرعة  
الى القوقعة مفضلة البقاء فيها الى أبد الآبدين على مواجهة المصاعب والصدمات  
والتحديات ، ومحاولة ايهاام نفسها وايهاام الغير بأن هذا التفضيل من جانبها  
للقوقعة ناجم عن كراهة لمظاهر الحضارة الحديثة ، وعن تعلق بـماض مجيد .  
وعن التزام بتعاليم دين هو من هذا العجز والجبن برى .

واما حزب الوفد الجديد فقصده اختار العهد السابق على ثورة عام  
١٩٥٢ ، واستغل ظاهرة الحنين الى الماضى فى جمع الأنصار والمتعاطفين ممن

## - ٢٠٨ -

ارتبطت في أذهانهم - لسبب غير واضح أو مفهوم - كل « خيارات الماضي ومباهجه » بحزب الوفد ، وكأنما هو الذى كان مسئولا قبل الثورة عن توفيرها ، وعن تميز العلاقات الاجتماعية بمشاعر التآخي والتراحم ، وعن الاحساس بالأمن والطمأنينة ، وعن غيبة التوتر والضغط العصبية ، وعن صفاء زرقة السماء ، وكأنما هو الذى صمم راية مصر الخضراء ، وأنتج الأفلام القديمة ، وكتب سيناريوهات على الكسار ، ووضع الألحان لأغاني سيد درويش وفرقة الموسيقى العربية ، ثم لكانما بوسعه - متى تولى الحكم - أن يعيد كل شيء الى ما كان عليه قبل أن تفسده حكومة الثورة . حتى سيجار الباشا زعيم الوفد نفسه أصبح رمزا من رموز الماضي محببا الى النفوس !



من المؤكد اذن أن الشعوب تلجأ وقت المحن والأزمات الى إيجاد صلة بماض هو فى زعمهم « مجيد » ، أو - على الأقل - « آمن هادئ مستقر » . ولا ننكر أن الانغماس فى الماضي يخفف من حدة الضغط العصبى ( كما يخفف اخفاء النعامة لرأسها فى الرمال من حدة توترها ) ، ويلهى - كما تلهى المخدرات متعاطيها - عن الواقع ، ويريحنا ولو لساعات من التفكير فى حاضر دائب التغير ولا شكل له ، وفى مستقبل لا نطمئن الى الصورة التى سيكون عليها . غير أنه من المؤكد أيضا - فى رأيي - أن ظاهرة الحنين الى الماضي تنطوى على مخاطر هائلة أخفها الميل الى تزييف التاريخ ، وانعدام الأمانة فى تسجيل أحداثه أو تخيلها ، واتخاذ موقف من شخصياته هو أشبه شيء بعبادة الأسلاف التى عرفها أهل العصور السحيقة ، والى الغضب والثورة على كل من تسول له نفسه أن يصور الماضى والأسلاف صورة واقعية لا رتوش فيها . أما الخطر الأعظم فيمكن فى أن الاستغراق فى الماضى والحنين اليه يشل من قدرتنا على مواجهة الحياة المعاصرة ، والتصدى

لمشكلاتها بمحاولة جادة نشطة لإيجاد الحلول ، والاعداد للمستقبل ، ويعطل  
من امكانية الخلق والابداع .

ان الحاضر هو الزمن الوحيد الذى نملك أن نعيش فيه ، ولا بد  
للواقع من أن يفرض نفسه فى وقت ما على من شاء مواجهته ومن لم يشأ .  
وانما تتحقق المأساة وتقع الصدمة حين يتبدد الوهم ، ويزول تأثير المخدر  
بالافاقه . كذلك فانه لن يكون بوسعنا اصلاح الواقع الا متى أدركنا زيف  
تقديس الماضى الميت ومثاله وأفكاره ، ومتى فهمنا أن تقديس الماضى لمجرد  
أنه ماضى ينطوى على جهل ، وأنه أشبه بالسراب الذى لا يعكس غير أوهامنا  
وأحلام يقظتنا ، ومتى تصدينا لفضح استغلال بعض الأحزاب والجماعات  
للتعطش الزائد اليه ، وتصدى المفكرون منا لبيان الجوانب الايجابية فى  
الحاضر والعصر الحديث مما لم يكن القدماء ليحلموا ببلوغه وتحقيقه .

\* \* \*

لقد باتت مصر اليوم أشبه شئ برجل يتدافعه أشخاص كما يتدافعون  
كرة القدم : ثمة من يدفعه دفعا عنيفا الى الامام ، وثمة من يعترض طريقه  
ويرده ردا غليظا الى الخلف ، وثالث يميل به الى يسار ، ورابع يعود به الى  
يمين . وكافتهم تتجاهل كونه كيانا قائما بذاته ، وتابى الاعتراف بأنه قد  
يكون له توجهاته وأهدافه الخاصة به ، وإرادته المستقلة عن إرادتهم  
جميعا .





## حديث في الطائرة مع أستاذ يهودي عن الخمينية والصهيونية

في الطائرة من لندن الى ريو دو جانيرو ، كان مجلسي بجانب رجل  
أوروبي في نحو الخمسين ، ذي لحية كثرة قد غلب عليها الشيب ، واذا خرجت  
من حقيبتي كتابا وشرعت أقرأ فيه ، شعرت بأن جاري يردد الى الكتاب بصره  
وقد غلب عليه حب الاستطلاع . ثم اذا به يبادرني بقوله :

— كتابك يبدو مألوفاً لدى . هل لي أن أسأل عن عنوانه ؟ .

أريته الغلاف . غير أنني قبل أن أنطق باسم المؤلف وبترجمة للعنوان  
العربي للكتاب ، سمعته يهتف في سرور :

— آه ! « رسالة الاعتقادات الامامية لابن بابويه » ! ذاك ما ظننته .

والتفت أرقبه في دهشة ، فأريته يبتسم لدهشتي .

— لقد قمت بترجمة هذه الرسالة الى الألمانية منذ سبع سنوات .

ثم شرع يعرفني بنفسه : ر . ل . أستاذ الدراسات الاسلامية باحدى  
جامعات ألمانيا الاتحادية .

— يهودي أنت ؟ .

هز رأسه بالإيجاب وقد اتسعت ابتسامته .

— وقد قابلت الامام الخميني مرتين وهو بمنفاه في فرنسا قبل عودته

الى إيران .

— وحادثته ؟ .

- ٢١٢ -

- بالتأكيد . سافرت من ألمانيا الى باريس بقصد محادثته والتعرف على أهداف الثورة التي يدعو اليها .  
- هل لى أن أسالك عما دار بينكما من حديث ؟

- حدثنى عن تاريخ علاقات العالم الاسلامى بأوروبا ، وعن دور الاستعمار الأوروبى وأذنا به فى زعزعة ثقة المسلمين بأنفسهم وبدينهم وتقاليدهم وأنماط عيشهم . ثم تكلم عن الحاجة الى ثورة فى جميع أرجاء دار الاسلام تقف حائلا دون المزيد من التغلغل الحضارى الغربى . قال انه يدعو الى عودة المسلمين الى شريعة الله وعزل دولتهم ( هكذا قال ، «دولتهم» ) لسنوات طويلة مقبلة حتى تجتث كافة التأثيرات الأجنبية منها اجتثاثا ويقام مجتمع اسلامى محض على دعائم من التقاليد والقيم والمفاهيم التى أرساها النبى والأئمة والسلف الصالح ، دون الاقتباس من شرق أو من غرب .

- وناقشته فى رأيه أم اقتصر الأمر منك على الاستماع ؟  
- لست ممن يقتصر على الاستماع . بالعكس ، كان حديثى اليه أطول من حديثه الى .

- فبماذا أجبته ؟  
- أجبته بأنه وأمثاله من قادة الحركات الاسلامية المتطرفة يقعون فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الصهاينة من قبل .

وساد صمت قصير اتسعت خلاله ابتسامة الأستاذ اليهودى أكثر من ذى قبل . ثم عاد يقول :

- قلت له ان سياسة العزلة القومية والتقوقع التى يدعو اليها ويدعو اليها الصهاينة ان كانت فى أية فترة فى الماضى قد أسفرت عن نتائج ايجابية طيبة ، فقد أضحت غير واقعية وغير عملية فى عصرنا هذا الذى

- ٢١٣ -

شهد تداخل العلاقات الدولية واتساع نطاق التكنولوجيا والصناعة والتجارة . . . . . لقد انقضت أيام داريوس وأيام سليمان ، وانقضت تجارة القوافل التى كانت وراء مجد سليمان ، وصرنا الى عصر جديد بتنا ازاءه فى حاجة الى مفاهيم جديدة ، ومواقف جديدة ، وفكر جديد .

ما الذى تعنيه دعوة الصهيونية ودعوة الحمينى غير الاصرار على العودة الى موقف قبل عنيد متعجرف ؟ الاثنان على حق فى اشارتيهما الى ما عاناه كل من اليهود والمسلمين من مظالم على يد الغير . غير أن أى رد فعل ناجم عن عقدة اضطهاد ، أو رغبة فى انتقام ، هو رد فعل غير صحى وغير سليم ، وسيكون صاحبه ، على حد تعبير المثل العربى ، كطاعن نفسه ليقتل من خلفه .

هو موقف لن يعنى غير التخريب .

يجرى منطق الصهاينة على النحو التالى : « لقد حقق افراد الامة اليهودية انجازات رائعة فى ميادين الفكر والفن والعلوم وغيرها أثناء عيشهم فى ظل ظروف صعبة للغاية ، مشتتين فى الدول الأوروبية ، بين اقوام يخالفونهم فى العقيدة ، ويسومونهم صنوف الاضطهاد والعذاب . فما بالك بالانجازات التى يمكنهم تحقيقها لو أنه أتيح لهم أن يعيشوا فى أمن وهدوء ورخاء داخل دولة يهودية خاصة بهم وحدهم ؟ » اليس هذا منطقهم ؟ غير أنى لا أرى ما يرون . فاحوال العالم قد تغيرت . والانجازات الفكرية أو العلمية أو الفنية الرائعة التى حققها افراد ناهيون من اليهود أثناء شتاتهم فى أوروبا لا أرى فيها دلالة قاطعة على ما ستحققه أمة اليهود فى دولة خاصة بهم ، ولا أحسبها ستتكرر بالضرورة لو أنهم تجمعوا داخل حدود الأرض المقدسة .

نعم قد ساهم اليهود اسهاما جليلا وضخما فى الحياة العقلية والبحوث العلمية الأوروبية ، خاصة فى العلوم الحديثة ، ولا أنكر أن نسبة العلماء اليهود الى علماء الغرب غير اليهود أعلى بكثير من نسبة عدد اليهود الى عدد المسيحيين فى أوروبا ، غير أن ارجاع الصهيونيين وبعض اليهود ( بل وبعض المسيحيين ) هذه الظاهرة الى مميزات فريدة تميز هذه الأمة ، الى طبيعة تكوين أفرادها وما يتمتعون به من مواهب وقدرات أو ذكاء لا يتمتع به غيرهم ، هو فى رأى المتواضع اما تفسير ساذج ، أو تفسير خبيث !

ان روعة دور اليهود فى الحضارة الغربية لا ترجع الى مواهب خارقة مقصورة عليهم ، نعم هناك الكثير من الخصائص التى تميز مزاجهم وطباعهم واخلاقهم وسلوكهم عن غيرهم من البشر ، غير أن أى بحث موضوعى غير متحيز فى علم السلالات سيوضح لنا على الفور أن الدم اليهودى لم يكن فى أى وقت من الاوقات دما يهوديا خالصا ، وانهم كانوا دائما ، وعبر القرون ، ورغم حرصهم التقليدى على نقاء الدم ، يتزاوجون من غير اليهود فى أوروبا والعالم الاسلامى بنسبة كبيرة ، ولا شك عندى فى أن أمتهم قد استفادت فائدة كبرى من هذا التزاوج والاختلاط ، ومن الحياة بين شعوب وأمم غير امتهم ، فان شئت دليلا على ذلك فانظر الى آية قائمة من أسماء مشاهير اليهود فى أى عصر من عصور التاريخ الأوروبى ، ومن أسهموا اسهاما بارزا فى الحضارة الغربية ، وستجد نسبة ضخمة منهم من أولئك الذين اختلط بالدم اليهودى فيهم دم غير يهودى .

ما أريد الوصول اليه هو أن ما يسمى بالانجازات اليهودية العظيمة انما ظهرت داخل مجتمعات من غير اليهود ، وحققها يهود قد استوعبوا وتشربوا ونهلوا نهلا من مظاهر الحضارة فى تلك المجتمعات غير اليهودية ، لا اليهود الوافدون اليها من خارجها ، ولا جماعات اليهود فيها التى اختارت

اغلاق الأبواب على نفسها وقصر الاحتكاك والاختلاط بغيرهم على أضيق نطاق . . . . . والنتيجة التى نخرج بها من كل هذا هو أن تحرر اليهودى الموهوب من قيود بيئته الدينية وتقاليده الثقافية والحضارية وكل ما كان ناسجا صرفا لعقلية أمته ، ثم انتهاجه بعد ذلك سبيل البحث العلمى الذى هو أغلى ثمرة قدمتها الحضارة الغربية للإنسانية ، وتنميته قدرته على الاستفادة من المظاهر الايجابية لتلك الحضارة فى ميادين العلم والمعرفة ، هى الشروط الأساسية التى لا غنى عنها حتى يصبح ذلك اليهودى رائدا خلاقا فى الحياة الفكرية ، وعلما بارزا فى المجالات العلمية .

سألنى الحمينى عندئذ ساخرا عما اذا كنت أعلنى بذلك أن فقدان الولاء للأمة والدين شرط للريادة والاسهام فى حضارة البشر . فأجبتة بالنفى . وقلت ان ما عنيت من حديدى هو أن الشرط الأساسى فى أية اضافة بناءة الى العلم الحديث أو الى أى مجال من مجالات المعرفة يمكن لها أن تحقق نتائج باقية على مر العصور ، هو العقل المتشكك الذى يرفض الرضوخ للأفكار المسبقة ، ويأبى الا التحرر من المعرفة القطعية التقليدية ، ويرفض أن تمتد الى عنقه يد الماضى المينة لتمسك بخناق .

ثم أضفت قولى انى أعتقد بكل اخلاص أن المثقفين الموهوبين من المسامحين واليهود على سواء أقدر من الأوروبيين والأمريكيين على الخروج باسهامات جليلة فى الفكر الانسانى متى ما تركوا مخبأهم أو مكانهم الآمن فى ظل تقاليدهم الجامدة التى ولدوا ونشأوا فى ظلها ، وتحرروا من القيود الخليطة التى تكبهم ، شريطة الا يتبنوا تقاليد غيرهم ، والا يستبدلوا بقيودهم قيود الشعوب القسوية الغنية حولهم . . . . . انه أمر فى حاجة الى شجاعة خارقة ، وإلى قوة ليست من نصيب الكثرين ، وإلى استعداد فريد لحدى المجتمع بأسره . . . . . مثل هذا الشخص المنقف الموهوب ، مسلما كان

أو يهوديا ، هو بالضرورة المعكر لصفو السلام العقلى والراحة الذهنية  
لأمته ١٠٠ هو عدوها وزعيمها فى آن واحد . وهو وحده الذى بوسعه أن  
يقودها الى الخير . هو يرى الكثير من معارف أسلافه وتقاليدهم غير مناسب  
للعصر الذى يعيش فيه ، ويرى الكثير من تقاليده أوعية قد ختم عليها  
« تم صنعها قبل الميلاد ! » أو « تم صنعها فى العصور الوسطى ! » .  
أوعية لا تشبه فى كثير أو قليل ما يحتاج الناس اليه فى عصرنا هذا وما  
يبحثون عنه من أجل حل المشكلات الخاصة بزمانهم . . . أوعية فخارية وضعت  
وسط أوان من حديد ، ولا مفر من إصابتها بالكسر لدى أدنى احتكاك  
أو صدام .

المثقف المسلم أو اليهودى لابد واجد الأطر الذهنية التقليدية التى  
ورثها عن الأسلاف غير مناسبة للعصر . غير أن هذا لا يعنى أنه سيتقبل  
الاطر الذهنية التقليدية فى الدول المتقدمة حوله ، أو عادات شعوبها ووجهات  
نظرها . . . لقد حطم أوثان قومه كى يحرر نفسه من ربة العبودية ، لا ليكبل  
يديه من جديد بعبادة أوثان أقوام أجنب . وهذا هو بالضبط سر النجاح  
الغريب الذى نراه ونقرأ أو نسمع عنه لأفراد من المصريين أو الإيرانيين أو  
العرب ممن يعيشون فى أوروبا أو الولايات المتحدة . . . علماء ومهندسون  
وأطباء وفنانون بارزون حققوا ما لم يكونوا يحلمون أو يحلم غيرهم بقدرتهم  
على تحقيقه وهم فى بلادهم . . . لا أريدك أن تظن ، كما يظن الكثيرون ، أن  
السبب فى هذا راجع الى فقر الموارد ، أو ضعف التشجيع ، أو ضالة  
المرتبات ، أو تخلف المجتمع ، أو عدم توفر الأجهزة العلمية فى بلادهم .  
قد يكون لكل هذا بعض التأثير . غير أن السبب الجوهرى فى رأى هو تلك  
الجرأة المكتسبة على الشك ، الجرأة على الفكر الحر ، والجرأة على تبني المفاهيم  
الأساسية لسبل البحث العلمى .

لقد برز هذا المصرى أو اليهودى أو الايرانى أو العربى فى الخارج  
لا لانه قد أصبح « خواجه » وتنكر لقومه أو دينه . فالرحالة قد يرى أثناء  
رحلته فى اقطار اجنبية أمورا غريبة كثيرة ، ولكننا لن نراه بالضرورة يسجد  
لكل اله اجنبى يصادفه على قارعة الطريق . وانما برز هذا أو ذاك لانه أدرك  
ان العزلة ضارة ، وان فكرة الوطن القومى خرافة ، وان أية أمة تتفوق على  
نفسها وترى السلامة فى العزلة عن غيرها . لا يمكن ان تقدم فى أى وقت  
من الاوقات اسهاما ذا قيمة فى الفكر البشرى ، أو فى العلوم والفنون .

لقد خرج الموهوبون من اليهود بما خرجوا به ، أثناء حياتهم مع  
غيرهم ، وبفضل صلاتهم بهم ، واستيماهم للجوانب الايجابية من حضارة  
هذا الغير دون ان يضعف هذا من تمسكهم بدينهم . ويخرج وسيخرج  
الموهوبون من المسلمين بما يخرجون به لهذه الاسباب نفسها ، وفى هذه  
الظروف نفسها .

ذلك ما ذكرته للخمينى أثناء لقائى به .

والواضح انه لم يقتنع .





## قضاة الشرع

من الظواهر التي لم يولها مؤرخونا وعلماء الدين عندنا الاهتمام الواجب ، ولا حاول أحد من قبل أن يفسرها أو أن يدرس عواقبها ، ظاهرة شاعت في العالم الاسلامي منذ أوائل العصر العباسي ، وهي عزوف الأتقياء من الفقهاء عن تولي منصب القضاء ، والجاوس للحكم بين الناس لتطبيق الشريعة الاسلامية ، واستنادهم ، من أجل تبرير موقفهم ، الى احاديث منسوبة الى النبي عليه الصلاة والسلام تنفر من تولي هذا المنصب ، مثل : « يجاء بالقاضي العدل يوم القيامة ، فيلقى من شدة الحساب ما يود ان لم يكن قضي بين اثنين » ، و « من جعل قاضيا فكانما ذبح بغير سكين » .

وقد حفلت كتب الأقدمين بمئات القصص عن كراهة صالحى الفقهاء للقضاء . فقد روى عن ابي حنيفة مثلا انه فضل الابتلاء بالضرب والحبس حتى الموت على قبول دعوة الخليفة المنصور له بتولى منصب القاضي . كما روى عن ابي قلابه انه لما دعى للقضاء ، هرب من العراق حتى اتى الشام ، فوافق ذلك عزل قاضيه ، فهرب واختفى حتى اتى بلاد اليمامة . ودعى سفيان الثوري الى القضاء فهرب الى البصرة حتى مات وهو متوار . ويحكى انه لما تولى عبد الرحمن بن حنيفة قضاء مصر ، هتف أبوه قائلا : « انا لله وانا اليه راجعون ، هلك الرجل ! » . كذلك قيل انه لما تولى اسماعيل بن اسحاق القضاء ، وكان من علماء أهل الدنيا ومن سادة الفضلاء وعقلائهم ، هجره صديقه ابن ابي الورد قائلا له : « يا اسماعيل ، علم أجلسك هذا المجلس كان الجهل خيرا منه ! » . ففطى اسماعيل وجهه بردائه وأجهش

بالبكاء . وكانت الصوفية تسمى من قبلوا من الفقهاء منصب القاضى  
« عاماء الدنيا » ، وتقول : « يحشر العلماء فى زمرة الأنبياء » ، والقضاة فى  
زمرة السلاطين » .

### السبب

وتكمن غرابة هذه الظاهرة فى أنه وقد أعلن الخلفاء العباسيون  
الأوائل عن نيّتهم تطبيق الشريعة الاسلامية ، كان المتوقع من فضلاء الفقهاء ،  
والأولى بهم ، أن يقبلوا على تولى منصب القضاء من أجل ضمان تنفيذ شرع  
الله ، واخضاع أحوال الأمة لأحكامه ، لا أن يتهربوا منه وأن يرفضوه  
ولو أدى رفضهم الى جلدتهم وحبسهم . فلو أن فريقا من الاقتصاديين مثلا ،  
فى عصرنا هذا ، طلع بأراء معينة وخطط محددة لاصلاح المسار الاقتصادى  
للدولة ، واكدوا أن من شأن هذه الخطط وحدها أن تنقذ البلاد من ورطتها  
الاقتصادية ، ثم دعاهم رئيس الدولة الى تولى مقاليد الأمور من أجل تطبيق  
مفاهيمهم واقتراحاتهم ، معطيا اياهم الحرية الكاملة فى اتخاذ القرار ،  
فاعتذروا أو هربوا أو فضلوا السجن والتعذيب على تطبيق ما اقترحوه  
ودعوا اليه ، لهدا تصرفهم هذا غريبا مستهجنا ، ولكن للناس العذر ان  
هم شكوا فى جديتهم وحقيقة بواعثهم ، وفى قابلية مشروعاتهم للتطبيق  
العملى .

غير أنه ما دام الشك لا يخامرنا نحن فى حقيقة ورع أولئك الفقهاء  
الذين أبوا تولى منصب القضاء ، فما السبب اذن فى ذلك العزوف منهم  
عن الاشراف بأنفسهم على تطبيق أحكام الشريعة ؟

مثل هذا العزوف القوي عن تولى منصب القاضى لم يكن معروفا فى  
عهد الخلفاء الراشدين حين كانت أحوال المجتمع الاسلامى لا تختلف اختلافا

عظيما عن أحواله وقت الرسول . ولا هو كان معروفا في العصر الأموي حين كان قضاة الأمصار يفصاؤون في القضايا وفق اجتهادهم ورأيهم الشخصي ، ويستعينون في قضائهم بالمفاهيم القانونية الرومانية والساسانية ، ويطبقون العرف الشائع والشرائع المحلية مهما اختلفت من اقليم لاقليم ، وحين كان أمر تطبيق الأحكام القرآنية ذاتها متروكا للقاضي ، يأخذ بها أو لا يأخذ في حدود علمه بها ، وعلى قدر تقواه .

لم تكن ثمة معضلة اذن تواجه القاضي التقى قبل زمن العباسيين . فهو في ظل الخلافة الراشدة لا يرى ما يطبقه شديد المخالفة لأحوال العصر ، وهو في ظل الخلافة الأموية واسع الحرية في الحكم بما يناسب ظروف الزمان والمكان . أما وقد جاء الخلفاء العباسيون يزعمون أنه ما من غرض يستهدفونه غير اقرار دعائم حكم يرضاه الله وعلى أساس من شريعته وسنة نبيه ، فقد وقع الفقهاء الأتقياء في ورطة عظيمة فضلوا ازاءها رفض المنصب الذي يلزمهم بتطبيق أحكام الشريعة ، وهو منصب القضاء . كانوا في قرارة أنفسهم يدركون تغير طبيعة الظروف المعيشية وأحوال الناس عنها في زمن النبي والخلفاء الراشدين . وكانوا بعقولهم الراجحة وبحكم سعة ثقافتهم يعلمون حق العلم أن القوانين كائن حي ، تسن وتتطور ، وتنسخ ويستبدل بها غيرها ، على ضوء الاحتياجات المتطورة ، وتغير العلاقات وأساليب الانتاج في المجتمع الذي تنظمه وتحكمه . غير انهم كانوا في نفس الوقت ، على درجة كبيرة من الورع والتقوى ، ليس بوسعهم الاحجام عن تطبيق ما قضت به الشريعة ، ولا المخالفة الصريحة لما جرى عليه عمل السلف . فهم موزعون اذن بين الرغبة في العدل الذي لا يمكن أن يتحقق الا بمراعاة ظروف العصر واحتياجاته ، وبين الخشية من الخروج على أحكام الشريعة . وقد كان هذا الخوف من المسؤولية ، في رأي ،

هو السبب في عزوفهم عن النهوض بالمسئولية . فكان أن رفضوا قبول الحكم بين الناس ، وآثروا الهرب والاختفاء والحبس والجلد على قبول المنصب ، ورددوا من الأحاديث المنسوبة الى النبي ما يبرر هذا التنصل من المسئولية .

### العواقب

وكانت اولى عواقب هذا الموقف أن شهد العالم الاسلامى انفصاما كاملا بين الفقه والواقع . لقد فضل الفقهاء أن يتركوا المجتمع يدبر اموره كما يهوى ، وانصرفوا عنه الى كتبهم وحلقات دروسهم فى المساجد . يفكرون ويتحدثون ويكتبون عن نظام الهى شامل ، واحكام لا شان لها ولا صلة بالحياة الاجتماعية حولهم ، ولا هى ناجمة عن العلاقات فيها ، ولا كان لديهم وقتها ادنى رغبة فى أن يروها ندخل حيز التنفيذ ، ولا ادنى أمل فى أن يطبق فى وقت ما ما يستنبطونه من احكام . كان املمهم الاوحد هو اكتشاف كنه الارادة الالهية . لا تطبيق الشريعة عملا ، وكانوا يرون فى العزلة والبعد عن السلطان وافراد الرعية السبيل الامثل للتفكير فى هذه الارادة . وكانت النتيجة الحتمية هى ظهور الهوة السحيقة التى تفصل بين دور الفقيه ودور القاضى ، وبين المل العليا وواقع الامور ، وبين الاحكام الشرعية التى اودعوها بطون كتبهم والممارسات القضائية التى كان يمكنها وحدها أن تجعل من الاحكام الشرعية قوة حية متطورة واعية بالاحوال الاجتماعية المتغيرة .

وليس بوسع أحد أن يزعم أن كافة من قبل أن يتولى منصب القضا كان من اراد المل الفقهاء واضمغمهم دينا . ذلك أنه كان منهم من اكره عليه ، وكان منهم من أبى أن يأخذ عنه رزقا أو أن يصيب منه مالا . وكان منهم من أحجم وتردد ثم قبله معتقدا أنه قد يكون بوسعه أن يفيد الأمة بعلمه ، وعدله . غير أن هؤلاء الأفاضل الذين قبلوا منصب القضاء على مضض ،

وتتمكن من نفوسهم الخوف من المسؤولية ومن الوقوع فى خطأ يؤاخذهم الله عليه يوم القيامة ، نهجوا مسلكا أضر ضررا كبيرا بمسار العدالة فى دولة الاسلام .

كان سبيلهم للتوصل من المسؤولية ولالقاء تبعة ما يصدرونه من أحكام على عاتق الغير هو الزام المدعى الذى يقع عليه عبء البينة ، بتقديم شاهدين مسلمين من الرجال ، ( فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ) ، يشهدان على صدق دعواه ، مع اشتراط العدل وحسن السمعة والسلوك فى الشهود . أما الامارات والشواهد والدلائل الاستنتاجية التى قد تعين القاضى على اكتشاف الحقيقة فهى فى العادة غير مقبولة الا ان كانت من القوة بحيث تكاد أن تكون قاطعة . وأما القاضى فهو غير مطالب لا باستجواب الشاهدين ان هو شك فى شهادتهما ، ولا باحلافهما ، ولا بالاستكثار من عدد الشهود حتى يزول عنه الشك ، ولا بأن يزن شهادة المدعى بشهادة المنكر على ضوء غلبة الاحتمالات ، وانما هو مطالب قبل المضى فى نظر القضية بأمرين اثنين لا ثالث لهما : الأول : تحديد المسئول عن اثبات دعواه ، والثانى : التحقق من عدالة الشهود واهليتهم للشهادة . حتى اذا ما فرغ من هذا وذاك اكتفى بالاشراف على مسار القضية ، والاستماع الى الشاهدين ، والى يمين المنكر أو رفضه القسم ، ثم الحكم فى النهاية .

وتدل طبيعة هذه الاجراءات دلالة واضحة على أن المقصود بها انما كان اعفاء القاضى على قدر المستطاع من أية مسئولية مباشرة عن الحكم بما يخالف الشرع . فاليمين وشهادة الشهود ملزمان للقاضى ، ولا يقوم الحكم على أساس غيرهما ، وبذا تكون مسئولية الحكم المنافى للشرع أو غير العادل واقعة على عاتق الخصوم والشهود لا عليه .

ولا شك في أن مفهوم الشريعة عن شهادة الشهود يعكس موقفاً مثالياً لدى فقهاء المسلمين . إذ من ذا بوسعهم أن يضمن أن يكون الشاهد الذي عرف قبل النظر في القضية بطيب الخلق والسلوك ، صادقاً في شهادته في هذه القضية بعينها ؟ كذلك فإنه ليس من المألوف أن ترتكب الجرائم دائماً بحضور شاهدين ذكرين بالغين عدلين مسلمين ، أو رجل وامرأتين . وبوسع المدعى عليه دائماً متى لم يقدم المدعى بيئته مقبولة ، ( كما في حالة استشهاد رجلاً وامرأة واحدة فحسب ) ، أن يحصل على حكم لصالحه متى شهد بالله أن خصمه كاذب ، وهو قسم له دوره الفعال في حسم القضية ، وناجم عن اعتماد مثالي على صدق العاطفة الدينية لدى المدعى عليه .

فاتجاه القضاة اذن الى التنصل من المسؤولية عن الحكم هو المسئول عن الطابع المثالي لاجراءات التقاضى فى الشريعة ، وبالتالى عن افتقارها الى السمة العملية . وهذا الافتقار هو الذى حدا بالولاة والسلطين الى الاستغناء الى حد كبير عن القضاة ، واسناد أمر النظر والفصل فى القضايا الى جهات أخرى متعددة ، مثل المحتسب ( فى الشؤون التجارية ) ، وصاحب الشرطة ( فى القضايا الجنائية ) ، وصاحب المظالم ( فى الأمور التى يهم السلطة السياسية الفصل السريع الفعال فيها ) . وكان هؤلاء يتمتعون بقدر من الحرية لم يعرفه القضاة ، سواء فيما يتعلق بالاجراءات ، أو تقييم شهادة الشهود ، أو الفصل فى المنازعات على أساس أقوى الأدلة المتوفرة . وقد تعرض الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » الى فضل نظر صاحب المظالم على نظر القاضى ، فقال « ان للأول من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ، يكف الخصوم عن التجاحد ، ومنع الظلمة من التغالب » وأنه يستعمل من الشواهد ما لا يستعمله القاضى من أجل معرفة المحق

من المبطل . كما يقول الكندى فى كتاب « ولاية مصر وقضاتها » : « ان احمد بن طولون داوم النظر فى المظالم حتى استغنى الناس عن القاضى ، وحتى كان القاضى ربما نعس فى محله ثم انصرف الى منزله ولم يتقدم اليه احد . ولم يكن فى مصر قاض فى ذلك العهد سبع سنين . فكان كل شئ يرد الى الناظر فى المظالم . وكذلك كان كافور الاخشيدي يجلس للمظالم ، حتى كان القاضى كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للفصل فيها » .

### تطوير الوضع

تبين للسلطين والولاة اذن ان اجراءات التقاضى ، وتلك الخشية المفرطة لدى قضاة الشرع من المسئولية عن اصدار حكم ظالم ، لا تعرق سير العدالة فحسب ، بل وقد تؤدى فى كثير من الاحيان الى اصدار احكام اكثر ظلما . فقد قضى المذهب الحنفى مثلا بان مدة حمل المرأة يمكن ان يمتد الى سنتين ، فى حين قضى المذهب المالكى بإمكان امتدادها الى خمس سنوات ! وقد أدت هذه الآراء النابعة عن خشية مضحكة من اتهام المرأة بالزنا ، الى أن أصبح من حق الارملة التى تنجب طفلا بعد اقل بقليل من عامين من تاريخ وفاة زوجها ، أن تنسب الطفل الى زوجها المتوفى ، وأن ترث بالتالى نصيب الأسد من تركته ، واصبح على المتضررين من هذا الوضع عبء اثبات وقوع الزنا قبل وفاة الزوج ، وتقديم أربعة شهود شهدوا وقوع الزنا ، وهى مهمة تكاد تكون مستحيلة .

كذلك رأى هؤلاء السلطين والولاة ان قضاة الشرع دأبوا على النظر الى الجرائم التى ترتكب ضد الشخص ، من الضرب الى القتل ، باعتبارها جرائم ضد الشخص لا ضد المجتمع بأسره ، وعلى القول بأن من حق الضحية أو أقربائه أن يتظلموا أو الا يتظلموا ، فان تظلموا وأدين الجانى كان لهم أن يختاروا اما العفو عن الجانى ، أو طلب التعميض ( الدية ) ،

أو الحاق نفس الأذى به . واذ رأوا أن مثل هذا الموقف من قضاة الشرع إنما يعكس المفهوم القبلي عن العدالة في زمن كان الكيان القبلي فيه قد انهار واندثر ، لجأوا تدريجاً إلى سن تشريعات جديدة ، ثم أقاموا من أجل تطبيق هذه التشريعات الجديدة محاكم جديدة نأخذ إجراءات مباينة لإجراءات قضاة الشرع ، بحيث أصبحت القوانين وسبل تطبيقها بمرور الوقت علمانية بحتة ، وبصورة صريحة .

\* \* \*

إن الذين ينادون اليوم بالعودة إلى تطبيق أحكام الشريعة ، لا يدركون أبعاد العواقب التي ستنتج عن الأخذ بدعوتهم . وهم يجهلون أو يرفضون أن يصدقوا أن الغالبية العظمى من هذه الأحكام ليست من القرآن ولا من السنة الصحيحة في شيء ، وإنما هي من وضع فقهاء لم يمارسوا الواقع ولم يعيشوه ، قد صاغوها منذ أكثر من ألف عام وهم عاكفون في أبراج عاجية بعيدة عن ممارسات الأمة . وقد بقيت هذه الأحكام المثالية جامدة لسببين : الأول : أنها لم تطبق قط . والثاني : أن التغيرات في المجتمع الإسلامي ظلت حتى مطلع القرن التاسع عشر محدودة وقليلة نسبياً وضيقة النطاق . ثم إذا بالقرنين الماضيين يشهدان من التطورات الهائلة الشاملة ما لا يكاد يكون بوسع القوانين ، حتى في العالم المتحضر ، أن تلاحقها للاهتمام بها في تنظيمها للعلاقات الاجتماعية . وفي رأي أن المطالبة الآن بإزالة الغبار عن قوانين وضعتها منذ أكثر من عشرة قرون أناس فاقدوا الصلة حتى بمجتمعهم هم ، وواقعهم هم ، هي كإصرار شخص يحمل ذكريات سميكة عن طفولته على فتح صندوق يحوى حلة كان يلبسها أبان ذلك العهد ، فما أخرجها وشرع في ارتدائها وادخل ذراعه فيها حتى تمزقت واستحالت في يده نسجاً مهلهلاً .



## المسألة القانونية بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي

[ نص تعقيب لى عل ورقة السيد المستشار طارق البشرى فى نفس الموضوع ، فى ندوة « التراث وتحديات العصر » ، بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٨٤ ] .

قد نجد من الطبيعى أن يذهب علماء الدين الى أن الشرائع السماوية لا دخل للاعتبارات التاريخية فيها ، وأن الأصل فيها أنها صالحة لكل مكان وزمان ، وأن الشريعة التى تصلح لتركيا تصلح للنيجر وبنجلاديش ، والتى تصلح لمصر فى القرن السابع الميلادى تصلح لها فى القرن العشرين . فأحكام الشريعة فى رأى هؤلاء إنما تعبر عن الإرادة الالهية التى تحكم المجتمعات البشرية ، ولا تأثير لهذه المجتمعات فيها . ومن ثم فإنه لا مجال للقول بضرورة تطوير الشريعة على ضوء التطور التاريخى للمجتمع وتغير احتياجاته ، ولا دور للفقهاء فى ارساء قواعد جديدة ، أو موازنة الشريعة مع ظروف هذا المجتمع أو ذاك ، وإنما دوره قاصر على اكتشاف كنه الإرادة الالهية الثابتة غير المتغيرة .

ما نجده مدعاة للعجب ، وغير طبيعى ، هو أن ينبرى بعض القانونيين ، من أمثال السيد المستشار طارق البشرى ، للتشكر لأول قاعدة بديهية فى فقه القانون ، بل ربما لأول جملة تطرق لسماع طالب الحقوق فى أول سننى دراسته ، ألا وهى أن الأصل فى القوانين أنها تسن وتتطور ، وتسنح ويستبدل بها غيرها ، على ضوء الاحتياجات المتطورة ، وتغير

العلاقات واساليب الانتاج فى المجتمع الذى تنظمه وتحكمه ، وأنها بالتالى، وبالضرورة ، تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وأن القوانين والأنظمة التى بوسعها أن تطلق المواهب الخلاقة لأبناء عصر ما ، أو شعب ما ، غير القوانين والأنظمة التى يمكنها أن تطلق المواهب الخلاقة لأبناء عصر آخر ، وشعب آخر .

فان ردوا بأن هذا انما ينطبق على القوانين الوضعية دون الشرائع السماوية ، أجبناهم بأنه حتى فيما يتصل بالشرائع السماوية ، تجد فى مسألة النسخ فى القرآن الكريم ، آيات نسخت آيات ، وأحكام استبدلت بأحكام ، نتيجة لتطور الجماعة الاسلامية خلال ثلاث وعشرين سنة من الدعوة ، فما بالك بالتغيرات التى طرأت على مدى أربعة عشر قرنا ؟ ، ما يضعف من حججهم ، وبأنه ما من شك فى أن بعض الأحكام القرآنية ( كآلاية الثالثة من سورة النساء التى تبيح تعدد الزوجات ) راعى أحوال مجتمع الجاهليين ، وقدر صعوبة فرض أحوال مثالية ، واكتفى بالحد من شروء أوضاع كان من الصعب على الجاهليين قبول استئصالها دفعة واحدة ، وأن بعضها الآخر ، ( كتلك التى تقضى بقطع يند السارق مثلا ) ، كان ناجما عن حقيقة أن الشكل الغالب للملكية فى شبه الجزيرة العربية فى الجاهلية وفى زمن النبى عليه الصلاة والسلام ، هو الملكية المنقولة دون العقارية .

ويؤكد هؤلاء القانونيون ، وهم فى معرض بيان الصلة بين الدين الاسلامى وبين الشريعة الاسلامية ، أن اقضاء الشريعة من شأنه أن يصيب الدين فى بعض أركانه ، ويوهن من عزيمته بوصفه مرجع الشرعية . فان كانوا يبادرون مع ذلك فيضيفون ، وهم يدعون الى الاخذ بأحكام الشريعة ، قولهم : « من دون أن يخل هذا بقابلية التشريع للتطور والتجدد ،

وبقابلية الخصائص الحضارية للأمة للتطور والتجدد أيضا ، معرفين الاجتهاد ، ( وهو مقبول عندهم ) ، بأنه سبيل التفسير المتجدد للنص الثابت على الوقائع المتغيرة ، فانهم لم يشرحوا لنا قط مفهومهم الدقيق الصريح عن العلاقة بين النص الثابت والتطوير المطلوب ، وعن حدود تفاعلها ومعاييرها والسبل العملية لاتاحته . واجدنى دائما بعد القراءة لهؤلاء أو الاستماع اليهم ، عاجزا عن فهم كيفية أو ضرورة ثبات النص مع تفسيره المتجدد لمسيرة الوقائع المتغيرة . وعلى سبيل المثال فانه ما من أحد منهم أجاب اجابة شافية عن سؤالى له : ان اقتضت الأحوال المتجددة والظروف المتغيرة واختلاف أشكال الملكية الغالبة ، الاقلاع عن قطع يد السارق ، فكيف يمكن تفسير النص الثابت على ضوء هذه الأحوال والظروف ، وكيف يكون بوسعنا عند تغيير الحكم أن نصفه بأنه « ثابت » ؟

### شريعة الاسلام وشرائع الفرنجة

غير أن عجبى يشند اذ أسمعههم يقولون انه « لا شبهة فى أن الاسلام كان هو السائد فى ديارنا ، فكرا وثقافة وسياسة ودينا وعقيدة ونظاما ، حتى نهاية القرن الثامن عشر حين بدأ الغزو الاستعمارى الأوروبى ينقض نسج الأمة وانسجامها وأخلاقياتها وكيانها الراسخ ، ليقيم بدلا منها نظما غربية رموا بها شعبنا ، ولم يراعوا عواطفنا وارادتنا وأخلاقنا الوطنية وتقاليدها القومية » . فليسمحوا لى بأن احتفظ لنفسى بما يساورها من شبهة فى هذا الصدد ، أثارتها قراءاتى فى البلوى وابن أبيك الداودارى وابن الفرات والمقرئى وابن تغرى بردى والصيرفى والسخاوى والسيوطى وابن اياس والجبرتى وعشرات غيرهم من المؤرخين المسلمين الذين أحالوا هذه الشبهة عندى الى يقين بأن الاسلام لم يكن ، لا فى مصر ولا فى غيرها ، يسود فكرنا أو ثقافتنا أو سياستنا أو عقيدتنا أو نظامنا ، ولا كان ما يسمى

- ٢٣٠ -

بالشريعة الاسلامية مطبقا فى أى وقت من الاوقات ، عدا زمن النبى  
والخلفاء الراشدين ، قبل الاتجاه فى القرن التاسع عشر الى الاقتباس من  
النظم القانونية الغربية .

ثقافة وفكرا ؟ الذى نعلمه أن المشايخ وفقهاء الاسلام كفروا اختراع  
الطباعة فى حينه باعتباره بدعة ، فظل استخدامها محرما فى أقطار الدولة  
العثمانية حتى أفتى شيخ الاسلام مرغما باجازتها بعد نحو ثلاثة قرون ،  
كانت أوروبا قد أفلحت خلالها - ربما بفضل هذا الاختراع ذاته - فى أن  
تسبق العالم الاسلامى فى مضمار الحضارة ، وظل النهل من الثقافة الاسلامية  
لهذا السبب قاصرا على فئة محدودة للغاية من بين أبناء مجتمعنا .

سياسة ونظاما ؟ انى لأربأ بهؤلاء القانونيين أن يعتقدوا أن حكم  
أمثال أحمد بن طولون والاشييد ، أو الظاهر بيبرس وقلاون والغورى ،  
أو مراد بك وإبراهيم بك ، كان حكما اسلاميا ، ناهيك عن حكم الولاة  
العثمانيين .

أم أن الشريعة الاسلامية كانت مطبقة حتى غزتنا شرائع الفرنجة ؟  
لقد كان السلاطين والولاة أكثر الناس جهلا بها وتبجعا فى نقضها ، وكان  
جل جهود الفقهاء منصرفا الى اختراع الحيل والذرائع التى يتخلصون بها من  
الأحكام الشرعية ، والى كيفية تجنب تطبيق الحدود قدر الامكان ،  
والاستعاضة عنها بالتعزير الذى لم يذكره القرآن ، ولم يعرض له الحديث  
الا قليلا ، مراعين فيه اختلاف مراتب الناس وأقدارهم .

انى لاتفق معهم كل الاتفاق فى أن النظم الوافدة ، ومنها التنظيمات  
القانونية والحقوقية ، التى فرضتها السياسة الأجنبية لدعم سيطرتها على  
مجتمعنا المغزو ، ساهمت فى اجتثاث تقاليد هذا المجتمع وأصوله ومعاييره .  
واتفق معهم فى أن القوانين انما ينبغى أن تنبع من كيان الشعب نفسه

وتطوره التاريخي ، لا مستمدا من جهة أجنبية ونظمها . غير اننى أسألهم  
وما قولهم فى النظم الوافدة من شبه الجزيرة العربية الى مصر مثلاً فى  
القرن السابع الميلادى ، ومنها التنظيمات القانونية والحقوقية التى نراهم  
اليوم يدعوننا الى العودة اليها ؟ أكانت مطابقة لتقاليد الشعب القبطى وأصوله  
ومعاييره وكيانه وتطوره التاريخي ؟ وكيف عسانا أن نتصور موقف هؤلاء  
القانونيين من هذه النظم الوافدة لو أنهم كانوا يعيشون وقت الفتح العربى  
لمصر ؟ وكم من السنين يا ترى يرونها لازمة حتى تصبح النظم الوافدة تراثا  
تتعلق به ، وندعو الى العودة اليه ؟ ألا يمكن بهذا المنطق ومن هذا المنطلق  
أن تصبح القوانين الفرنسية هنا بمضى الوقت من ضروب التراث ؟

### خطة خبيثة أم احكام الضرورة ؟

لقد ذكر المستشار طارق البشرى أنه « يبدو أن هدف تحويل مصر  
الى النظام القانونى الفرنسى قد بيت بلبيل من منتصف الستينات من القرن  
التاسع عشر فى بواكير عهد اسماعيل » ، وصور الأمر على أنه خطة خبيثة  
من أجل التمكين للأجانب من احكام قبضتهم على البلاد ، اتخذت سميت  
التحديث وارساء أسس التقنيات التى تتفق مع احتياجات دولة عصرية .  
ولكن ، اليس من الجائز أن يكون السبب الرئيسى هو أن المشرعين المصريين  
خلال القرنين التاسع عشر والعشرين لم يجدوا فى احكام الشريعة الاسلامية  
من المادة ما يكفى لسن التشريعات الدستورية والادارية والمدنية والجنائية  
والتجارية التى تسد كافة احتياجات العصر الحديث ؟

ان نسبة الاحكام الشرعية المنصوص عليها فى القرآن الكريم ، بل  
وحتى فى الأحاديث النبوية المتفق على صحتها ، هى نسبة ضئيلة جدا الى  
الاحكام التى نحتاج اليها لتنظيم حياتنا المعاصرة . ذلك أنه ليس فى القرآن  
غير نحو ثمانين آية تتعلق بموضوعات قانونية ، كحد السرقة وحد الزنا

وأحكام الوصية والموارث • ومعظم هذه الآيات الثمانين أكتفى بإيراد مبادئ عامة تسمح بتفسيرات وتطبيقات شتى • كذلك اقتصر دور السنة الصحيحة على وضع بضعة أحكام تتصل بالحرب أو شعائر الدين ( كأداة الصلاة ) وعلى ادخال تعديلات ، على أسس دينية ، على العرف الجاهلي الخاص بالأحوال الشخصية ، وفق ما تقتضى به الملابس المتغيرة • وبالتالي فإنه ليس صحيحا القول بأن القرآن والسنة قد شرعا أحكاما تفصيلية محددة لكافة مظاهر حياة المسلمين • والأقرب الى الصواب القول بأن العمل قد استمر فى مجالات عديدة ، أثناء حياة النبي ، بالعرف الذى كان سائدا فى الجاهلية •

### السنهوى والقانون المدنى

ما أجده طريفا حقا هو ما وجهه المستشار طارق البشرى من نقد الى الدكتور عبد الرزاق السنهوى الذى كتب فى منتصف الثلاثينات ، وهو على أهبة اعداد مشروع جديد للقانون المدنى ، يدعو الى تحرير الفقه المصرى من ربة الاحتلال الاجنبى ، ويذهب الى أن من أهم الوسائل لهذا التحرر العناية بالشريعة الاسلامية ، « شريعة الشرق ووحى الهامه ، وعصارة أذهان مفكره ، نبئت فى صحرائه ، وترعرعت فى سهوله ووديانه • • لو وطئت أكنافها ، وعبدت سبلها ، لكان لنا من هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وقضائنا وتشريعنا • • »

ثم ينتهى الدكتور السنهوى بعد هذا المدخل المهيّب من اعداد المشروع الجديد للقانون المدنى ، فاذا به يجىء - كما وصفه طارق البشرى بصدق - والمصدر الغالب فيه هو القانون المقارن ، أما الفقه الاسلامى فان الاهتداء به كان فى اطار جده محدود ، وغلب على القليل مما اختير من الفقه الاسلامى ما كان استبقاء القانون المدنى القديم ( ١٨٨٣ ) من أحكام

- ٢٣٣ -

جد قليلة ، أو ما وجد له مثيل فى التشريعات الغربية الحديثة ، جرمانية أو سنكسونية أو لاتينية !! ويعقب المستشار طارق على هذه المفارقة ساخرا بقوله :

« فدعوة الاستقلال قد تحققت هنا ، لا بحسبانها استقلال الذات عن الغير فقط ، ولكن بحسبانها أيضا استقلالاً عن الذات نفسها ، أو بالأقل ، استقلالاً عن الذات التاريخية التى تشكل واحدا من المكونات الحالة فى النفس الجماعية المعاصرة » .

اذن فقد أخلف الدكتور السنهورى وعده ، ولم يكن صادقا ولا جادا فيما أعلنه من نية . ولكنى أبادر فأسال المستشار طارق عما اذا لم يكن قد دار بخلده تفسيراً لهذا التناقض بين النية والثمرة احتمال هو الأقرب الى الصواب فى رأى ، وهو أن يكون الدكتور السنهورى قد حاول ولم يستطع ، قد كان صادق العزم على توطئة أكناف الشريعة الإسلامية وتعبيد سبلها ، ثم تبين له أن أحكامها المدنية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تمثل غير جزء صغير من قانون مدنى متكامل ، وأن فقه الشريعة ليس على ما ظنه هو نفسه عام ١٩٣٤ ، وما ينسب اليه من تقبل للمعاصرة ، وقابلية للتقنين .

صحيح أن الدكتور السنهورى عاد عام ١٩٥٣ ليتهم الفقه المصرى بالافتقار الى الطابع الشخصى ، وبأنه يكاد يكون تقاييدا محضاً . غير أن أساس هذا الاتهام الصائب فى رأى ليس اهمال فقهاءنا لوعاء الشريعة كما يذهب البعض ، وانما هو استقائهم فقههم من الفقه الفرنسى لا من واقع مجتمعنا . وشتان ما بين الأمرين .

لقد هيئت للعالم الإسلامى خلال نحو اثنى عشر قرنا ( قبل أن يقع فى برائن الفرنجة الذين يلغون عليهم الجانب الأكبر من تبعة ضياع هويتنا

القانونية ) فرصة ارساء دعائم شريعة اسلامية ، وتقنينات على هديها تتفق واحتياجات المجتمع الذى تحكمه . غير أنه لم يفعل . ولا هو تحرك ليقتن . واذ بزغت فى عصرنا الحديث الحاجة الى الثقلين ، صادف المشرعون فراغا قانونيا رهيبا كان لا بد من التعجيل بملئه . ومن المؤكد أن هؤلاء المشرعين قد اخطأوا خطأ فاحشا فى تمكينهم للتشريعات المخالفة لاحتياجات مجتمعنا من التغافل والهيمنة ، وفى تسببهم فى حدوث الازدواجية والانفصام فى نظمنا القانونية . غير أنه من المؤكد أيضا أن دواعى العجلة ، وعظيم الفراغ السائد ، أعمار مخففة مقبولة . فان كان سوء النية من جانب الفرنجة مقطوعا به اذ يعيدون تشكيل مؤسساتنا الفكرية والاجتماعية بما يخدم مصالحهم ، فليس من المقبول أن ننسبه الى رجل كالدكتور السنهورى ، هو من أوسع أبناء أمتنا دراية بشرائع الفرنجة والشريعة الاسلامية واحتياجات الأمة جميعا .

### الاعتبار التاريخي

لقد كان من العيوب اللصيقة بالمفكرين الاسلاميين ، وبمنظرة المسلمين الى دينهم ، اغفال الاعتبار التاريخي ومفهوم التطور ، وانعدام القدرة على استيعابهما والاخذ بهما . ومن مظاهر ذلك أن غالبيتهم تنوهم أن أحكام الشريعة الاسلامية كما وردت فى كتب فقهاء المسلمين بين أيديهم ، هى كما قضى بها القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأنها على الحالة التى تركها الرسول صلى الله عليه وسلم وقت وفاته ، فى حين يدرك أى باحث جاد فى التاريخ الاسلامى أن الشريعة صرح شامخ أقيم معظم طبقاته طبقة طبقة على مدى قرون طويلة ، وبأيدى بشر مثلنا ، وعلى ضوء تطور المجتمعات الاسلامية واحتياجاتها ، وأن الكثير من الأحاديث المتضمنة لأحكام شرعية هو من اختلاق أناس من أقطار شتى ، كان أحد الدوافع الى وضعهم اياها



مسايرة التطور ، أو الظروف الخاصة بقطرهم . فكيف يمكن اذن لآراء فقهاء ، من العراق وأفغانستان والأندلس والشام والحجاز ، مضى عليها ألف عام أو يزيد ، أن ندعها تحدد من حرية أناس في مصر مثلاً ، لهم ما كان لهؤلاء من قدرة على النظر واعمال الفكر ، في التقنين لأنفسهم ، علماً بأن أهل مكة أدري بشعاب مكة ، وأبناء القرن العشرين أدري باحتياجات وظروف القرن العشرين ؟ غير أن البعض يعتقد أن محاولة الاستقلال التي قام السنهوري بها قد أسفرت عن انسلاخنا من ذاتنا التاريخية ، وكان فقه أبى حنيفة الأفغانى ، أو فقه مالك الحجازى ، أو فقه ابن حنبل العراقى ، هو بالضرورة جزء لا يتجزأ من الذات التاريخية المصرية ، ومن المكونات الحاله فى النفس الجماعية المصرية المعاصرة .

### الخلاصة

ان البعض يرى أحكام الشريعة اقدس من أن تعاد صياغتها ، وينسب الى السلف الصالح حكمة خارقة لا يملكها بشر ، ومواهب وقدرة مقصورة عليه دوننا . قد يكون هؤلاء سلفاً صالحاً ، غير أنهم بالقطع لم يخبروا ما خبرناه من احتياجات ومشكلات ، ولم يحيطوا علماً بما احطنا به . هم أناس مثلنا ، ولكن علمنا بالتاريخ ومقتضيات التطور أوسع من علمهم ، وهو ما كانوا سيقرون به لنا لو أنهم بعثوا من قبورهم .

والقوانين والأنظمة ينبغى أن تواكب تقدم العقل البشرى . وكلما نما هذا العقل واضحى أكثر استنارة نتيجة للاكتشافات والحقائق الجديدة ، وجب تطوير الشرائع والأنظمة حتى تسير الزمن . فان لم نطورها وأصررنا على الإبقاء عليها كما كانت ، وعلى أن تحكم مجتمعاتنا القوانين التي حكمت مجتمع أسلافنا الأقدمين ، كنا كالرجل يصر على ارتداء المعطف الذي كان له وهو صلبى .

- ٢٣٦ -

فان نحن سلبنا أى جيل حقه فى أن يستقل عن الجيل الذى سبقه ،  
وفى أن يختار لنفسه القوانين التى يراها تحقق خيره وسعادته ، وأن يغير  
مما تلقاه عن الأسلاف حتى يوافق ظروفه وبيئته ويحل مشكلاته ، فانما  
نفسح بعملنا هذا مجالا للطغيان ، ونمكن للسلف من التحكم فى مصيرنا  
ومقدراتنا •

ورحم الله أبا يزيد البسطامى اذ يقول :

« أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت •  
يقول أمثالنا : حدثنى قلبى عن ربه ، ويقول أمثالكم : حدثنى فلان ، وأين  
هو ؟ قالوا مات • عن فلان • وأين هو ؟ قالوا مات • » •

## من أطاع عصاك فقد عصاك !

ثمة اتجاه فى مصر الآن ، ودعوة يشنتد عودها ، الى استصدار تشريع يقضى بحظر انتاج الخمر واستيرادها وبيعها . والظاهر ان رجال السلطة ومجلس الشعب قد راوا مرة أخرى أنه قد يكون من الحكمة أن يستسلموا لضغط التيار الدينى المتطرف بصدد مطلب هو أهون على أى حال من مطالب أخرى ، كقطع يد السارق أو فرض الجزية على الأقباط . وقد عودنا هؤلاء فى الآونة الأخيرة أن نتوقع منهم إرخاء شمرة مساوية كلما جذبتها تلك الجماعات .

ومع مباركتنا للنية وراء صدور مثل هذا التشريع ، نود أن ننبه الى ضرورة أن تسبقه دراسات عميقة جادة لمواقفه المحتملة . فقد سئم الشعب كثرة ما صدر من تشريعات لم تعط حظها من الدراسة ، ولا كان الهدف من تبنيها غير أن يحظى الداعون اليها بتصفيق الغوغاء . ولا أظن أحدا يرضيه التمعجل بتدشين قرار يبدأ باحتفال مرح صاحب تراقى خلاله الخمر فى نهر النيل ، وينتهى باراقة دماء المفكرين فى الميادين العامة .

ولعل أول ما ننصح السلطة ومجلس الشعب بهجنه قبل استصدار هذا التشريع ، هو ما نجم عن تشريع مماثل فى دول أخرى تبنته ، مثل الولايات المتحدة خلال الأعوام من ١٩٢٠ الى ١٩٣٣ .

### التجربة الأمريكية

ففى ١٦ يناير عام ١٩٢٠ ، صدر قانون أمريكى يحظر صنع الخمر أو بيعها . وقد سبق صدور هذا القانون تعديل فى الدستور عام ١٩١٩ تم .

نتيجة ضغط قوى من جانب دعاة تحريم الخمر ( وغالبيتهم من البروتستانت ) الذين ساءهم تأثير الخمر فى انتاج العمال ، وتبديد الرجال لدخولهم فى الحانات مع حاجة عائلاتهم الى المال ، وتهديد الأمن والنظام من جانب المهاجرين الجدد الى الولايات المتحدة ممن أقبلوا على شرب الخمر نتيجة لبشاعة أحوالهم المعيشية فى الأحياء الفقيرة ، وتفضيياهم قضاء وقت الفراغ فى الحانات على قضائه فى مساكنهم ، واعتبارهم الخمر المتعة الوحيدة فى حياتهم البائسة .

ولم يخطر ببال دعاة تحريم الخمر الارتقاء بالأحوال المعيشية لهؤلاء كحل للمشكلة ، وانما استقر رأيهم على أن الحل يكمن فى حظر انتاج الخمر وبيعها ، والحيلولة بينها وبين مستهلكيها . وقد ناضلوا قرابة نصف قرن من أجل تعديل الدستور كخطوة فى سبيل استصدار تشريع بهذا الحظر ، وهو ما وافق عليه الكونجرس فى يناير عام ١٩١٩ ، على أن يبدأ العمل بالتشريع الجديد بعد عام واحد . وكان من أبرز مؤيدى هذا التشريع السيناتور وارن هاردينج ، السكرى الأعظم ، الذى رأى من الحكمة وهو فى سبيل ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية عن الحزب الجمهورى ( والغالبية العظمى من أعضائه من البروتستانت المؤيدين للحظر ) ، أن يعلن مؤازرته للتشريع . وقد فاز فعلا بالرئاسة عام ١٩٢٠ .

وصدر التشريع رغم معارضة المسيحيين الكاثوليك الذين يستخدمون النبيذ فى بعض طقوسهم الدينية . وقد ظن الكثيرون أن الناس سرعان ما سيألفون هذا الحظر ، خاصة وقد فرضت عقوبة الحبس لمدة ستة أشهر أو غرامة قدرها ألف دولار على كل من يضبط متلبسا بشرب الخمر . غير أن ما حدث كان خلاف ما توقعوه . فقد رأى المجرمون والمهربون ورجال المصاوبات فى صدور هذا التشريع فرصة ذهبية لمضاعفة دخولهم وتبنى

تجارة درت عليهم ملايين الدولارات . وقد أدى الحظر الى أن أصبح موضوع شرب الخمر يشغل تفكير الغالبية العظمى من أفراد الشعب ، حتى من أولئك الذين كانوا يمتقنون الخمر قبل صدور التشريع . فاذ بات شربه الآن محفوفا بالمخاطر زادت الرغبة فيه . واذا بالحانات وقد فتحت أبوابها من جديد ، ولكن تحت اسم جديد ، تقدم فيها الخمر خلسة أو فى فناجين الشاي ، وتأثيرها كميات ضخمة منها عن طريق مهربين قد أبرموا الاتفاقات وقدموا الرشاوى المناسبة الى رجال الشرطة وموظفى الجمارك وغيرهم من المسئولين . وسرعان ما أصبح الاتجار بالخمر أكثر التجارات ربحا فى الولايات المتحدة ، يتحكم فيه رجال عصابات سفاحون من أمتال آل كابونى ، قسموا بينهم الولايات الى مناطق تتبع كل منها عصابة معينة ، فان اعتدت احداها على مجال نفوذ أخرى سويت الخلافات عن طريق الاغتيالات . غير أنها غالبا ما كانت تتعاون بأمانة فيما بينها فى ظل اتحاد يعرف الآن باسم المافيا .

فما انتهت العشرينات حتى وصل عدد الحانات الأمريكية الى أقصى حد وصل اليه فى تاريخ الولايات المتحدة ، وأقبلت الملايين على شرب خمر هو أغلى سعرا وأردأ نوعية مما كانت تشربه قبل الحظر ، بل ان غش الخمر تسبب فى عدد هائل من الوفيات . وقد كان من المحظور على النساء دخول الحانات قبل صدور التشريع . أما بعد صدوره وبعد أن غيرت الحانات اسمها دون أن تغير مشروباتها ، فقد أقبات النسوة على دخولها كى يشربن فيها ما لم يشربنه من قبل . والمقطوع به أن رشوة رجال الشرطة والمسئولين فى الحكومة بلغت ذروتها فى تلك الحقبة ، بل وكان الكثيرون من المرشحين للمناصب الرفيعة يعتمدون على عصابات تهريب الخمر فى تمويل حملاتهم الانتخابية مقابل وعد بغض الطرف عن نشاطها بعد الفوز بالمناصب . وقد تمكن أحد المهربين ، وهو جورج ريموس ، من أن يكون ثروة تقدر بأربعين مليون دولار ، فى حين كان مليونير آخر ، هو بيل هاكوى ، يأتى بالخمر فى

أسطول بحرى من البهاما الى نيويورك ، فترسو السفن خارج المياه الاقليمية ، ويأتى الناس اليها فى قواربهم لشراء الخمر ! أما مفتشو الحكومة الاكفاء الامناء ممن ابوا قبول الرشوة أثناء حملات التفتيش عن الخمر فكثيرا ما انتهى أمرهم بصدور قرارات بفصلهم بتهمة « التقصير فى أداء الواجب » !

فما حل عام ١٩٣٣ ، حتى ساد الأمة اعتراف بالفشل ، وافر الجميع : بأن تشريع حظر انتاج الخمر وبيعه واستيراده قد أدى الى زيادة فى استهلاك الخمر ، وارتفاع فى عدد الجرائم ، وشيوع الفساد والرشوة فى جميع أنحاء البلاد ، بالإضافة الى ما نجم من وفيات واضرار بالصحة العامة نتيجة غش الخمر . وفى ٥ ديسمبر ١٩٣٣ تم إلغاء القانون . غير أن عواقب تلك السنوات لا تزال قائمة الى يومنا هذا ، وتتمثل فى اقبال الشرطة وموظفى الحكومة على التعاون والاتفاق مع رجال العصابات والمجرمين ، وفى شيوع روح الاستخفاف بالقانون التى بدأ ظهورها بين الأمريكين منذ صدور التشريع عام ١٩٢٠ .

### فضيلة الحصيان

وفى اعتقادى ، على ضوء تجارب الماضى القريب الذى شهد شيوع التهريب والجريمة فى مصر نتيجة تطبيق قيود مماثلة ، أنه باستطاعتنا أن نتوقع لمثل هذا التشريع ان صدر عواقب مشابهة لتلك التى شهدتها الولايات المتحدة فى العشرينات . غير أن ثمة أمرا أهم . وهو أن الحيلولة بين الناس وبين الخمر عن طريق التشريع لا يمكن أن نسميه الا بفضيلة الحصيان . وقد سبق لأرنولد توينبى أن ذكر فى كتابه « تحديات هذا العصر » وهو فى معرض الحديث عن الثورة البيولوجية المرتقبة حين تؤدى القدرة على التأثير فى الجينات الى استئصال ميل الانسان الى العدوانية

والشر ، أن مثل هذه الثورة ستنتهى مسئولية الفرد عن أعماله ، وقدرته على  
تحكيم ضميره وعلى الاختيار بين الخير والشر ، فتصبح محاسبة الانسان فى  
الآخرة غير ذات موضوع .

كذلك فان تفضيل علاج موضوع شرب الخمر عن طريق التشريعات  
والقمع والحيلولة بين المرء وبين الحصول عليه ، أمر من شأنه ازالة كل فضل  
لمن آثر طاعة الله سبحانه وتعالى فانصرف عن الخمر من تلقاء ذاته . وحتى  
لو كانت مثل هذه التشريعات مجدية فعالة ، وهو ما نشك فيه ، فقد ترى  
السلطة ومجلس الشعب والجماعات الدينية من الأجدى والأفضل أن تتم  
مكافحة هذا المنكر عن طريق الدعاية المكثفة لبيان أضراره وعواقبه الوخيمة ،  
وسبل الاقناع والدعوة بالمعروف الى الانصراف عنه ، والتركيز على بيان  
مخالفته لحكم القرآن الكريم ، مع ترك الأمر بعد ذلك لضمير الفرد .

وعلى أى الأحوال ، وسواء كان هذا رأى منى صحيحا أو فاسدا ،  
فان اصدار مثل هذا التشريع - كما سبق القول - يحتاج الى دراسة متأنية  
متعلقة لكافة جوانبه ، ومختلف عواقبه ، من أجل الوصول الى رأى سليم ،  
وقرار حكيم .





## عن القضاة والطلبة واليسار والسلطة والحزب الحاكم

المؤكد عندي أن المسئولين عندنا في مصر إما أنهم لا يقرأون التاريخ ،  
أو أنهم يقرأونه ولا يعتقدون أنه يعيد نفسه ، أو أنه يحوى دروسا بوسعهم  
الاستفادة منها .

لننظر مثلا الى تلك الظاهرة بالغة الخطورة التي نامسها حاليا في  
المديد من أحكام القضاة المصريين ، وأعنى ذلك الاعراب المتكرر عن  
« حسرتهم » و « حيرتهم » ازاء « مخالفة » القوانين التي هم ملزمون بتطبيقها  
لاحكام الشريعة الاسلامية ، وندمهم على ادايتهم في مستهل خدمتهم يمين  
الولاء لتلك القوانين ، ومناشدتهم الحكومة ومجلس الشعب الاسراع بتقنين  
الشريعة ، ثم اقدام بعضهم في جراءة شديدة على تنحية القوانين جانبا والحكم  
بما يخالفونه مطابقا للحكم الدينى .

ثم لننظر بعد ذلك في كتب التاريخ لنرى ما اذا كانت لهذه الظاهرة  
سابقة يمكن لنا الاستفادة من دراسة أسباب ظهورها ، ومن دراسة عواقبها  
الوخيمة ، دون أن نرجع الى ما قبل قرننا هذا . فان نحن قرأنا في تاريخ  
المانيا خلال العشرينات ، قبل وصول النازية الى الحكم ، وجدناه سجلا  
ناطقا بانتهاء سيادة القانون . فقد كانت غالبية رجال السلطة القضائية في  
ذلك العهد شديدة الكراهية للنظام الجمهورى الديموقراطى الذى قام فى  
أعقاب الحرب العالمية الاولى على انقراض امبراطورية القيصر ، وقررت تلك  
الغالبية أن تحذو حذو أفراد القوات المسلحة وأن تنضم الى المعارضة . وكان  
لهذا القرار من جانبهم أثره الحسى فى صبغ أحكامهم بصبغة آرائهم

السياسية ، كلما عرضت أمام ساحتهم قضية خاصة بالارهاب الاجرامى النازى أصدروا أحكاما متعاطفة مع ذلك الارهاب ، مبررين موقفهم بقولهم ان ارهاب اليمين المتطرف انما نشأ كرد فعل لارهاب اليسار المتطرف فى السنوات التالية مباشرة لانتهاى الحرب ، وأن جرائم النازية انما تستهدف فى حقيقة أمرها حفظ النظام العام ، والحيلولة دون وصول الشيوعيين الى الحكم ، ودون هيمنة اليهود على اقتصاد ألمانيا وثقافتها ووسائل الاعلام فيها ، وبالتالى فان لها ما يبررها ويدفع الى تجنب ادانتها . وقد كانت نتيجة هذا الموقف من القضية المتعاطف مع الجماعات الارهابية أن تحول المجتمع الألمانى المعروف بشدة احترامه للقانون والتمسك بالشرعية ، الى مجتمع يسوده العنف والعبث بالشرعية والقوانين والنظام ، واطمان النازيون الى أن القضاء سيغض الطرف عن جرائمهم ، فان اضطر الى الحكم بعقابها فالمؤكد أن يحىء الحكم مخففا والعقوبة هينة . ولا أدل على ما نذهب اليه من الاحصاءات التى أجريت للأعوام الأربعة بين ١٩١٩ و ١٩٢٢ والتى تبين أنه قد وقعت خلالها ٣٥٤ جريمة اغتيال سياسى ارتكبتها اليمين المتطرف ، واثنان وعشرون ارتكبتها اليسار المتطرف ، فقضت المحاكم بأعدام عشرة من اليساريين وسجن ثمانية وعشرين آخرين لمعد متوسطها خمسة عشر عاما ، أما بصدد جرائم اليمين فانه بالرغم من اعتراف خمسين من أفرادهم بارتكاب جريمة القتل ، فقد قضى بأن التهمة لم تثبت على أحد فى ٣٢٦ قضية ، واكتفى بالحكم بالحبس على أربعة وعشرين شخصا من بين الخمسين الذين اعترفوا ، وكان متوسط مدة الحبس أربعة أشهر ! .

حدث هذا كله ولدى القضاء اعتقاد بأنهم بمواقفهم هذه يساهمون مساهمة مشكورة فى المعركة الناشبة بين المدافعين عن الشخصية والتقاليد الألمانية العريقة ، وبين أنصار الانفتاح على الغرب وفتح الباب

امام الاستفادة من الثقافات الغربية الأخرى ، واعتقاد بأن العنف والجريمة السياسية سلاحان في دفاع مشروع عن الذات الألمانية ضد المؤثرات الأجنبية الوافدة .

### طلبة الجامعات

وثمة مثل آخر في تاريخ النازية ، خاص بالطلبة ، كان يمكن للمسؤولين المصريين الاتعاط به لو انهم كانوا يقرأون التاريخ أو يحفلون بدروسه . فالثابت أن أكبر نجاح للدعاية النازية خلال العشرينات لم يكن بين صفوف العمال أو الفلاحين أو المثقفين أو رجال الأعمال أو حتى أفراد الطبقة المتوسطة الدنيا ، وإنما كان بين طلبة الجامعات ، خاصة الوافدين منهم من الريف للدراسة في المدن الكبيرة بالولايات الألمانية ، وهم الذين راوا مبادئ النازية تسوى بين أفراد الحركة ، ولا تميز بين غنى منهم وفقير . كما أنها توفر للساخطين متنفسا يعبرون من خلاله عن مظالمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ضد المجتمع والنظام القائم . وقد كانت السلطات في كل مناسبة يقوم فيها الطلبة النازيون باضرابات وأعمال تخريب أو ارحاب تحاول بعدها مراضاتهم والرضوخ لمطالبهم ، خاصة بعد عام ١٩٢٠ حين باتت السلطات الحكومية والجامعية على السواء تفضل الاستجابة لكل ضغط أو مطلب يميني متطرف مهما بدت للأعين شناعته ، على مواجهة هذه الفوضى بالردع والحزم . فما حل عام ١٩٢٩ حتى كانت كافة الجامعات الألمانية واتحادات الطلبة فيها تحت هيمنة العناصر النازية .

### اليساريون والليبراليون

ولعل هذين المثليين يدفعاننا الى التساؤل عن رد فعل اليسار الألماني وسائر قطاعات الرأي العام غير النازية ازاء الخطر الداهم . الحقيقة المؤسفة

المخجلة هي أن شرذمة ضئيلة ضعيفة من أفراد اليسار وتلك القطاعات هي التي كانت على استعداد للدفاع عن الجمهورية ونظام الحكم ، أو على حد تعبير أحد ليبراليي ذلك العهد : « كان زواجنا من الجمهورية عن غير حب ! » . كانت مهمة حكومة فايمر الديمقراطية بالنسبة لهؤلاء جميعا هي مجرد ملء الفراغ الناجم عن سقوط نظام القيصر الى حين ظهور نظام أفضل . فهو لا يعدو أن يكون فترة انتقالية ريثما تتبلور الأمور . والغريب أن الشيوعيين الذين كان من المفروض ومن السهل عليهم أن يدركوا أنهم بالذات صائرون الى أبشع مصير متى وصل النازيون الى السلطة ، وأن من مصلحتهم هم بالذات أن ينصروا حكومة فايمر بكل ما في وسعهم ، وأن يعاونوها على انجاح خططها الاقتصادية والاجتماعية ومشروعاتها الإصلاحية ، كانوا من أكثر الطوائف استخفافا بخطر النازية ، وكان عداؤهم لفيرهم من أفراد التيارات والأحزاب الاشتراكية الأخرى أشد وأقوى من عدايتهم للنازيين ، كما أنهم أصروا على رفض التمييز بين النازيين الارهابيين وبين المحافظين من الطبقة المتوسطة ممن كان يهمهم العمل في إطار سيادة القانون .

والواقع أن سقوط حكومة فايمر ما كان ليحدث لولا هذا الموقف الأعمى من اليساريين والليبراليين من خطر اليمين المتطرف ، ولولا أن الحكومة بدورها كانت - رغم جو الديمقراطية والحرية الذي وفرتة - عاجزة تماما عن أن تصوغ لنفسها المبادئ والأفكار والمثل التي يمكنها أن تلهب مخيلة الجماهير ، وتثير حماسهم ، وتضمن تعلقهم بها ، وجديتهم في الدفاع عنها ضد كل خطر أو عدو . فكان أن سقط النظام الديمقراطي نتيجة لرضوخه لابتزاز جماعات ارهابية ، وطوائف تحتقر المدنية والديموقراطية ، وتمقت الليبراليين واليساريين .

فماذا كان بوسع الحكومة واليسار والليبراليين أن يفعلوه من أجل تدارك الموقف ؟

### لا حرية لأعداء الحرية

أولا : كان عليهم جميعا أن يدركوا أن نجاح الارهابيين ما كان ليتحقق لولا استغلالهم لجو الحرية السياسية والديموقراطية الذى أشاعته الحكومة فى المجتمع ، فأتاح لهم أن تكون لهم صحفهم ومجلاتهم ، وأن يؤسسوا التنظيمات ويعقدوا الاجتماعات وقيموا الاحتفالات ، وأن يسلحوا الشباب ويدربوهم على أعمال العنف والارهاب ، وأن يطبعوا الكتب ويوزعوا المنشورات ، الى آخره . وقد درسنا فى علمى السياسة والتاريخ أن الليبرالية لا يمكن لها أن تنجح ما دام لغير الليبراليين قوة يعتد بها ، وليس بوسع الديموقراطية أن تستمر وتبقى الا اذا كان الجميع يؤمنون بها ويحرصون على حمايتها . وقد كان واضحا منذ البداية أن الارهابيين كانوا يستفيدون من الديموقراطية دون أن يكونوا لها أدنى احترام ، وكانوا منذ نشأة حركتهم عاكدي العزم على ألا يسمحوا ، متى وصلوا الى السلطة ، بأن يتكرر الوضع فيستفيد غيرهم من الجو الديموقراطى . وما كنا فى حاجة الى ظهور الارهابيين بين ظهرانينا حتى ندرك أن الليبراليين المؤمنين بالديموقراطية هم فى خطر ان هم استرخوا ناعمى البال يستمتعون بدفئتها ، وكأنها بالضرورة قائمة الى الأبد ، وأنهم فى خطر ما لم تكن ليبرالياتهم مناضلة ، وانسانيتهم مقاتلة ، وعيونهم على الدوام يقظة ، مع ادراك لضرورة التسليح ضد عدو مسلح ، وضرورة الفظاظة تجاه مجرم فظ . فلا حرية صحفية لمن لن يوفر حرية الصحافة لمعارضيه متى وصل الى السلطة ، ولا حرية تنظيمات واجتماعات لمن هو واضح منذ اليوم أنه سيعضد تنظيمات خصومه ومخالفيه فى الراى بيد من حديد ، ويفرق شملهم واجتماعاتهم .

### اين يكمن الخطر ؟

**ثانيا :**  كان على السلطات أن تدرك أنه ما من سياسة تضمن استيلاء الارهابيين على الحكم قدر ما تضمنه سياسة التنازل والرضوخ بدعوى أن التنازلات تبعد شبح الصدام ، وتوفر السلام الاجتماعى . فالعكس تماما هو الصحيح . وقد سبق للمعاوية أن نصح الخليفة المحاصر عثمان بأن يختار لنفسه ما شاء من الحلول عدا حل واحد : أن يرضخ لمطالب أعدائه وهو مرغم ، ويطيعهم وهو كاره . وقد كانت الوسيلة الوحيدة لمقاومة النازية هى التصدى لها بالحزم لا محاولة استرضائها والاستجابة لمطالبها مطلبا فمطلبا . فالرضوخ لا يفهمه الارهابيون على أنه حرص من جانب السلطات على السلام والمصالحة الاجتماعيين ، وانما يفهمونه على أنه دلالة ضعف واقتدار الى القدرة على المقاومة يجدر بهم استغلالهما فى تحقيق المزيد من الانتصارات ، وطرق الحديد وهو ساخن .

**ثالثا :**  كان على اليسار والسلطة والمثقفين أن يدركوا أين يكمن الخطر الأكبر على الدولة ، وعلى الديمقراطية والحرية ، وعليهم جميعا ، ومن هو عدوهم الاول ، فيدفعهم هذا الادراك الى توحيد الصفوف فى جبهة صامدة مناضلة الى حين استئصال شافته . غير أن الذى حدث كان على خلاف ذلك : كان اليسار سعيدا اذ يرى الارهابيين يهدمون بمعاولهم هيبة النظام وسلطانه ، طانا أنه هو المستفيد من زوال هذه الهيبة وهذا السلطان . وكانت الحكومة سعيدة اذ ترى التنظيمات النازية سدا عتيذا فى وجه نجاح الشيوعيين . وكان المثقفون الليبراليون ، كمادتهم فى كل عصر وقطر ، قاعدى الهمة خاملين ، لا يحسنون غير الكلام والنقاش ، عاجزين رغم استنارتهم ، أو بسببها ، عن الوقوف فى وجه حركة همجية ديناميكية غير عقلانية . بل وكانوا - وهو الأدهى والأخطر - على استعداد للاعتراف بأن

- ٢٤٩ -

القيم الغالية التى يعتزون بها ويعتبرونها أسمى ما فى الوجود ، قد يكون من الأنسب الآن اطراحها والتخلص منها باعتبارها كماليات روحية وترفا ذهنيا ، وعلى استعداد للاعتراف بأن اليمينية المتطرفة ، مع خطئها ، تمثل روح الشعب الألماني وتحقق له ذاتيته الفريدة •

كان على كل هذه الفئات الثلاث أن ترى فى أفراد الفئتين الآخرين حلفاءها الطبيعيين • غير أن ثلاثتهم شغلوا بالتناحر فيما بينهم عن الخطر الذى ابتلع ثلاثتهم فيما بعد •

### الحزب الحاكم

وابعا : كان على حزب الحكومة ازاء ما تتمتع به الأيديولوجيا النازية من قدرة هائلة على اجتذاب قطاعات واسعة هامة من الجماهير ، أن يدرك أنه ما من أمل فى نجاح المقاومة ما لم يطرح بدوره فى الساحة فكرا متكاملا قادرا على المنافسة • كان السرفى جاذبية النازية بالنسبة للرجل العادى أو رجل الشارع غير المثقف أنها أوهمته بأنها تعرض أمامه اتجاها فكريا ومبدأ فلسفيا ، وتطالبه باستخدام عقله واعمال فكره فيهما ، فاذا برجل الشارع ، وهو الذى لم يشغل ذهنه من قبل بمثل هذه الامور العويصة ، ولا كان يحسب نفسه قادرا على فهمها حتى عرضوا عليه فكرهم الساذج ، يتخيل أنه بات يفكر لأول مرة ، وسره وازهاه أن يرى نفسه فى سبيل تحكيم عقله والاختيار بين بدائل « عويصة » !

وقد كان على حزب الحكومة تجاه هذه الظاهرة مسئوليتان :

الاولى : أن يخرج بأيديولوجية أخرى قادرة هى أيضا على اجتذاب

الجماهير ،

**والثانية :** أن يفضح المزاعم الفكرية لأعدائه الذين باتوا يهيمنون على الشارع وعلى مستقبل الأمة ، وأن يظهرهم في صورتهم الحقيقية : صورة أفراد محدودى الفكر والتعليم والثقافة ، قد استقوا جل معلوماتهم وأوهامهم من كتب بدائية هزيلة ومن الأساطير الجرمانية فى القرون الوسطى ، يظنون هيسترينتهم رفاهة حس ، ويحسبون اضطرابهم الذهني دلالة على تفكير عميق ، ويسعون الى فرض نمط تفكيرهم المشوش على أمة عريقة ، قد أكلت قلوبهم الكراهية ويخالون أنهم على أساس من هذه الكراهية سيققيمون المجتمع المثالى الذى سيباهون به الأمم يوم القيامة ، ويدعون ما لم يجرؤ جوته أو كانت أو بسمارك على ادعائه ، ألا وهو أنهم معلمو البشرية وقادتها .

وكان على حزب الحكومة أن يصدر تحذيراته القوية بصدد ما يتهدد الأمة بأسرها من أخطار ازاء تعاظم قوة أناس لا يلزمون أنفسهم بغير مبدئين : الارهاب والكذب ، وأن يوضح كيف أن الامر لا يمكن الا أن ينتهى بكارثة ، كارثة تدفع ألمانيا الى عزلة رهيبة ، وتدفع العالم بأسره الى كراهيتها فمحاربتها ، وكيف أنه ليس من المقبول أو المستساغ أن يكون قدر تلك الأمة العظيمة أن تخرج بثورة دون فكر ، بل وضد الفكر ، وضد الحرية والحقيقة والعدل ، وأن تخرج بنظام يحرق الكتب ، ويرى فى كل معارض له مرتدا أو عميلا خائنا ، نظام لا يمثل غير الكراهية العميقة التى يكنها بسطاء العقول عادة لأصحاب الفكر ، ولا تنبع شعاراته الا عن عقد نقص عاطفية وذهنية يستحيل معها الخروج بسياسات تقدمية نبيلة ، أو تحقيق سعادة الجماهير .

فان كانت قطاعات عريضة من تلك الجماهير تبارك الآن هذه الشعارات وتنحس لها ، فما من أدنى شك فى أنها بعد بضع سنين ستصاب بخيبة أمل عظيمة حين تتبين استحالة تحقيق الوعود التى تكال لها الآن كيلا . وان كان المثقفون يرون السلامة اليوم فى السلبية والجبن ، فما من أدنى شك



- ٢٥١ -

فى أنهم سيدركون غدا ، حين يتولى ادارة الشؤون الخارجية والداخلية والاقتصادية والثقافية للدولة أناس فقيرو الحظ من التعليم ، يهمهم أن يبقى الشعب على غبائه حتى يفرضوا عليه نمطا ذهنيا موحدا يفضل ما وفره العام الحديث من أجهزة رهيبة القوة والفاعلية ، وبفضل الإيحاء وأبواق دعاياتهم الشيطانية ، سيدركون غدا أنه ما كان ينبغى أن يكون اعتبار الخوف عندهم أقوى من اعتبارات العقد والانسانية والحكمة ، ولا الخلاف مع اليسار أو السلطة أو كليهما سببا يحول دون التلاحم فى جبهة قوية نشطة ضد عدو قوى نشط .



## إستنكار البدعة وكراهة الجديد موقف إسلامي أم جاهلي؟

« كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون »  
( سورة المائدة ٧٠ )

كان جل ما أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام قومه مخالفا للماثور عندهم ، وللقيم والتقاليد السائدة بينهم ، مناقضا لمثلهم ونظرتهم الأساسية الى الحياة مما توارثوه جيلا عن جيل . فلا غرو ان لم تجد دعوته صدى واستجابة سريعين لدى اهل مكة . وما كانت المعارضة القوية التي لقيها منهم ناشئة عن امتناعهم من تسفيهه لعبادة الأوثان ، بقدر ما كانت نتيجة دعوته اياهم الى تبني موقف من الحياة لا هو مالوف ولا مقبول . فتعلقهم باصنامهم كان سطوحيا وفي طريقه الى الزوال . غير انه جاء يدعوهم الى استهجان قيم ورثوها عن آباءهم واجدادهم كانوا يرون فيها ارقى مثل يحتذى . وسمعوه يسفه آباءهم ، وكانوا لا يفخرون بشئ فخرهم بالآباء . وراوه يتحدث عما يعتبرونه من الفضائل الكبرى وكانما هي مما يشين المرء ان يتخلق به .

وما كان ثمة عربى أصيل يسعده أو يسهل عليه ان يتخلى عما ورثه من مفهوم عن الفضيلة . كان العربى اذا فخر بفضائله أكد انه يتبنيه اياها انما يسعى الى التشبه بآبائه . بل انه حتى فى قراءه للضيف كان يحرص على أن يقدم الطعام لأضيافه فى الأوانى التي ورثها عن أجداده . وها نحن نرى أبا امرئ القيس لا يورث ابنه سلاحه وخيوله فحسب ، وانما

— ٢٥٤ —

يترك له أيضا « قدوره » التي هي رمز الكرم وحسن الضيافة حتى يواصل بها الممارسة المتوارثة لهاتين الفضيلتين .

لم يكن بوسع مثل هؤلاء قبول فكر جديد أو قيم مستحدثة ليس لها أساس مما تتناقله الأجيال وتحفظه التقاليد . قد كان مجد الفرد منهم من مجد قبيلته ، ومجد قبيلته من مجد أجدادها ( وهو ما عرفوه باسم الحسب ) . فالحسب وعظمة الأجداد هما أبرز دواعي الفخر لدى الفرد ولدى القبيلة على السواء . وما كان المجد الشخصي ليهمهم قدر ما يهمهم الحسب والمجد المورث ، فان ساءت لهم دناءة مسلك امرئ فسروها بدناءة أصله وخمول ذكر أجداده .

ثم ما هم يرون رجلا منهم يظهر بينهم بدعوة جديدة كل الجدة . ويرونه علاوة على ذلك لا يملك من مؤهلات الزعامة والرئاسة ما ألفوه ووقروه وأعجبوا به من مؤهلات في شيوخهم وساداتهم . أتى يكلمهم فيما لا يفهمون ولا يعرفون له أصلا ، ككبح الشهوات ، والتضحية بالمال ، والزهد في الحياة الدنيا . والقرآن الذي جاء به من عند ربه يحرم الخمر والزنا ، وهما ما كان الجاهليون يسمونهما بالأطيبين . وهو يدعو الى أخوة ومساواة . وينهى عن الفخر بالحسب وعن التنافس بين القبائل ، مؤكدا انه لا فضل لعربي على أعجمي ولا حر على عبد الا بالتقوى . وهو يمتدح المسلمين وقومه يرون في المسألة ضعفا :

✽ ودع عنك عمرا ان عمرا مسالم ✽

ويثنى على الكاطمين الغيظ والعافين عن الناس وقومه يهزأون ممن ترك الثار واغتفر اساءة أو رد السيئة بالحسنة ، ويعتبرون من أقذع آبيات الهجاء بيت قريظ بن أنيف الذي يعير فيه قومه فيصفهم بأنهم :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغيرة  
ومن اساءة أهل السوء احسانا !

\*\*\*

### موقف القرآن من التقاليد

غير أن ابن سعد يذكر أن أهل مكة ما أشتدوا وغلظوا في معارضة  
النبي حتى هاجم آباءهم ونعتهم بالكفر وسفه أحلامهم . وقد كانت شكواهم  
الى عمه أبى طالب هى من أنه « ضلل آباءنا ٠٠٠ وانا والله لا نصبر على  
شتم آبائنا » . وقد شن القرآن الكريم هجوما عنيفا فى آيات كثيرة على  
تعلق الناس بالقيم والآراء والعقائد الموروثة عن الآباء رغم مخالفتها للعقل  
ومناقضتها لكل منطق : فقوم النبي ( ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من  
قبل ) هود ١٠٩ . غير أن عقائد الآباء ليست صائبة بالضرورة : ( او لو كان  
آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ) البقرة ١٧٠ . فان كانت معتقداتهم  
فاسدة فلا ينبغى قبولها : ( يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم  
اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون )  
التوبة ٢٣ . كذلك فانه بمضى الأيام والعصور ، وينمو المعارف وتراكمها قد  
يدرك الأبناء من الحقائق ما لم يكن للآباء والأجداد به علم : ( يا أبت انى قد  
جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى ) مريم ٤٣ . واذ المرء بطبيفته عدو  
لما يجهل ، فالغالب أن يتشبث الآباء بمعتقداتهم البالية ، ( بل كذبوا بما  
لم يحيطوا بعلمه ) يونس ٣٩ . ومن حق الأبناء أن يجادلوا آباءهم فيما  
يذهبون اليه ، ( اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ) مريم  
٤٢ . ( اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا  
وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ) الانبياء  
٥٢ - ٥٤ . كما أن من حق الأبناء حينئذ ، بل وواجبهم ، أن يتركوا نهج

الآباء ، ( واذا قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون ) الزخرف ٢٦ .  
 ذلك أن الله أحق أن نخشاه من الآباء ، ( فاذكروا الله كذاكركم آباءكم أو أشد  
 ذكرا ) البقرة ٢٠٠ . فان ثبت لنا بالتروى والتفكير أن آباءنا قد جانبوا  
 الصواب والحق فعلىنا أن نختار الصواب والحق ( أو لو جئتمكم بأهدى مما  
 وجدتم عليه آباءكم ) الزخرف ٢٤ . غير أن هناك من الناس من للتقاليد على  
 عقله وقلبه سلطان مبین ، ويأبى قبول أية بدعة مستحدثة لمجرد أنها لا تتفق  
 مع هذه التقاليد ، ( ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا  
 الأولين ) القصص ٣٦ . وقد كان هذا هو موقف قوم النبى عليه الصلاة  
 والسلام منه ، ( قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ) المائدة ١٠٤ . كلما  
 دعاهم الى رأى جديد ( قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ؟ ) يونس  
 ٧٨ . وقالوا عنه : ( ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم )  
 سبأ ٤٣ ، وقالوا له : ( أئنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ ) هود ٦٢ ،  
 ( أنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آئارهم مقتدون ) الزخرف ٢٣ . وهذا  
 موقف منهم لا يستسيغه عقل ، ( أتجادلوننى فى أسماء سميتوها انتم  
 وآباؤكم ؟ ) الأعراف ٧١ . فهم قوم يأبون تحكيم المنطق والفكر ، ( لهم  
 قلوب لا يفقهون بها ) الأعراف ١٧٩ ، ( قل هل يستوى الأعمى والبصير ،  
 أفلا تتفكرون ؟ ) الأنعام ٥٠ . والتفكير هو واجبنا الاول ، ( وأنزلنا اليك  
 الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ) النحل ٤٤ ، ( ان شر  
 الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ) الأنفال ٢٢ . وليكن  
 شعارنا دائما : ( وقل رب زدنى علما ) طه ١١٤ . فان طلع علينا قوم  
 برأى جديد ناقشناهم معهم بالمنطق ، ( قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ )  
 الأنعام ١٤٨ . أما الجدال عن غير علم ومنطق فمرفوض ، ( وان كثيرا ليضلون  
 بأهوائهم بغير علم ) الأنعام ١١٩ ، ( ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من  
 العلم ما لك من الله من ولى ولا واق ) الرعد ٣٧ .

### « الباذنجان شفاء من كل داء »

وقد أمرنا الرسول الكريم أن نعرض ما ينسب إليه من أحاديث على القرآن ، فما اتفق منها معه قبلناه وما خالفه منها أبينا الأخذ به . فهل يعقل بعد ما أوردناه من آيات ( وقد أوردناها على سبيل المثال لا الحصر ) أن يسلم أحد بصحة أحاديث نسبت الى النبي مثل : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » ، أو « ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فان شر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » ؟ لقد أوردت كتب الصحاح والسنن والمسانيد والسير والمغازي والطبقات من الأحاديث المنسوبة الى الرسول ما يذم البدع ويدعو الى رفض كل جديد محدث ، ما لا يمكن أن يتفق مع مفهوم الآيات التي اشرنا اليها ، وما ليس بالوسع قبوله مع علمنا بأن كل ما جاء به الاسلام رآه الجاهلون من « محدثات الأمور » ، وعلمنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أعظم رافض لاتباع سنة من كان قبله . فهل يمكن لمن أنزل عليه ( وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ) الأنعام ٩١ ، و ( قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ) البقرة ١٧٠ ، أن يقول : « سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم » ( صحيح مسلم ) ؟

فإن احتج البعض بأن هذه الأحاديث رواها البخارى ومسلم وغيرهما من الثقات ، قلنا انه قد ورد أيضا فى البخارى : « من تصبى كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر » ، وأنه قد ورد فى صحيح مسلم « لولا حواء لم تكن أنثى زوجها الدهر » ، وفى غير البخارى ومسلم « الباذنجان شفاء من كل داء » .

ويقيني أن مثل نبي الاسلام عليه السلام لم يكن كمثل أولئك الثوريين  
المجددين الذين يروى التاريخ انهم صارعوا قومهم وجاهدوا في سبيل نصره  
آرائهم ، حتى اذا ما نجحوا وقبلت أفكارهم واستقرت وأضحت جزءا من  
كيان مجتمعهم ، واعتبرهم الناس أبطالا مصلحين ، جزعوا وتنكروا لكل  
تجديد لاحق حتى لو أن هذا التجديد كان في نفس اتجاه فكرهم ، وهاجموا  
كل بدعة مستحدثة حتى لو أن هذه البدعة لم يكن لها من غرض غير موازنة  
فكر البطل المصلح مع ما يستجد من ظروف ، واتهموا دعاة التجديد  
بالمروق والخيانة ، وأكدوا ضرورة الولاء لمبادئ الآباء والزعماء الأول ، وهو  
ما فعله كل من لوثر وكالفن وستالين وعشرات غيرهم .

### « أنتم أعلم بأمر دنياكم »

روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بقوم يأبرون النخل ،  
فسأل : ما يصنع هؤلاء ؟ ف قيل له انهم يلحقون النخل . فقال : لو لم  
يفعلوا لصلح . ف أخبروا بقوله فتركوا التلقيح ، ولكن لم ينضج الثمر .  
فلما علم الرسول بذلك قال : « إنما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشيء من دينكم  
فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » . وكان عليه السلام  
يكرر للناس قوله : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ومفهوم هذا أن تعاليم النبي الملزمة للمسلمين هي تلك التي تتعلق  
بالدين والأخلاق لا المتعلقة بمعايش الدنيا الفرعية التي ذكرها على سبيل  
الرأى . ومع ذلك فاننا نرى بيننا من يذهب الى انتهاج نهج السلف الصالح  
في كل شأن من شؤون الحياة ، كالملبس والمأكل ، بل وحتى فيما يقال لمن  
عطس ، ولا يرون مسلما حقا من تبع شيئا من عنده . وها هو القسطلاني  
يرى بدعة مرفوضة كل ما يتبع دون مثل من العصر القديم ، وكل ما لم يكن



معروفا في زمان النبي • وعلى هذا تصبح القهوة والطباعة والاذاعة والجرائد والمصباح الكهربائي واستخراج النفط واستخدام الشوكة والسكين في الأكل بدعا بغیضة ، وهو ما من شأنه أن يجعل الحياة في ظل ظروف مخالفة للظروف السائدة في زمن النبي والصحابة والتابعين أمرا محالا • ( قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا • الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ) الكهف ١٠٣ و ١٠٤ •

غير أن هؤلاء الذين يدعون الى انتهاج سنة السلف الصالح لا يذكرون كيف ألغى الخليفة عمر بن الخطاب حصة المؤلفات قلوبهم من الصدقات والآية القرآنية تقول ( انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ٠٠٠ ) التوبة ٦٠ • وقد استند عمر في الغائه لحصتهم الى زوال العلة التي بنى عليها النص • وهي نصرة الدعوة في بدء الاسلام بعد أن قويت شوخته ورأى أن الأحكام الشرعية انما بنيت على علل ومقاصد ، وكلها راجعة الى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم • ولا يطبق الحكم — حتى ان استند الى نص شرعى — منى زالت العلة التي بنى عليها ، والتي هي شرط تطبيقه • وقد ذكر ابن تيمية « ان صحيح المنقول في الشرع الاسلامي موافق دائما لصحيح المعقول » • واستنادا الى هذا المعنى ذهبت القاعدة الأصولية الى « أن الحكم الشرعى المبني على علة يدور مع علته وجودا وعدما » ، وخرج بعض الفقهاء بقاعدة عامة مؤداها « أنه لا ينكر تغيير الأحكام بتغير الأزمنة والأحوال » • كذلك كتب السيوطي ( الاتقان في علوم القرآن ) في معرض حديثه عن النسخ في القرآن يقول : « من أقسام النسخ ما أمر به لسبب ثم يزول السبب ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلته تقتضى ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة الى حكم آخر » • وقال : « ان هناك آيات نسخ حكمها دون تلاوتها • واذا أن النسخ غالبا ما يكون للتخفيف ( التيسير ) فقد أبقیت التلاوة تذكيرا للنعمة » •

### البدعة ومعارضوها

ان البعض يرى أنه لا سبيل الى انصلاح أمور المسلمين الا بالعودة الى الماضي والالتزام بسنة السلف الصالح . وهو قول سليم ان كان يعنى التنقيب عن الجوهر الاصلى للدين ، وإزاحة ما تراكم على هذا الجوهر خلال عصور طويلة من الخرافات والأوهام مما حجب عن المسلمين معنى الاسلام الصحيح . غير أن هؤلاء يمشون فيقولون انه على المؤمن أن يأخذ بالاتباع لا الابتداع ، ويعرفون الابتداع بأنه النظر الشخصى ، والاستقلال فى رأى ، ومخالفة الاجماع والرأى العام ، وانتهاج أساليب حياة تخالف أسلوب حياة الرسول والصحابة والتابعين .

غير أنى أنظر فأرى من بين الأحاديث النبوية الشريفة ما يذهب الى أن « العلماء هم ورثة الأنبياء » . وأفهم من هذا الحديث أنه كما أن على وارث التركة واجبا خلقيا يحتم عليه رعاية التركة وانماءها ، فعلى ورثة الأنبياء أن يرعوا التراث الروحى الذى خلفوه وأن ينموه . وكما أن من حق وارث حانوت أبيه - بل ومن واجبه - أن يسعى الى أن يوسعه ويضيف اليه ويزيد من أنواع السلع المعروضة فيه ويستبدل سلعا رائجة بسلع قد كسدت وفتر الطلب عليها ، مراعاة منه لأحوال السوق ، فكذلك على العلماء ما يشبه ذلك فيما يتصل بما ورثوه .

بيد أن معظم علماء المسلمين لا يرون توسعا أو اضافة ، ولا يأخذون الا بالتقليد الأعمى والجمود الباطل ، مستندين فى تبريرهم قفل باب الاجتهاد الى عظمة شأن الاسلام فى عصره الأول ، وملقين تبعة تدهور حال المسلمين بعد ذلك على أسباب وظروف خارجة عنهم . وهم فى هذا الموقف أشبه بمن أبقى الحال فى الحانوت الذى ورثه على ما كان عليه فى زمن أبيه وجده ، غير آخذ بعين الاعتبار ما طرأ على أساليب التجارة وأذواق الناس

من تغير ، مبررا مسالكه برواج الحانوت وبضاعته وقت آياته ، ومعللا كساد  
نجاته المحتوم بفساد الزمن ، أو فساد الذمم ، أو فساد كل شيء عدا  
أسلوب تفكيره .

قد دعانا من رأى قفل باب الاجتهاد الى الوقوف عند آراء مجتهدين  
فى عصر معين . وقد كان هؤلاء المجتهدون يفكرون لأنفسهم ، ويراعون فى  
وضعهم الاحكام موافقتها للظروف المتغيرة فى مجتمعهم . غير أنهم سلكوا  
مسلكا خاطئا اذ صاغوا آراءهم المبدعة فى قالب احاديث نسبوها الى النبى  
واختلفوا الأساسيد لها حتى تلقى آراؤهم قبولا من الأمة . أو على حد تعبير  
بعضهم واعترافه : « كنا اذا رأينا رأيا صيرناه حديثا ! » ، فاذا بالأجيال  
التالية لقفل باب الاجتهاد وقد صدقت نسبة هذه الاحكام والآراء الى النبى ،  
وحرمت على نفسها أن ترى لنفسها رأيا جديدا ، حتى ان كانت هذه الاجيال  
قد احاطت بما لم يحط به المجتهدون الاول علما ، ونشأت لديها مصالح  
واحياجات لم يعرفوها ، وعاشت فى ظروف لم يخبروها .

وكان أن قضى على الفكر الاسلامى بالنوقف ، وتغشى التقليد والجمود  
فى الشريعة وغيرها ، وانهم كل صاحب رأى جديد باتباع الهوى ، ووصفت  
كل دعوة الى الاصلاح والتطوير بأنها بدعة ، واخترعت احاديث نسبت الى  
النبى نستنكر البدعة ونبشر صاحبها بالنار .

وقد جاهد بعض اعظم الفقهاء كابن نيمية وابن قيم الجوزية  
والشوكانى ثم الأفغانى ومحمد عبده من أجل أن يثبتوا بالأدلة الشرعية  
الواضحة أن باب الاجتهاد ليس مفتوحا فحسب ، بل هو واجب على كل من  
اتصف بصفات المجتهد . ذلك أنه ما دام الوجود البشرى سلسلة من  
الاحداث والظروف المتعاقبة ، فان الاجتهاد والابتداع سيظلان دائما الجوهر  
الحى للتاريخ . وقد فهمت الحضارات الراقية هذه الحقيقة حتى اضحت البدعة

مقصودة في حد ذاتها وطلبها متعمدا ، وأسمتها بالمنهج العلمي ، وحتى أصبحت - خاصة في وقت الأزمات كالحرب أو الضائقة الاقتصادية - تبدي تهاوتا على الابتداع ، وتناشد المبتدعين وتحثهم على اجراء التجارب والاختبار والاستنباط ، بحيث بات التغيير وتوفير المرونة شعار السياسة العامة عندها .

ورغم ما تذكره كتب علم الاجتماع من أن الأزمات والاحساس بالخطر من شأنها أن تدفع المجتمعات المتحجرة الجامدة الى ابداء الاستعداد لتقبل الجديد من الأفكار والمستحدث من الأساليب ، فلا يزال مجتمعنا الاسلامي الملىء بالأزمات والمحفوف بالأخطار يرى البدعة كفرا ، والمستحدث عصيانا وتمردا ، والأساليب الجديدة تشويشا غير مستحب للروتين والتقاليد ، ومخالفة مستهجنة لعادات الآباء والأنماط المألوفة من العيش . غير أن الوقت قد حان لأن ندرك أن التقدم متعذر دون تغيير وابتداع ، وأن أولئك الذين يكفرون البدع لا يفعلون ذلك عن محض غباء ، وانما عن خوف على مصالح خاصة تتهددها تلك البدع . ذلك أن كل بدعة تقريبا تستدعى اعادة في تنظيم القوى الاجتماعية ، فلا غرو أن نلمس عند كل من سينحيه التغيير عن مكانته ، ويحد من نطاق نفوذه ، استنكارا وكراهية للبدعة . وهم من أجل النجاح في مقاومتهم لها لا بد أن يحظوا بتأييد الجماهير لهم ، ولا سبيل الى حصولهم على هذا التأييد الا بالادعاء أن البدعة منافية للدين ، وأن الدين قد أوصى بالالتزام بسنة الأولين ، وعدم الخروج عما كان شائعا لدى آبائنا وأجدادنا الأقدمين . والله أعلم أن دينه الحى برىء مما يزعمون ، وأنهم وأشياعهم أناس قد يجاهدون في نصره الدين ، ويكتبون في نصره الدين ، بل وقد يموتون في نصره الدين ، غير أنهم على غير استعداد البتة لأن «يحيوا» من أجل الدين .

## الاجتهاد حق هو أم واجب ؟

الاجتهاد لغة بذل الوسع فى طلب المقصود . والمجتهد هو من يبذل  
وسعه ليحصل له ظن . وهو فى هذا على نقيض المقلد الذى يعرفه السبكي  
فى « جمع الجوامع » بأنه « من يأخذ بمذهب غيره دون دليل » . وقد ورد فى  
حديث نبوى أن للمجتهد اجرا اذا اخطأ وأجرين اذا أصاب . فالاجتهاد  
اذن لا يقتضى عدم الوقوع فى الخطأ ، وذلك بالنظر الى أن نتيجهته هى دائما  
« ظن » .

وقد ظل المسلمون قرابة قرنين ونصف قرن بعد الهجرة لا ينكرون  
على أحد حقه فى اعمال فكره فى المسائل الشرعية للتوصل الى حلول خاصة  
به . ثم ظهر بعد ذلك ميل الى تضيق معنى الاجتهاد ، وقصر الحق فيه على  
كبار الفقهاء ممن يقررون الأحكام ، والزمام غيرهم بالأخذ بما توصل اليه  
هؤلاء . وفى بداية القرن الرابع ( أى حوالى سنة ٩٠٠ ميلادية ) ، ساد  
الاعتقاد لدى فقهاء المذاهب الأربعة بأن مؤسسى هذه المذاهب ، والبعض ممن  
عاصروهم ، هم وحدهم الذين لهم أن يصلوا بفكرهم الى حلول لما يعرض من  
مسائل ، وأن كافة المسائل الرئيسية قد تمت مناقشتها جملة وتفصيلا ،  
وصيغت الحلول النهائية لها ، فلا يحق أن يوصف أحد من وقتها وإلى أبد  
الآبدين بأنه أهل للاجتهاد ، وعلى كل جهد أن ينحصر مستقبلا فى نطاق  
الشرح والتطبيق لما ذهب اليه الأوائل . وبهذا قفل باب الاجتهاد ، ولم  
يسمح للمسلمين بغير التقليد ، وشاع القول بأنه لا يصح للمؤمن أن ينقاد  
لما يمليه عقله عليه ، وأنه ليس ثمة حاجة الى العقل فى معرفة الحقيقة الدينية  
التي هى فى القرآن والسنة وأقوال السلف .

### هدف الاجتهاد عند مسكويه

ومع ذلك فقد ظل هناك دائما فى العالم الاسلامى افراد يرون رأى فضالى الذى بسطه فى كتاب « كفاية العوام » فى أنه ليس بوسع الانسان أن يصل بالتقليد الى ايمان ينتجيه ، وينكرون الجمود الناجم عن قفل باب الاجتهاد ، ويصرون على حقهم فى الرجوع اليه . كان من بين هؤلاء ابن تيمية ، وابن رشد ثم السيوطى الذى ذهب الى أنه من الواجب الا يخلو زمن من مجتهد واحد على الأقل . غير أن أطرفهم رأيا وأعمقهم نظرة فى اعتقادى هو مسكويه ، الذى أجاب فى كتاب « الهوامل والشوامل » على سؤال لأبى حيان التوحيدي عن قضية الاجتهاد وسبب اختلاف الفقهاء فيما بينهم حول ما هو حرام وما هو حلال ، بقوله :

« ... أما ما سوغ للفقهاء أن يقولوا فى شيء واحد أنه حلال وحرام ، فلأن ذلك الشيء ترك واجتهاد الناس فيه . فبعض الأحكام يتغير بحسب الزمان ، وبحسب العادة ، وعلى قدر مصالح الناس ، لأن الأحكام موضوعة على العدل الوضعى ، وربما كانت المصلحة اليوم فى شيء ، وغدا فى شيء آخر ، وكانت لزيد مصلحة ، ولعمرو مفسدة . والاجتهاد الذى يجرى مجرى التعبد أو لعموم المصلحة ، فى النظر والاجتهاد نفسه ، لا فى الأمر المطلوب ، ليس يضر فيه الخطأ بمد أن يقع فيه الاجتهاد موقعه . مثال ذلك أن المراد من ضرب الكرة بالصولجان إنما هو الرياضة بالحركة ، فليس يضر أن يخطئ الكرة ، ولا ينفع أن يصيبها ، وإن كان الحكم قد أمر بالضرب والاصابة ، لأن غرضه كان فى ذلك الأمر نفس الحركة والرياضة . وكذلك أن دفن حكيم فى بركة دفيننا وقال للناس : اطلبوه ، فمن وجده فله كذا . وكان غرضه فى ذلك أن يجتهد الناس فيعرف مقادير اجتهادهم ، ليكون ذلك الطلب عائدا لهم بمنفعة أخرى غير وجود الدفين . فانه لا يضر أيضا فى ذلك

- ٢٦٥ -

أن يخطيء الدفين ، وإنما الفائدة كانت في السعي والطلب ، وقد حصلت للطائفتين جميعا ، أعنى الذين وجدوه والذين لم يجدوه .

« وأصناف الاجتهادات والنظر الذى يجرى هذا المجرى كثيرة . فمن ذلك كثير من مسائل العدد والهندسة وسائر الموضوعات ، ليس غرض الحكماء فيها وجود الغرض الأقصى من استخراج ثمرتها ، وإنما مرادهم أن ترتاض النفس بالنظر ، وتعود الصبر على الروية والفكر اذا جريا على منهاج صحيح ، ولتصير النفس ذات ملكة للفكر الطويل . فإذا حصلت هذه الفائدة فقد وجد الغرض الأقصى من النظر .

« وليس ينبغى أن يتعجب الانسان من الشيء الواحد أن يكون حللا بحسب نظر الشافعى ، وحراما بحسب نظر مالك وأبى حنيفة . فان الحلال والحرام فى الأحكام ليس يجرى مجرى الضدين أو المتناقضين . فينبغى للعاقل اذا نظر فى شيء من أحكام الشرع أن يجتهد فى النظر ، ثم يعمل بحسب اجتهاده ذلك . ولغيره أن يجتهد ويعمل بما يؤديه اليه اجتهاده وان كان مخالفا للاول ، واثقا بأن اجتهاده هو المطلوب منه ، ولا ضرر فى الخلاف » .

### القصد الحقيقى

وقريب من هذا رأى لمسكويه ما كتبه الفيلسوف البريطانى المعاصر  
أ.ج. آير A.J. Ayer :

« دأب أحد مشاهير علماء الرياضة على تذكير طلبته بأنهم حين يفكرون فى معضلة رياضية صعبة مستعصية على الحل ، يصيبون من خلال تفكيرهم فيها كل ما هو ذو قيمة حقيقية . وهو قول يصدق على الفلسفة أكثر ما يصدق حتى على الرياضة . فالمعضلات الكبرى فى الفلسفة لا تزال بعد

- ٢٦٦ -

أكثر من ألفى عام مستعصية على الحل ، ولا شك في أنها ستظل دوما كذلك .  
غير أن البنية الأساسية للحضارة الغربية ، وكافة المناهج الرئيسية للفكر  
والعمل عندنا ، ليست الا ثمارا جانبية ايجابية لهذا الفشل ، ا

ولنضرب لذلك مثلا :

ينص قانون أوم الذى كشف العلاقة بين شدة التيار الكهربائى وشدة  
المقاومة له على أن « فرق الجهد الكهربى = شدة التيار × المقاومة » .  
غير أن قيمة هذا القانون الحقيقية ( على ضوء نظرية مسكويه وفكر اير )  
ليست فى نتيجته بقدر ما هى فيما جال بخاطر أوم من تساؤلات قبل توصله  
الى قانونه ، والمفاهيم الكامنة وراء تساؤلاته ، كمفهومه عن شدة التيار  
وقوة البطارية المولدة له باعتبارهما مقادير تقاس وتعد المقارنات وتكتشف  
العلاقة بينهما ، ونظره الى كل هذا على أنه من الأمور الواجب أخذها فى الاعتبار  
عند دراسة التيار الكهربائى ، ثم طرق البحث والتجربة وقياس المقادير ،  
وتحديد الأجهزة اللازمة للتجربة ووسائل استخدامها .

فالتألمب المقبل على دراسة علم الكهرباء ، غير مطالب بتصديق قانون  
أوم . لكنه مطالب بفهم الأسئلة ، وباستخدام الأجهزة بين يديه فى التحقق  
من صحة القانون . وهم يعلمونه كيفية طرح الأسئلة واستخدام الأجهزة ،  
ولا يفرضون عليه قبول نظريات الأقدمين دون جدل أو نقاش أو تمحيص .  
يعلمونه كيف يتحقق من صدق ما يقال ، ولا يوهبونه بأنه متى قرأ كتب  
الأسلاف قد أضحى من العلماء العارفين . ولو أن الناس جميعا نسيت  
قانون أوم وبقيت لهم تساؤلاته ومنهاجه فى البحث عن الاجابات ، لأمكنهم  
اعادة اكتشاف القانون فى بحر ساعة أو أقل . أما ان هم حفظوا القانون  
دون ادراك لقيمة التساؤلات ومنهاج البحث ، فسيكون القانون فى أيديهم  
كالساعة فى يد هيجى لا علم له بطريقة تشغيلها .



## - ٢٦٧ -

فالذى يعنيه مسكويه اذن هو ان المقصود والمرغوب فيه لا معرفة ما اذا كان هذا الأمر أو ذاك حراما أم حلالا ، ولا الامام برأى الشافعى أو رأى أبى حنيفة فيه ، ولا تقبل الأحكام لمجرد أن علماء السلف قالوا بها ، وانما المقصود هو الاجتهاد ذاته ، وإعمال الفكر ، وطرح الأسئلة بطريقة سليمة ، واستيعاب المفاهيم التى تمكننا من طرح المزيد من الأسئلة ، ومنهجية البحث عن اجاباتها . وانما تكمن أهمية كل هذه الأمور فى امكان اختبار مدى مساهمتها لمصالح الناس المتغيرة بحسب الزمان ، وبحسب العادة ، والتحقق من فاعلية التغيير المطلوب فى الأحكام على ضوء اختلاف الأحوال والظروف . وبالتالي يصبح من واجب كل ذى عقل أن يقدم على التفكير والاختبار ، وتوسيع نطاق التجارب ، وتطهيرها من النتائج الباطلة ، والأفكار البالية ، لا أن يستخدم النتائج التى توصل اليها الأوائل فى كبت شكوكه ، ومنع الآخرين من التساؤل والتأمل والاجتهاد .

### حق المرء فى اعتناق الرأى

وهنا يثور التساؤل عما اذا كان من حق كل انسان أن يعتنق ما يعن له من آراء وأفكار ، مهما كانت هذه الآراء باطلة ، والأفكار سقيمة . فالكثيرون يذهبون الى تأكيد حقه هذا ما لم تؤد آراؤه الى اقدامه على تصرف غير مرغوب فيه ، أو منع غيره من التفكير كما يحلو له .

بيد أنه مهما بدا هذا القول سديدا فى مجال التشريع وسن الدساتير ، فما من شك عندى فى أن الانسان لا يملك حق اعتقاد رأى ما لم يكن قد درسه وقاب فيه نظره ، واجتهد حتى توصل اليه بالصبر والاختبار والبحث الجاد . فهو حق يتصل اتصالا وثيقا بالاساس الذى بنى المرء عليه اعتقاده ، وبالسبل التى سلكها من أجل الوصول اليه ، لا بالرأى نفسه ، ولا بما اذا كان قد ثبتت صحته أم فساد . وهنا يكون التساؤل عن وزن الأدلة

- ٢٦٨ -

التي جمعها وصبر على تقصيصها ثم استند اليها في تكوينه لرأيه . فثمة فارق ضخم بين من حيره سؤال فابري يفتش عن اجابة عليه ، دون تعصب أو هوى أو ميل مسبق ، يزن الآراء المختلفة والمتناقضة فيه ويختبرها ، وبين من قاده هواه الى هذا الرأي أو ذاك مهما كانت الحجج التي تنتقص من قدره ، ول مجرد أنه راغب في اعتناقه لسبب أو آخر ، يأبى أن يقرأ الا ما يزيده ثقة في رأيه ، ويكره الاستماع الى من يخالفه فيه . فمثل هذا الشخص الأخير في زعمنا لا حق له في أن يكون له رأى .

ذلك أن معتقدات الفرد منا ليست مسئوليته وحده ، ولا بالتي تخصه هو وحده ، وانما تخص المجتمع بأسره . فكل جيل انما يرث حصيلة أفكار الجيل الذي سبقه ، تكون أمانة لديه حتى يورثها الجيل الذي يليه بعد انماها وتطهيرها . وهي مسئولية جسيمة بالنظر الى اسهامها في تكييف مستقبل أبنائنا . واذ كان لكل رأى شخصي ، مهما بدا تأفها ، تأثير في مصير الآخرين ، يصبح من واجب معتنقه أن يتأكد من أنه جاء نتيجة بحث حر غير هيب ، لا نتيجة تكاسل عن التمحيص ، أو جزع من مخالفة آراء السلف ، أو رغبة في السلوان واغراق الهموم ، وميل الى خلق السراب وخداع النفس ، ويصبح من واجبه أن يحذر من التعجل في بلورة معتقداته حذره من الطاعون الذي يمكن أن يصيب جسما فردا ثم اذا بالعدوى تنتقل منه الى الآلاف غيره .

### ( افلا تتفكرون ؟ )

وقد سبق القول ان القرآن الكريم حذرنا في آيات عديدة من مغبة التعلق بالآراء الموروثة عن الآباء رغم مخالفتها للعقل والمنطق . فاعتناق الشخص للرأى لمجرد أنهم لقنوه اياه في طفولته ، أو أقنعوه به في صباه ، وميله بعد ذلك الى كبت كل شك بصدده يقفز الى خاطره ، والثورة على كل

- ٢٦٩ -

سؤال من شأنه أن يزعزع من ثقته فيه ، يجعلان من حياته خطيئة فى حق مجتمعه . أو كما قال ميلتون :

« اذا صدق المرء رأيا لمجرد أن القس فى كنيسة قد ذكره ، أو أن المجتمع الذى يعيش فيه قد اعتنقه ، دون أن يعرف لهذا الرأى أسبابا ومبررات ، فانه حتى لو تبين أن هذا الرأى هو الصواب بعينه ، يصبح هذا الصواب نفسه كفرا » !

ويقول كوليريدج :

« من بدأ بتفضيل المسيحية على الحق ، لا مفر من أنه سيفضل بعد ذلك كنيسة أو طائفته ومذهبه على المسيحية ، ثم ينتهى بتفضيل نفسه على كل ما عداها » !

ففى كل مرة يتبنى الانسان رأيا دون الاطمئنان الى أسسه وأدلته ، تضعف قدرته على ضبط النفس ، وعلى وزن الأدلة وتمحيصها تمحيصا عادلا موضوعيا . قد أسرق من آخر مبلغا من المال فلا يضار هو من سرقته بسبب تفاهة المبلغ . غير أنه من المؤكد أنى ألحق الضرر بمجتمعى اذ جعلت من نفسى لصا . فانتقال الملكية بالسرقة لا يضير المجتمع بقدر ما يضره أن يتحول الى وكر لصوص فتنتفى عنه صفة المجتمع . كذلك فاننى متى اعتقدت رأيا دون استناد الى أدلة شافية ، وبراهين كافية ، قد لا ينجم عندى ضرر كبير من جراء هذا الاعتقاد ذاته الذى قد يكون سليما . غير أنى بكل تأكيد ألحق الضرر بمجتمعى اذ جعلت من نفسى امرا ساذجا سريع التصديق ، وأضعفت فيها القدرة على التساؤل والاختبار والتحميص ، وأهدرت بذلك آدميتى .

أضف الى ذلك أن اغفالى تحرى الدقة فى تمحيص معتقداتى ، يؤدى حتما الى اغفال الآخرين لتحرى الصدق فيما ينقلونه الى . فالتناس انما

يصدقون القول فى خطابهم لمن يوقر الصدق ازاء نفسه وغيره . وليس من حق احد أن يطالب الآخرين بأن يكونوا صادقين معه وهو غير مكترث للصدق مع نفسه ، ومقبل على اعتناق الآراء لمجرد أنه راغب فى اعتناقها اذ وجدها مريحة له . فهو باستعداده لخداع ذاته قد شجع الآخرين على الخداع ، وبسذاجته وسرعة تصديقه قد جعل من الآخرين كذابين غشاشين . وبالتالي فانه يلحق الضرر بمجتمعه .

أذكر أنى سألت يوما أستاذ علوم بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عما اذا كان يمكن لطالب يعتقد أن الأرض مسطحة غير كروية ، أو أن الشمس هى التى تدور حولها ، أو أن عقل المرأة دون عقل الرجل ، أن يكون طالبا نجيبا فى العلوم أو الرياضيات أو غيرها . فأجاب الأستاذ بقوله انه احتمال مستبعد . فالرأى الفاسد الواحد يعجز وراءه حشدا من الآراء الفاسدة المماثلة . وذلك لسببين : الأول ، أن اعتناق الرأى الخاطئ الأول دون تمحيص فيه دلالة على فساد موقفه من المنهجية العلمية . والثانى ، أن عقائد الشخص عادة ما تكون فى نظام وتلاحم عضوى ، يصعب فيها فصل الرأى عن غيره . ومهما بدا رأى معين تافها هامشيا ولا أهمية له ، فانه يهيم العقل لتقبل المزيد من شاكلته ، ويضعف من قدرته على استقباله للرأى المخالف ، أو للرأى الذى يستند الى منهجية مخالفة ، وبالتالي فهو يسهم فى تكييف طبيعة العقل كله ، ويطبع شخصية معتنقه بطابعه .

### معنى قفل باب الاجتهاد

ان قفل باب الاجتهاد انما يعنى أن تمحيص الأدلة المتعلقة برأى معين لا يجوز أن يتم الامرة واحدة ، وتظل النتيجة بعد ذلك قائمة الى ابد الآبدين . وهو يعنى بالتالى قمع حرية الفكر فى هذا الرأى أو ذاك ، وهى حرية أساسية بالنسبة لتقدم العلوم والفكر والحضارة . ويمكن بسهولة أن يرد

على القائلين بقفل باب الاجتهاد بأنه لو كان تمحيص الأدلة السابق الذى أخذتم به تم على أكمل وجه كما تدعون ، بحيث لم تعد ثمة جدوى للعودة اليه ، لكان بالإمكان أن نجابه بكل أمانة وثقة كل ما يثور من شكوك حول صحة الراى ، وأن نقنع الناس دون صعوبة . أما صعوبة أو استحالة الرد على التساؤلات والشكوك والآراء المخالفة والاجتهادات الجديدة ، فلا تعنى غير أن تمحيص الأسلاف للراى قبل اغلاقكم باب الاجتهاد لم يكن كافيا ، ولا كانت أدلتهم قاطعة ، وبالتالي فليس ثمة مبرر لقفل باب الاجتهاد .

قد يعترض البعض بأن انشغاله وضيق ما فى جعبته من الوقت يحولان دون العناية بتمحيص الآراء ومقارنة الحجج قبل تبنيه اياها . غير اننا نرد عليه بأنه ان كان وقته لا يسمح بتمحيص الراى ، فلا ينبغى أن يسمح وقته باعتماد الراى .

وان دفع بأن الأسلاف كانوا رجالا أفاضل عظاما ومن ثم وجب الاقتداء بهم فى أفعالهم ومعتقداتهم ، اجبنا بأن فضلهم لا ننكره ، غير أن الفضل وحده لا يصلح دليلا على سلامة الراى ما لم تتضافر الأدلة الشافية على صحته . وان النظرة الى آرائهم باعتبارها مجموعة من الأحكام الأزلية ينبغى علينا أن نتقبلها دون نقاش ، ودون اقتناع بالأسباب ، ودون اجتهاد من جانبنا ، لا تنسأ الى أنفسنا فحسب ، وانما نخل أيضا من واجبنا الذى يفرض علينا المساهمة فى البناء الذى سنورثه أبناءنا . وبالتالي فان كل من اعنق الآراء لمجرد أن غيره قد قالها وأخذ بها ، ودون أن يفكر فيها بنفسه ، تضحى شهادته مردودة ، وآراؤه مرفوضة .



## الإسلام في عالم متغير

إذا التغيرات الضخمة المتلاحقة التي يشهدها العالم المعاصر ، تغدو المشكلة المحورية التي يتحتم على المفكرين في العالم الإسلامي أن يحلوها مكان الصدارة في قائمة اهتماماتهم هي :

هل من المصلحة تكييف المفاهيم والقيم الإسلامية وفق الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة ؟ فان كانت الإجابة بالإيجاب ، انتقلنا الى التساؤل : كيف ؟

ونبدأ بنقير حقيقة واقعة قد لا تكون لها صلة كبيرة بالمفكرين : وهي أن المفاهيم والمعتقدات والقيم في أي دين لا تبقى أبدا على حالها . فهي في مسيحية العصر الوسيط تختلف اختلافا جوهريا عنها في زمن الحواريين وعنها في زمننا هذا . وقد ذكرنا في مقال سابق كيف اتجه مساجد أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين – بتأثير صلاتهم بالفرنجة – الى التركيز على الصلة الوثيقة بين دين الإسلام وبين المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، كالحكم النيابي ، والعدالة الاجتماعية والمساواة ، ووضع المرأة ، والعناية بالتعليم والصحة ، الى آخره ، وهي صلة لم تكن لتخطر الا عرضا في أذهان المسلمين قبلهم ، وما كانت لتشغل جانباً كبيراً من اهتماماتهم .

فتطور المفاهيم والقيم اذن حتمى سواء ساهم فيه المفكرون وخططوا له أم لم يفعلوا . غير أنى اعتقد أن هذا التطور ان ترك وشأنه دون تخطيط وتوجيه من جانب الصفوة قد لا يتخذ دائما سمى ايجابيا محدودا . . قد

يسير أحيانا فى الاتجاه السليم : كتوقف عادة خروج علماء الدين والعامه فى مصر الى صحراء القلعة لتلاوة صحيح البخارى وقت ظهور الطاعون ، أو تأخر الفيضان ، لاعتقادهم الساذج أن هذه التلاوة تؤدى الى انكشاف الغمة ، أو سقوط الأمطار . غير أنه قد يسير أيضا فى اتجاه غير سليم : كتفشي ظاهرة تقديس النبى فى القرون الأخيرة بتأثير الفكر المسيحى ، بعد أن كان المسلمون الأوائل يرون محمدا بشرا مثلهم لا يختلف عنهم الا فى أنه يوحى اليه . وفى رأى أنه فى عصرنا هذا الذى أخذت فيه معظم مجالات النشاط البشرى ، من سياسية واجتماعية وثقافية وعمرانية واقتصادية بمبدأ التخطيط والتوجيه ، فإن التخطيط والتوجيه الواعين فى المجال الدينى ليسا فقط ممكنين ، بل ولا غنى عنهما فى عصرنا الحديث من أجل الوقوف فى وجه المفاهيم الضالة ، وتعزيز الاتجاهات الحميدة .

### نقطة الانطلاق

سيكون على هؤلاء المخططين والموجهين أن يتخذوا من الأسئلة التالية نقطة الانطلاق فى مهمتهم :

يعيش مسلمو اليوم فى مناخ حضارى يختلف اختلافا عظيما عن المناخ السائد وقت ظهور الاسلام . فهل بإمكان المفاهيم والقيم التى أفادت أهل القرن الأول الهجرى أن تسهم فى حل مشكلات القرن الخامس عشر ؟ نحن نعلم علم اليقين أن الجانب الأكبر من التوتر والصراعات النفسية يرجع الى التناقض الكامن بين مواقف الأفراد الذهنية وقيمهم الروحية وبين الأوضاع دائبة التغير والتحول فى مجتمعهم . فهل بالاستطاعة ازالة هذا التوتر والتخفيف من حدة هذه الصراعات عن طريق توفير حلول اسلامية لا تتجاهل الواقع الحى ، وتتكيف بهذا الواقع ، وتضفى على الواقع فى نفس الوقت طابعها الروحى الاسلامى ؟ ان اعادة تفسير العقيدة على ضوء التغيرات المستمرة



## - ٢٧٥ -

من أجل مجابتهها مجابهة ايجابية ، أمر لا غنى عنه ان نحن أردنا لهذه العقيدة البقاء . بيد أن تعقد مظاهر المدنية الحديثة ، وتشابك العناصر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية فيها وتأثيراتها المتبادلة ، تجعل من أمر إعادة تفسير العقيدة أمرا بالغ الصعوبة والتعقيد . أفليس اذن من المصلحة أن تتصدى لهذه المهمة جماعة أو لجنة أو هيئة دائمة تضم نخبة لا من علماء الدين وحدهم ، وانما أيضا من كبار الخبراء فى علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وفى علوم التاريخ والمستقبل والتحول الاجتماعى ، والأطباء وعلماء النفس واللغة وغيرهم ، سواء كانوا من العلمانيين أو من غيرهم ، مسلمين أو غير مسلمين ، من أجل المساهمة بمداولاتهم ونتائج نقاشهم فى الوصول الى صياغات جديدة ؟

هذا الاقتراح من جانبى ينبع عن حقيقة بالغة الأهمية : هى أن عالم اليوم بات يشهد سبلا متفرقة عديدة من سبل التفكير وأوجه التخصص ، كل منها له جوانبه الايجابية والسلبية ، وله تأثيره العميق الفعال فى منهجية البحث وإعادة التفسير والصياغة ، وبإمكانه أن يسهم فى سد أوجه النقص الملموس فى السبل الأخرى .

### المداولات

قد يبدأ العلمانيون أو دعاة التغريب والمعاصرة بتأكيد مفهوم « التقدم » ، وضرورة طرح القديم البالى متى شئنا مواكبة المدنية والتفاعل مع روح العصر . وقد يرد عليهم الترائيون والسلفيون بأن فكرة التقدم ذاتها قد باتت موضع شك ، وأن التقدم فى مجال العلم والتكنولوجيا قد صاحبه فساد القيم ، وتدهور فى مستوى الأخلاق وفى الفنون والآداب ، وتفشى مشاعر القلق والتوتر والأمراض النفسية ، وأنه ليس من المفروض أن يكيف الدين نفسه وفق البدع المتغيرة من عصر الى عصر . وقد ينبهنا علماء النفس

الى أن خيبة الأمل الواضحة فى نمط مجتمعاتنا الراهنة ، وفى عصرنا الحديث ، بعد قرن أو قرنين من الايمان المبالغ فيه بأن العلم سيقخلق لنا فى المستقبل عالما أفضل ، هى التى أدت بالبعض الى المبالغة فى حديثه عن عظمة الماضى وروعته ، وفى تأكيده أن القديم أفضل من الجديد لمجرد أنه قديم ، والسلف خير من الخلف لمجرد أنهم سلف ، وأن المصلحة والخير هما فى أن نعيد الى عالم اليوم كافة الأنظمة وأنماط العيش التى كانت سائدة بالأمس . وقد يشير علماء التاريخ الى تطور العقيدة والشرعية فى الاسلام عبر العصور ، وأنه من الخطأ والوهم أن نحسب مفاهيمنا الراهنة عن الاسلام من صميم الاسلام الذى بينه القرآن والسنة الصحيحة ، ويشرحون كيف ادى تطور الأوضاع فى المجتمع الاسلامى الى ظهور اتجاهات مثل التصوف أو تقديس الرسول والأولياء الصالحين ، والى وضع الأحاديث ونسبتها كذبا الى النبى ، وانقسام الجماعة الاسلامية الى مذاهب وفرق ، وكيف أنه لا ينبغى أن نسمح للدخيل على الاسلام مما لا نجده فى القرآن والسنة الصحيحة أن يقف عائقا دون مسايرة العصر ، وأنه بإمكان هذا التحرر من الدخيل ثقيل الوطأة أن يؤدى الى تحرير قدراتنا الخلاقة ، والى التجاوب مع روح العصر تجاوبا لا يخالف التزامنا بالاسلام الحقيقى .

وقد يشرح الترائيون الجدد مدى ارتباط العاطفة الدينية بالتقاليد ، وكيف يؤدى هدم الاطار الاجتماعى للتقاليد الى تبديد المناخ المساعد على اذكاء العاطفة الدينية ، وينصحون بالتالى بالامتناع عن العبث بهذه التقاليد . ولا شك أن غيرهم سيبادر الى سؤالهم عن طبيعة العناصر المكونة للتقاليد : هل هى مجرد توقير القديم ؟ أم هى العادة والمألوف الشائع ؟ وسيرد علماء الاجتماع مؤكدين ارتباط التقاليد بالأحوال الاجتماعية السائدة ، وأن النمط الاجتماعى وشكل الانتاج لهما التأثير الأكبر فى تغذية العاطفة

الدينية واخمادها • ولكن قد يكون من اللازم من أجل التقدم وزيادة الانتاج تغيير الظروف الاجتماعية المقترنة بالتقاليد والعاطفة الدينية • فهل ترون التضحية بهدف زيادة الانتاج ، وبأساليب الصناعة الحديثة ، وبالمدن الكبيرة وغير ذلك ، من أجل الحفاظ على التقاليد ؟

وقد يسفر مثل هذا النقاش عن تراجع دعاة التغريب والمعاصرة بعض الشيء عن مفهومهم عن التقدم المطلق ، وعن اصرارهم على ادراج الظاهرة الدينية فى نطاق هذه الفكرة • وقد يعترف السلفيون بأن العلم والتكنولوجيا يحققان تقدما لا انقطاع فيه ولا انحسار ، وبأنه بإمكان الدين الاستعانة بطرق البحث العلمى الحديثة ووسائله فى تصحيح الأخطاء وتعديل المسار ، وتوسيع نطاق المعرفة ، وإعادة طرح الفروض والنظر فى المسلمات وتصنيف المعارف المتراكمة ، وبأنه من الخطأ أن يقف الدين حائلا دون تقدم العلوم • وقد يقر رجال الدين بعد ذلك بضرورة زيادة الاهتمام بالحاضر والحياة الدنيا ، وبأن حيوية الحاضر تأبى النظر اليه باعتباره موقفا قديما قد تكرر ، وترفض أن يعالج الداء الحديث بعقار قديم • وقد يعترف علماء النفس بأن الانسان فى زمن الوفرة والسلام يميل الى الركون الى فكرة أن الرخاء المادى كفى وحده بتحقيق السعادة والرضا ، وأن الأزمات التى يعانى منها عالم اليوم ساعدت الفرد على أن يدرك أن للمجتمع جذورا فى الروح البشرية هى أعمق مما كان يتصور •

### تنوع المفاهيم والمواقف

وقد تناقش هذه اللجنة أو هذا المجمع موضوع فائدة البنوك ، فينبهرى عالم الدين لطرح مفهومه عن الربا المنهى عنه فى القرآن ، وكيف أنه يعنى اية زيادة فى أصل الدين ، وبالتالي تصبح فائدة البنوك من الربا • وقد يأبى هذا العالم الأخذ بحجج رجل الاقتصاد وما ذكره من مبررات الفوائد

فى النظم المصرفية ، ونفيه أن تكون هذه الفوائد عن الودائع المصرفية التى تفيد الاقتصاد القومى من قبيل استغلال الدائن للمدين ، وهو الاستغلال الذى لا شك أن القرآن توخى الحيلولة دونه بتحريمه الربا . ومع ذلك فقد يقبل عالم الدين حجة عالم اللغة اذ يذهب الى أن الربا فى اللغة هو النمو والزيادة ( كقولنا « فلان يربى ولده » أى يشرف على نموه ) . وحيث أنه لا يعقل أن يكون القرآن قد نها عن أى نمو أو زيادة فى أى شىء ، فلا بد أن تكون الآية قد قصدت نوعا معينا من المعاملات فى الجاهلية ربما خفيت طبيعته عنا ، أو لم تعد معروفة لدينا اليوم شأنها شأن الأنصاب والأزلام . وهنا قد يتدخل المؤرخ فيوضح أن الدائن فى الجاهلية كثيرا ما كان يقبل طالب المدين المعسر فيؤجل موعد الوفاء بالدين مقابل مضاعفة قيمته ، وأن هذه المضاعفة ، لا مجرد الفائدة ، هى المعنية بالتحريم .

وقد تناقش موضوعات أخرى مثل شهادة المرأة ، وما اذا كان من المنطقى فى عصر نالت المرأة فيه قسما من التعليم مساويا لما ناله الرجل منه ، أن نصر على أن شهادة الرجل الواحد تعادل شهادة امرأتين . وقد يثار موضوع حصة الأنثى من الميراث التى هى نصف حصة الذكر ، وما اذا كان من المصلحة على ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية الراهنة إعادة النظر فيها . وقد يطالب الأطباء بالادلاء برأى الطب فى تأثير الصوم على نمو الصبيان وصحة الشيوخ ، ويطالب الاقتصاديون ببياناتهم عن حجم الانتاج خلال شهر رمضان ، وعلماء النفس والاجتماع برأيهم فى عواقب حجاب المرأة ، وسنعود الى الأطباء لسؤالهم عن صحة الزعم بأن نسل المحجبات أضعف من نسل السافرات ، لما لهذا الموضوع من أهمية تتعلق بالتكوين البدنى لأفراد الجيل التالى فى مجتمعنا .

وأكاد أجزم بأن اشتراك عدد كبير من علماء الأمة فى مناقشة

هذه الموضوعات وغيرها ، فى جو من الحرية الاكاديمية المطلقة والصراحة الشامة ، لا يكره تكفير أو سب أو ضيق صدر ، ولا تفسده المزايدة أو الاتجار بالدين أو مراعاة الاتجاهات الفوغائية ، لا بد أن يؤتى ثمارا بالغة الأهمية . كذلك أو من بأن إعادة تفسير المفاهيم والقيم الإسلامية لا يمكن أن تتم على نحو ايجابى فعال الا من خلال جهد جماعى تسهم فيه الخبرات والتخصصات المختلفة لأناس متنوعى المشارب والنزعات ، قد نشأوا مع ذلك فى بيئة اجتماعية واحدة ، هى المجتمع الإسلامى ، فبات يجمعهم - رغم اختلافهم ، وبالإضافة الى وحدة المصير - قدر لا يستهان به من أوجه الشبه والاتفاق .

### التغيير العفوى والتغيير الواعى

وانه لمن المصلحة أن تدرك الكافة ، بادىء ذى بدء ، أن الإسلام لا ينغى ضرورة تغير القيم والمفاهيم بتغير الأزمنة والظروف . فكلمة الإسلام تعنى الإذعان لارادة الله والتسليم بفاياته ، مع العمل على أن تكون هذه الارادة هى العليا . وباستطاعة العالم الواعى الذى يدرس حركة التاريخ وطبيعة التغيرات الطارئة بفرض استشفاف كنه الارادة الالهية ، أن يميز بين الاتجاهات التاريخية الحتمية التى تمثل قضاء الله الواجب الرضا به ، وبين الأحداث والاتجاهات التى تسير ضد تيار التاريخ ، وتقاوم حتميته ، وتمرقل وصوله الى هدفه ، فيدرك أن من واجبه أن يحارب تلك الاتجاهات الأخيرة ، وأن يجاهد فى سبيل الله ضدها ، « حتى تصبح ارادة الله هى العليا » . وعليه فانه يمكن أن نتصور أن يكون بعض الحركات المسماة بالإسلامية فى مجتمعنا ضد ارادة الله ، ( وبالتالي غير اسلامية ويحق لنا مقاومتها ) ، ان هى عميت عن كنه الارادة الالهية الكامنة فى التغيير ، وتجاهلت الحتمية التاريخية ، وأبت أن تغير مفاهيمها على ضوء المعارف المستجدة ،

فى حين يمكن أن تكون جماعات غيرها ، دون ادراك واع منها ، اسلامية حقا ، ان كانت ذات وعى بالاتجاهات التاريخية ، مساعدة بجهدهما على دفعها الى غايتها المنشودة .

وقد أبدى المسلمون الأوائل هممة عظيمة فى سبيل تطوير العقيدة والشريعة والمفاهيم الاسلامية حتى أغلق باب الاجتهاد . ثم زاد الطين بلة ما أدت اليه عزلة المسلمين عن العالم الخارجى فى ظل الدولة العثمانية من جهل بالتطورات الايجابية الهائلة التى حدثت فى أوروبا خلال عصر نهضتها . فكان من أثر هذا الجهل ، مع ما اتصف به مجتمعنا لأكثر من أربعة قرون من سمات الركود والتحجر وقلة التغيرات الطارئة فى كافة نواحي الحياة ، أن ضعفت أو خمدت حاجة المسلمين الى تطوير القيم والمفاهيم والعقيدة . فما فتحت أبواب الاتصال بأوروبا منذ قرابة قرنين حتى ثارت الأزمة الروحية التى ما كانت لتتسم بذلك القدر الرهيب من الحسرة لولا طول أمد العزلة والركود والاحجام عن الاجتهاد . عندئذ نشأ الاحساس لدى الصفوة بضرورة تطوير المفاهيم ، وأدلى البعض كالأفغانى ومحمد عبده بدلوهم فى هذا الشأن . غير أن تلك الجهود الفردية ، مع استنارتها ، لم يجمعها تنظيم ولم يكن بوسعها ادراك أهمية التخطيط الجماعى ، فلم يسفر عنها بالتالى غير نتائج محدودة .

ونحن اليوم مطالبون بخلق أداة للتغيير وللتوجيه العلمى الرشيد ليحل محل التغيير العفوى أو اللاشعورى . ومن هنا تأتى أهمية فكرة المجمع الاسلامى التى أدعو اليها . . سيكون بوسع مثل هذا المجمع بنتائج مداولاته أن يضع حدا لعملية الانسحاب من التاريخ التى ينطوى عليها فكر الجماعات الدينية الرجعية فى اقطارنا الاسلامية . وسيكون من أهم واجباته ، بصفته

مجما اسلاميا ، توفير الاجابات الواضحة الشافية على الاسئلة الخمسة التالية :

● ما هي القيم الاسلامية الاساسية التى ينبغى أن تحكم أى اتجاه الى التكيف والمواءمة ؟

● ما هي طبيعة التغيرات الرئيسية التى يشهدها عالمنا المعاصر ؟

● كيف يمكن مواجهة هذه التغيرات على ضوء القيم الاسلامية الاساسية ؟

● ما هي التعديلات التى ينبغى ادخالها على القيم الاساسية من أجل ضمان كفاءة أكبر فى مواجهة التغيرات ؟

● ما هي حقائق البيئة المتغيرة التى يمكننا قبولها على ضوء القيم الاسلامية ، وما هي الحقائق التى تلزمننا تلك القيم بواجب مقاومتها ؟

غير أن هذا السؤال الأخير يقتضى منا بعض الايضاح :

### حدود التكيف والمسايرة

نعلم جميعا أن الحياة هي عملية مستمرة من التكيف وفق مواقف دائمة التغير . واختيار القيم التى تحكم هذا التكيف جزء لا يتجزأ من هذه العملية . قد يصر علماء الدين على وجوب تطبيق مجموعة من الأحكام مهما تغيرت الظروف وطال الزمن واختلغت الأقاليم . غير أن من واجبهم أن يجيبوا بوضوح ، ما داموا على اصرارهم هذا ، على تساؤلنا : كيف تتسنى اطاعة هذه الأحكام ما دامت الظروف التى سنت الأحكام فى ظلها قد تغيرت ؟ وقد يهب الفلاسفة والملاحدة ينادون بطرح الأحكام والقيم القديمة التى تحول دون التكيف وفق الظروف المستجدة . غير أن من واجبهم هم أيضا أن

يجيبوا بوضوح على تساؤلنا : ألا يعنى التكيف لمجرد التكيف اغفال مفهوم الخير والشر سواء كان هذا المفهوم اسلاميا أو غير اسلامي ؟ ولو كان مجرد التكيف هو المطلوب ، فما معيار التفرقة فى هذه الحالة بين التكيف المسلم وغير المسلم ؟

فى رأى ، أن الهدف النهائى لدى المسلم الحق ليس هو مجرد التكيف حسب ظروف متغيرة زائلة ، أو بيئة محدودة معينة ، وانما التكيف عنده هو مجرد وسيلة لا يقبلها الا ان دخلت فى اطار مفهومه الدينى عن الحياة . فهو يتمسك بمجموعة من القيم الاسلامية يرى لزاما عليه أن يتسلح بها وهو فى معرض حل مشكلات الاستجابة للواقع المتغير ، والبيئة الاجتماعية المتطورة . وهو يعترف بأن نجاحه يستلزم تعديلا هنا وهناك فى هذه القيم . وهو يقبل مبدأ الاقدام على هذا التعديل . غير أنه لا يقبل أن يكون مجرد النجاح فى التكيف هدفا نهائيا ان كان معناه ضياع القيم ، وضياع معنى حياته الاسلامية بضياع القيم . ومن حق هذا المسلم أن يعترض على رأى التحكمى القائل بأنه ازاء التغير والتطور ليس ثمة غير سبيل واحد للتكيف والاستجابة . باستطاعته أن يرد بأنه حتى فى المجال البيولوجى تختلف استجابات الحيوان والانسان لنفس الظروف الاجتماعى باختلاف تكوينهما البيولوجى . فلدى سباع طلق نارى قد يعدو الأرنب هاربا ، وقد يختبئ الانسان وراء صخرة ، وقد يتصلب الضفدع فى مكانه دون حراك . بل ان ثمة اختلافا فى الاستجابة ورد الفعل لدى أفراد النوع الواحد باختلاف تكوينهم السيكلوجى . فقد ينبرى صبى فى شجاعة لمواجهة اعتداء عليه ، وقد يشرع صبى آخر فى العويل أو التوسل متى تعرض لاعتداء مماثل . ولا شك فى أن كل نمط من ردود الفعل هذه هو من قبيل التكيف والاستجابة . وما دمنّا قد اعترفنا بأن التكيف وفق الظروف الطارئ الواحد أنواع ، فلا بد من الاقرار بأنه بالامكان أن نتصور



تكيفا اسلاميا وتكيفا غير اسلامي ازاء التغيرات في الواقع . فالتكيف الاسلامي هو التكيف القائم على اساس من القيم الاسلامية حتى لو اقتضى الحال تعديل بعض هذه القيم . ولن يعنى هذا التعديل تنازلا او تراجعاً او هزيمة كما يدعى المتطرفون المتزمتون . فالمسلم قد يقرر قبول الأوضاع ، وقد يقرر مقاومتها ، ويكون كل من قراره من قبيل التكيف . ومعياره في هذا القبول او هذا الرفض يحدده تفسيره الاسلامي للحياة ، ومفهومه عن السلوك . غير انه لن يتقاعس ابداً عن أداء واجبه الذي يفرض عليه اتخاذ موقف ايجابي واضح من البيئة المتطورة . وهو لن يرضى لنفسه ان ينسحب من التاريخ .

### الاهتداء بالقيم الدينية

ان التمسك بالقيم الدينية هو وسيلة الشعوب الاسلامية لمقاومة فقر الحياة الروحية في المجتمع الحديث . وانما تكمن المشكلة في أن الرجعيين من المسلمين لا يعترفون بقابلية القيم للتكيف والتعديل مع ثبات جوهرها ، ولا يدركون أن الفشل هو مصيرهم المحتوم ما لم يترجموا التجربة الدينية الحقيقية الى لغة الظروف المستجدة ، وأن الشلل او التخریب هو عاقبة كل محاولة لتطبيق الأحكام بصورتها القديمة على هذه الظروف .

وستكون من بين المهام الرئيسية للمجمع الاسلامي المقترح ان يهدى من مخاوف هؤلاء عن طريق بيان انتفاء التعارض بين التمسك بمفهوم القيم وبين الاستجابة لاحتياجات البيئة الجديدة ، وانه ان كانت الأولى هي الكفيلة بتحديد الهدف النهائي من تصرفات المسلم ، فان الثانية تمكنه من المعاصرة ، وتحول بينه وبين الانسحاب ، كما سيكون عليه أن يعرض البدائل الراهنة في ميدان إعادة البناء الاجتماعي للأمة ، ويساعد هذه الأمة على انتقاء ما يراها منه متمشياً مع المفهوم الأساسي الاسلامي عن الحياة ، ورفض ما عداها .

فقد يصل هذا المجمع بعد مداولات طويلة الى اعتراف صريح بأنه ليس ثمة نظم اسلامية مفصلة في مجالى الاقتصاد والسياسة ، رغم زعم الزاعمين وهراء المؤلفين في هذه الموضوعات . وهناك العديد من الأمور مما لا يتناوله الاسلام ونجد لزاما علينا مع ذلك أن نطبقه ونأخذ به . غير أن بوسعنا دائما أن نستعرض البدائل والنظم الراهنة ، وأن نتبنى بعد دراستها ما نرى من النظم الاقتصادية والسياسية أنه أكثرها تمشيا مع روح الاسلام ، وما نفتنح بأنه سيتيح أمام نمط الحياة الاسلامية فرصة أكبر للنمو والازدهار . . أكرر : لن تكون هذه الأنظمة اسلامية ، غير أنها ستخلق من الظروف ما يمكن المسلم فى ظلها من أن يحيى حياة اسلامية غنية .

سيحدد هذا المجمع سلفا للمخططين الاقتصاديين المظالم المنافسة للاسلام التى نريد استئصالها فى ظل النظام الاقتصادى الجديد . وسيحدد للمخططين السياسيين أشكال السلطة المرغوب فيها ومفهومه عن توزيع السلطات ورقابتها . وسيحدد لواضعى سياسة التعليم والمسئولين عن وسائل الاعلام الأهداف التى ينبغى أن يتوخاها المجتمع الجديد . وسيكون على جميع هؤلاء وغيرهم أن يلتزموا بهذه الأهداف عند تخطيطهم للنظم الاقتصادية والسياسية والتعليمية والاعلامية وغيرها . ذلك أنه لا سياسة ولا بناء ما لم نبدأ بمناقشة المبادئ الهادية ، وتحديد الأهداف المنشودة . أما أسلوبنا الراهن فى مواجهة كل مشكلة على حدة ، وكيفما اتفق ، دون مفهوم شامل مسبق ، ودون ادراك للصلة العضوية الوثيقة بين كافة المشكلات ، فلن يجدى فتىلا .

### التحدى والاستجابة

لقد بات مجتمعنا اليوم أشبه شئ بخلية النحل التى فقدت ملكتها . قد نرى النحل مستمرا فى مجيئه وذهابه ، وقد نحسب هذه الحركة حياة .

غير أننا متى اقتربنا من الحلية لتأملها بعناية ، ستهولنا مظاهر الفوضى التي ضربت أطنا بها فيها بعد رحيل الملكة ، والتي جعلت من الأجدى التخلص من الحلية بالقائها طعمة للنيران ، وفي اعتقادي أنه بوسع هذا المجمع الذي أقترح تأسيسه أن يعيد إلى مجتمعنا الإسلامي حقه في البقاء على قيد الحياة بين الأمم النشطة الحيوية المتوثبة حولنا . . . لقد كان من حسن حظنا أن ووجهنا بالتحدي الغربي ، ثم بالتحدي الإسرائيلي ، فأخرجنا الأول من عزلة قاتلة ، وأيقظنا الثاني من سبات عميق . وقد خلق التحدي لنا مشكلة حضارية ضخمة . غير أن المشكلة ليست مستعصية على الحل . . هي إحدى تلك المشكلات التي وصفها نيتشه بأنها ان لم تقتلنا زادتنا قوة . . ولكي لا تقتلنا هذه المشكلة لا بد من التقاء خيرة العقول في كافة المجالات في مجتمعنا في تنظيم كي تنضائر على رسم معالم نظام اجتماعي جديد ، والتخطيط له تخطيطا واقعيا لا هو بالمشالي ولا بالرجعي ، مهتدية بالقيم الإسلامية التي احتضنها المجتمع البدوي في القرن السابع ، والتي يمكن مع ذلك أن نوسع من مفهومها وأن نعدله حتى يشمل البيئة المغايرة التي نعيش فيها في القرن العشرين .

انه لمن الثابت أن الانسان يتأثر شعوريا أو لا شعوريا بنمط الحياة في مجتمعه . فان كان هذا النمط مشربا بالقيم الدينية كان لهذه القيم من الأثر في تكوين الفرد ما يفوق أثر العلاقة الخاصة الانعزالية بين الفرد وربه ، بالنظر الى أن هذا الإثر الأول سيكون من نتاج الإلهام المكشف للأمة كلها ، فيرتفع بذلك مستوى أدائه فوق مستوى أداء الفرد الذي يعتمد على طاقته الروحية وحدها ، ويفقد الخلاص الروحي خلاصا جماعيا .

ومهمة هذا المجمع هي التخطيط لهذا النمط المنشود عن طريق

- ٢٨٦ -

تلاقى الآراء والمواقف والأشكال المختلفة ، وتوفير الاطار الدينى المرن لنمو  
مجتمع حيوى ، يهيئ لهذه الاتجاهات المتعددة فرصة التعايش والتلاقح ،  
وفرصة صياغة نتائج مناقشاتها الحرة فى صورة خطة ، حتى تحول دون  
نهوض القوى المدمرة نيابة عنها بتكليف طباعنا ، وتحديد مصيرنا •

( قال رب السجن احب الى مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن  
اصب اليهن واكن من الجاهلين • فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ،  
انه هو السميع العليم ) •

سورة يوسف ٣٣ - ٣٤

## البيان العاشي لقائد الثورة الإسلامية

باسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم  
الانبياء وسيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه وأزواجه أجمعين •

أيها الاخوة المسلمون :

امسا وقد مضت ثلاثة اشهر على قيام ثورتنا الاسلامية المباركة ، ثورة  
الرابع من شوال سنة الف واربعمائة و ٠٠٠ من هجرة نبينا صلى الله عليه  
وسلم ، وعلى الاطاحة بقوى الشر والظلام وعهد الجاهلية ، وبولاة السوء  
وعدة الطاغوت ، فقد رأينا ان نقدم لهذه الامة التي هي خير امة اخرجت  
للناس ، كشف حساب عما قدمته أيدينا خلال تلك الأشهر ، وما أنجزناه  
وتعزم انجازها فيما تستقبل من الأيام ، بأذن من الله جل وعلا ، وهو القائل  
في كتابه العزيز ( وما نشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين ) • صدق الله  
المعظم • فان كنا قد نسينا أو اخطانا ، فما على الناصحين الأبرار من أبناء  
هذه الامة الا أن يتبهونا ويقوموا خطانا ، وهو ما كان الصديق أبو بكر  
وصاحبه الغاروق عمر رضی الله عنهما يوصيان الرعية به ، ويحذانها عليه •  
وانا لعل نهج المعمرين وسنة الصحابة والسلف الصالح سائرون بأذن الله  
ونوفيقه ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون •

غير أنى بادیء بالقول ان الفتنة التى أطحننا بالآلاف من رؤوسها خلال الشهر الأول من ثورتنا المباركة ، قد عادت مؤخرا تطل بوجهها الكئيب من جديد . وانى والله لأرى رؤوسا أخرى قد أينعت وحان قطافها ، وانى لصاحبها . ( وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ) . فان كنا قد أفلحنا بتوفيق من الله وفضله فى أن نستأصل فى الأسابيع الأولى شأفة العلمانيين والدنيويين ورؤساء أهل الذمة والفنانين والملاحدة والشيوعيين والاشتراكيين والناصريين والوفديين وغيرهم من أتباع المذاهب الضالة الهدامة ، فاسترحنا بذلك وأرحنا ، فقد بدأت تظهر مؤخرا وجوه كئيبة كثيرة من طوائف أخرى لأناس كنا نحسبهم من أنصار هذا العهد ، ومن أتباع هذا الدين القويم ، بل وكانوا من أقرب المقربين إلينا وتولوا فى ظلنا وبرضانا رفيع المناصب ، وأسندنا إليهم جليل المسؤوليات ، فاذا الآنقة بحمد الله تسقط ، والحقيقة برحمته تستبين ، وإذا هم من أشرس أصحاب البدع ، وأخطر القائلين بالضلالات والترهات ، وأحرص الناس على حياة ، وعلى السلطان والجاه ، دون حقيقة الاسلام ، ومصالح هذا النظام . ( وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين ) ، ( يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ) .

وقد تطرق الظن الى بعضكم ، بل وأعلم على اليقين أن أفرادا منكم قد شرعوا يتهامسون فيما بينهم ، بأن تصدعا قد طرأ على قيادة الثورة الاسلامية المباركة ، وبأن الخلاف والشقاق قد دبا بين أفرادها ، وذلك لمجرد أننا قمنا خلال الأسبوع الفائت بأعدام حفنة أخرى من المارقين العصاة فى هذه القيادات ، فى حين أن عددهم لا يتجاوز ألفين وثمانمائة فى جميع محافظات القطر . ( فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ) . وأحب أن أطمئن المسلمين الأبرار من المستمعين الى أن قيادة هذه الأمة فى خير ، وعلى ما تحبون

ونشهنون ، وأن المحنة الأخيرة التي اجتازتها قد زادت صلابة وقوة ،  
ونضامنا وعريضة ، وإلى أننا قد لا نلجأ إلى المزيد من التطهير على مدى الأسابيع  
الثلاثة أو الأربعة القادمة .

وقد بلغنى من جهاز مباحث أمن الدولة أن بعضكم قد استنفع بالأخص  
إعدام الشيخ صالح الغرماوى من بين من أعدموا فى الأسبوع الماضى ،  
ورغم ما يزعمونه عن اضطلاعهم بدور هام فى سبيل انجاح الثورة الإسلامية ،  
ورغم توليه لمنصب رئيس الوزراء مدة شهر كامل من عهدنا ، وما بدا من  
تمتعه بنفنا . وسيأتى عن قريب الوقت الذى نشرح فيه لهذه الأمة الطيبة  
طبيعة ذلك الدور ، الهام ، المزعوم ، ونضع أمامها كافة الحقائق مدعمة  
بالتوثيق والمستندات والسجلات السمعية والبصرية . ( فلا تأس على  
القول الفاسق ) . ويكفينى الآن أن أذكر أنه قد ثبت فى التحقيق الذى دام  
يوما كاملا سابقا على إعدامه ، أنه كان عميلا لدولة أجنبية من حزب الشيطان  
ليس من المصلحة أن أدلى الآن باسمها . وأن جنود الشرطة الإسلامية  
حين دهموا داره ليله القبض عليه عثرت فيها على إيصالات بالمبالغ التى كان  
يتقاضاها من تلك الدولة ، ( وتحت يدي هذه الإيصالات التى ستشهر  
الصحف صورا لها صباح غد باذن الله تعالى ) كما عثروا من بين ما عثروا  
عليه ، ربا للخزى والحسرة ، على زجاجات خمر وأشرطة فيديو لأفلام جنسية  
فاضحة ، وغير ذلك من الأشياء التى تحمر الوجوه لذكرها ، ويندى لها  
الجبين ، ونائب الألسنة أن نتحدث بها . وقانا الله شر الزيع والجحود ،  
وأعاننا على فضح النفاق وأمله ، أنه سميع مجيب . ( وإذا لقوا الذين  
آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون .  
الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ) . صدق الله العظيم . . .  
وقد أبى الشيخ - لا رحمه الله - أن يعترف بما اقترف حتى حملناه حملا ،

وبوسائل ضغط معينة ، على الادلاء باعتراف كامل قبل اعدامه ، وهو اعتراف مسجل بصوته ، او صوت قريب من صوته ، وسيذاع عليكم خلال ايام باذن الله جل شاناه ، حتى تكون الحقائق كاملة امام هذه الامة الطيبة . ( وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فامكن منهم ، والله عليم حكيم ) .

اما عن خلافنا مع طه البديعى نائب الرئيس الذى اعدمناه هو ايضا عقب صلاة الجمعة الماضى فى ميدان الفاروق عمر ، فيرجع فى الحقيقة الى اختلافه فى الراى معنا حول موضوعات حيوية شتى هى لصيقة بجوهر الدين ومن اركانه . فقد افتنى هذا الفاسق الفاسد المبتدع ، خلال الاسابيع الاخيرة من حياته ، بان صبغة اليهود لا تنقضى الوضوء ، وبان ظاهر قدم المرأة ليس بعورة ، وبان اقتناء الصور الشمسية لأدميين لا غبار عليه ( فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين ) وائى لأصارحكم بكل هذا لكى يدرك اخواننا الى أى حد قد بلغت بهذا الاستاذ جراته على الله وعلى هذا الدين ، رغم كل ما ورد فى الأحاديث الشريفة وأقوال الأئمة والسلف الصالح فى هذه الأمور وغيرها من نصوص صريحة لا تقبل التبديل ، ولا تحتل التجريح والتعديل . ( واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون . ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ) . صدق الله العظيم .

على أى حال فقد أراحنا الله وأراحكم من هاذين المارقين وأمثالهما ( انا كفييناك المستهزئين ) . وما دام منطلقنا فى الحكم هو اطاعة أحكام الله والالتزام بالشريعة الفراء ، فان ضميرنا هادى مطمئن ، وسريرتنا نقية طاهرة ، وعزمنا أكيد وطيد ، على اجتناب جذور كل معارضة لهذه الأحكام ، وكل انحراف عن هذا الالتزام . ولن يزعجنا ان ينزعج الكثيرون منكم لشنق بعض المسمين ظلما وجهلا بالمفكرين الاسلاميين من امثال طارق البشرى



وعادل حسين وغيرهما ، ممن يظن الغافلون أنهم كانوا يدعون قبل ثورتنا المباركة في حماس الى تطبيق احكام الشريعة ، وارساء دعائم نظام اسلامي .  
فقد اتضح لنا على نحو قاطع لا يقبل الشك أنهم كانوا يتسربلون بزى الدين ،  
وينتحلون سمات المؤمنين المثقين ، وهو ما يجعلهم في الواقع أخطر على هذا  
الدين المتين من أولئك العلمانيين الذين أعدمتهم في ميدان الخلفاء الراشدين  
خلال الأيام الأولى لثورتنا البيضاء ، من أمثال زكي نجيب محمود ، ويوسف  
ادريس ، وفؤاد زكريا ، ولويس عوض ، والفريد فرج ، وفرج فودة ،  
وحسين أحمد أمين ، لعنة الله عليهم أجمعين . ( واذا قيل لهم آمنوا كما آمن  
الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء . ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ) .

ولن أخفي عليكم أن بعض هؤلاء المسمين بالتراثيين الجدد الذين أعدمتهم  
مؤخرا بلغت به القحة حد المطالبة ببعض حقوق الانسان للذميين من أقباط  
مصر ، وأن البعض الآخر كان يتفوه في مجالسه الخاصة بأقوال توحى بأنه  
لا يقيم وزنا كبيرا لاطلاق اللحية ، ويلمح من بعيد الى أنه من غير المصلحة  
الانشغال في الظروف الراهنة بطول الجلباب ، وأنه يحل للمرأة أن تظهر من  
نقابها عينين اثنتين لا عينا واحدة !! ( أنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى  
به اثما مبينا ) . ثم أترك لكم بعد ذلك يا اخواني تقدير ما اذا كان من مصلحة  
هذا المجتمع الاسلامي الجديد ، أم من غير مصلحته ، أن أحبيه وأقيه من  
الفتنة بالقضاء قضاء مبرما على هؤلاء الذين يبغيونها عوجا .

يطالب بعضهم بحقوق الانسان !!! وكان للانسان - والعياذ بالله -  
حقوقا في مواجهة خالقه !! وكان للانسان حقا في حرية أن تكون له آراء  
تخالف ما أجمعت عليه هذه الأمة التي لا تجتمع على باطل ، وفي أن يتبنى  
عقيدة تستنكرها عقيدتنا ، وفي أن يعبر عما يراه مما لا نراه نحن ! هي

- ٢٩٢ -

حقوق مزعومة لا أصل لها غير بدع الفرنجة وأوهامها وأباطيلها ، قد آمن بها بعض المضللين السفهاء منكم بهرته الحضارة الغربية التي هي من حبال الشيطان ومصادمه ، ومن مؤامرات الغرب ومكائده ، واغتر بها كما اغتر من قبل بمفاهيم الديمقراطية والحرية والمساواة والحياة النيابية والحزبية ، وكلها أمور ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا أساس لها من الشريعة . وبالتالي فانه على الأبرار المتقين من أبناء هذه الأمة أن ينسوها ، وأن يضعوها دبر آذانهم وتحت أقدامهم ، رغم كل غوايات الغاوين ، وألغيب العلمانيين الملحدين المتفرنجين ، وألا يعودوا الى ذكرها والتفوه بها . ( يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ) .

خلاصة القول أننا لن نسمح لأحد بأن يعطل من مسيرتنا ، وأن يحولنا عن طريقنا وكعبتنا . وقد أغنانا الاسلام عن اقتباس النظم من الأمم حولنا ، ووجدنا في القرآن الكريم والسنة الشريفة كل ما بوسعنا أن ننظم شئوننا ، وكافة تفاصيل حياتنا وأمورنا . ولن يجعلنا حديثهم الأجوف عن الديمقراطية وحرية الصحافة وحق تكوين الأحزاب وما شابه ذلك ، ( وكان بوسعنا أن نسمح في دولتنا بقيام حزب غير حزب الله !! ) ، نحل ما حرمه الله ، أو نحرم ما أحله . أعاذنا الله وإياكم من هذا الشر ، وأسعدنا جميعا بطاعته ورضاه .

وقد تمادت ببعض الماكريين الحثباء من رعيتنا الجراءة حتى همسوا بأننا في عهد الجاهلية ، وأثناء اشتغالنا بالجهاد الأكبر من أجل إسقاط نظام الحكم السابق ، قد أفدنا في جهادنا من ديمقراطية الجاهليين ، ومن حرية الصحافة والتعبير في ذلك الحين ، ومن احتلالنا للمقاعد في مجالسهم النيابية ، ومن حق إصدار الكتب والصحف والمنشورات الاسلامية ، فتمكنا بفضل ذلك كله من التغلغل في صفوف الأحزاب والنقابات والجيش والشرطة

- ٢٩٣ -

والاتحادات الطلابية ، ومن نشر دعوتنا على أوسع نطاق ، وفي جميع الآفاق . وهم ينعمون علينا أننا الآن قد تنكرنا لهذه المبادئ التي كنا نصر عليها ، وأدركنا ظهورنا للديموقراطية والحرية ، بحلنا للأحزاب ، وإغلاق الصحف ، وإحراق الكتب ، ومصادرة الرأي ، وفرض الرقابة ، واستئصال المعارضة ، وسجن المخالفين لنا في العقيدة ، وإعدام المناوئين للنظام ، في حين كان من واجبتنا - في زعمهم - أن نسمح لحصومنا في عهدنا بما سمحوا به لنا في عهدهم . ( قالوا إنما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون ) .

غير أني قائل لكم أن الغدر بأهل الغدر وفاء عند الله ، وأن الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله . فإن كل رجال العهد البائد من السذاجة بحيث أتاحوا لنا من الحقوق ما أتاحوا ، وأباحوا لنا ما أباحوا ، فتمكننا بذلك من قهرهم وقلب نظامهم ، وإقامة حكم يرضاه الله ، فلسنا من السذاجة أو البلاهة بحيث نتيح لهم نفس الحقوق التي قد تمكنهم من العودة بامتنا إلى ظلمات الجاهلية . ( وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ) . صدق الله العظيم .

والخلاصة أني قد سئمت من نقد المنتقدين ، وهمسات المستنائين الساخطين ، وغمزات أعداء الدين . ( وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ) . وإنما تجيء غمزاتهم وهمساتهم في الوقت الذي نكرس فيه كل طاقاتنا وجهدنا من أجل تحرير فلسطين ، وإقامة دعائم نظام يرضى عنه الله وجمهور المؤمنين . فنحن اليوم في خضم معركة حامية الوطيس ، ولن نسمح لأي صوت بأن يعلو فوق صوت المعركة . ( فاتقوا الله وأطيعوه ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ) . ولا أريدكم أن تفهموا من قولي هذا أن نظامي لا يسمح بحرية النقد على إطلاقها . فالحق فيه مقبول ، بل ومطلوب ومكفول ، ولكن . . . ولكن شريطة أن يكون نقدا بناء مهذبا ، سليم النية نبيل الهدف ، استلامي المضنون ، صادرا عن

تتوافر فيه أهلية النقد ونراه أهلا له ، لا نقد الحاسدين الهدامين المتورين  
البؤساء . ( واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا  
وأطعنا ، واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور ) . ونحن هنا - كما سبق  
القول - على سنة الصديق أبى بكر والفاروق عمر رضى الله عنهما ، واحسن  
اليهما ، وجزاهما عن أمة الاسلام خير الجزاء .

ولعله من الخير أن أذكر لكم الآن أمثلة من هذا النقد الحبيث الهدام ،  
حتى تدركوا معنا مدى اجحافه بنا ، وافتئاته علينا :

فالبعض - لا رحمه الله - كان يذهب قبل اعدامه الى أن الآمال العريضة  
التي كانت معقودة بثورتنا قد خابت وتعثرت . ( كبرت كلمة تخرج من  
أفواههم ان يقولون الا كذبا ) . وقالوا ان الوعود التي كنا فى زعمهم ، نكيلها  
كيلا ، باستئصال الشرور كافة ، وتحقيق الرخاء ، واقامة المجتمع المثالى ،  
لم تتحقق . كما ذهبوا الى أنهم انما منحونا تأييدهم ، وشاركوا فى الثورة  
والاطاحة بالعهد البائد ، أملا منهم فى رفع مستوى معيشتهم ، ورفع المعاناة  
عنهم ، فاذا هذه الآمال تتبدد ، واذا بالمشاكل والمتاعب والمعاناة هي فى زعمهم  
قائمة لم تزل ، بل وتتفاقم وتتعمد .

وأبادر بالرد على هؤلاء المفترين الجاحدين الكاذبين ( رغم أنهم الآن فى  
العالم الآخر ) ، بأنه لم يحدث أبدا أن أدليت بمثل هذه الوعود التي يتحدثون  
عنها ، وانما هي وعود وردت فى كتب لمفكرين سذج كسيد قطب ومحمد  
قطب ، كانوا غافلين عن واقع الأحوال وملابسائها ، غير مدركين لمدى تعقد  
المشكلات وصعوبة حلها ، واقتضاء هذا الحل لسنوات طوال . كذلك فقد كان  
ثمة من الحبثاء سيئى النية والطوية من كان يتظاهر فى زمن الجاهلية بأنه  
معنا وفى صفوفنا ، وهم فى قرارة أنفسهم من أعداء الاسلام ، فكالوا  
الوعود فى كتاباتهم ، وصوروا للناس أن معاناتهم وكافة المشكلات ستزول

— ٢٩٥ —

فى غمضة عين متى قامت الثورة الاسلامية ، وكان هدفهم الحقيقى الحبث أن يصاب الشعب بخيبة أمل قاتلة متى رأوا الأمور باقية على حالها بعد تأسيس النظام الاسلامى ، فيدفعهم السخط والاستياء الى قلب نظام الحكم ، أو الاستخفاف بالدين ، والشك فى قدرة الجمهورية الاسلامية على تحقيق الرخاء والرفاهية . . . . . كذا كان هدفهم ايها الاخوة المؤمنون . ( فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب آليم بما كانوا يكذبون ) .

وقد اثبتت التحقيقات التى أجرتها أجهزتنا ، وأشرفت عليها بنفسى رغم كثرة أعبائى ومشاغلى ، أن بعض هؤلاء كانوا عملاء للصهيونية العالمية ، فاستاصلناهم واسترحنا من شرهم وفتنتهم . ( والله لا يحب المفسدين ) . . . . . غير أنى شديد الثقة فى حكمتكم وقدرتكم على أن تروا فى وضوح وجلاء أنه من قبيل البلاء والغفلة أن يظن امرؤ أنه بالوسع بضربة واحدة ، وبين غمضة عين وانتباهتها ، ازالة كافة ما كنا نعانى منه اثناء حكم الجاهلية ، وأن يحل النظام الاسلامى فور قيامه ما ورثه عن العهد البائد من تركة ثقيلة ، من مشكلات الاسكان والمجارى ، والكهرباء والمياه ، والصناعة والزراعة ، والتعليم والصحة ، والادارة والبيروقراطية ، والفقر والامية ، والغذاء ونقص السلع الاستهلاكية ، الى آخر ما تعرفون من المشكلات .

فان كنت فى بعض البيانات الاولى التى أدليت بها بعد الثورة ، خاصة البيانات أرقام ١ و٢ و٣ و٤ و٥ و٩ ، قد أثرت بعض الآمال فى تحسن بعض الأحوال ، ووعدت بإزالة بعض المظالم ، وتحقيق بعض الاصلاحات ، فان لدى من الشجاعة والصراحة ما يمكننى من أن أعترف الآن بأننى لم أكن فى ذلك الحين ، بسبب كثرة مشاغلى وبياناتى الى الامة ، قد أجريت دراسة وافية دقيقة لهذه الموضوعات ، ولم يكن زملائى من الحبشاء الذين استاصلنا شأفتهم قد اطلعونى قبلها على كافة الملابس والتفصيلات والأرقام والبيانات .

- ٢٩٦ -

أما الآن فهي في متناول يدي . وقد أتضح لي ، بعد القاء نظرة عايتها ، أن الأمر ليس بهذه السهولة والبساطة التي يتصورها البعض ، وأن الحل يحتاج إلى زمن طويل ، وجهد جهيد . ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . فالصبر الصبر ! والجلد الجلد ! . قال تعالى ( واصبر وما صبرك إلا بالله ) ، وقال : ( واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ) ، وقال : ( اني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ) ، وقال : ( سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ) . صدق الله العظيم .

غير أني قائل لكم ، رغم كل هذا ، ان الأزمة الاقتصادية زائلة باذن الله ، والمعاناة سترفع عن كاهلنا بعون منه وتوفيقه ، متى صبرنا وصابرنا وثابرنا . اذ أنه من المحال ومن غير المعقول أن يترك الله عباده المخلصين ، ومجتمعنا الاسلامي الرشيد ، في كرب وضائقة دون أن يجعل لنا منهما مخرجا . ( ان ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا ) . وبوسع جلت قدرته ، متى رأنا قد قضينا قضاء مبرما على أعداء الاسلام ، ولم يعد بين ظهرانينا غير المؤمنين الصادقين ، أن يمدنا بجنود من عنده ، وأن يكشف لنا في أرضنا عن حقول نفط دونها حقول نفط دول الخليج ، وعن كنوز قارون وكل مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، فنباهي بهذه النعمة الأمم ، ونقيمها دليلا أكيدا على رضوان الله ورحمته ، فتبادر الأمم والشعوب بالدخول في الاسلام أفواجا ، اذ رأوا البرهان المكين على صحة هذا الدين .

ثم ثمة أفراد تفساء في هذا البلد الأمين قد ساءهم - ويا للمهزلة ! - أننا قد أغلقنا المسارح والمتاحف ، ودور السينما والملاهي ، وكافة أوكار الموبقات والفواحش ، وبلغ بهم السفه والفحمة حشد التعبير عن الاستياء اذ قصرنا برامج الاذاعة والتليفزيون وأعمدة الصحف والمجلات على المواد

الدينية ، ومنعنا التفتى بغير التواشيع ، والكتابة الا عما يعزز الايمان ،  
والحديث الا فيما يزلزل الباطل . وهم يدعون أنهم رغم ايمانهم وتقواهم فى  
حاجة الى ساعة للقلب حاجتهم الى ساعة للرب . . . وانى أرد على هؤلاء  
السفهاء بجملة واحدة لا غير ، فأقول : ان كل الساعات للرب لا شريك له .  
( وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل انهم كانوا فى  
شك مريب ) . أما الأغاني التى هى مفتاح الزنا ، والرقص الذى لا يفيد  
غير اثاره الشبهوات ، والتمثيلات التى هى من جبال الشيطان ، والأفلام  
التي هى من مكائد الفرنجة ، والقصص والروايات والمسرحيات التى تلهى عن  
ذكر الله ، فانا لها لقامعون ، ولشافتها مستأصلون ، ولجذورها لمجتثون ،  
ولرجالها ونسائها لرادعون وكابحون وكابتون .

وقد كان بفضل الله من عواقب قرارنا هذا الذى لم نبشغ باتخاذ  
غير وجه الرحمن وحده ، آثار جانبية عادت على مجتمعنا بالخير من حيث  
لا نقصد . . . ذلك أنه اذ عزف الكفرة الملحدون عن الاستماع الى الاذاعة  
ومشاهدة التلفزيون ، واذ بات الكثيرون ياءون الى فراشهم فى ساعة مبكرة  
من المساء لضيقهم ببرامجنا الدينية الرشيدة ، خف الضغط على استهلاك  
الكهرباء ، وهو احدى المشكلات المستعصية التى كنا نعانى منها فى العهد  
البائد . كذلك فان اغلاق المسارح ودور السينما واللهو ، والكازينوهات  
والمراقص والمقاهى ، ومحلات تصفيف الشعر ، وعدد كبير من المتاجر  
والمكتبات وبيوت الأزياء ، الى آخره ، كان من شأنه ان يخفف الضغط على  
استخدام وسائل المواصلات ، اذ لم يعد لدى الغالبية من افراد الشعب أدنى  
رغبة فى الخروج من ديارهم . . . وكلنا يعلم كيف كان حال المواصلات فى  
زمن الجاهلية ، وكلكم يلمس ما طرأ عليها من تحسن ملحوظ ، وهو ما اعتبره  
انجازا من أعظم انجازات الثورة المباركة ، ان لم يكن أعظمها طرا . ( فاعمل  
اننا عاملون ) . صدق الله العظيم .

والبعض ينعى علينا أننا بعنا لدول أجنبية آثار الفراعنة الجاهلين  
وتماثيلهم ومعابدهم وهياكلهم ، ويتكلفون الحزن والاسى ، ويتباكون على  
تراث يدعونه بالمجيد .. مجيد حقا !! الأصنام التى أمرنا الله تعالى بهدمها  
تراث مجيد ! والمعابد التى أقاموها ليعبدوا فيها الشيطان تراث مجيد  
وصور النساء عاريات الصدور والرجال مكشوفى العورات تراث مجيد  
نعم ! غير أنى سائل هؤلاء الباكين المحزونين : هل ترك المسلمون أصنام  
الجاهلين قائمة بعد فتح مكة حرصا منهم على الإبقاء على تراث الأقدمين ؟ ألم  
يسمعوا بقوله صلى الله عليه وسلم الوارد فى سنن ابن ماجه « لا تدخل  
الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » ؟ فكما أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه  
تمثال أو صورة ، فأنها لا تحل ببلد فيه صور أو تماثيل .. وقد اقتضت  
حكمتنا ألا نكسرهما أو نحرقها ، وأن نبيعهما بدلا من ذلك الى دول كافرة  
لا ترى بأسا فى اقتنائها ، ( وأكثرهم لا يعقلون ) لتعرضها فى متاحفها ،  
وتزين بها ميادينها ، فتزيد رؤيتها أبناءها غواية على غوايتهم ، وضلالا على  
ضلالهم ، ونشيد نحن بالأموال التى بعناها بها المساجد التى يعمرها  
جمهور المصابين ، ودور السكن اللائقة بقيادة الثورة العاكفين على خدمة  
وحماية هذا الدين .

ويقودنا ذكر دور السكن هذه الى الحديث عن شكوى بعض الخبثاء من  
أن قادة الثورة يوسعون على أنفسهم ، فاتخذوا من قصور رجال العهد البائد  
سكنا لهم ، واقتنوا السيارات الأنيقة ، والتحف الثمينة ، ولبسوا اللين من  
الثياب . وهم فى اتهامهم هذا لنا يستشهدون بآية ( أتأمرون الناس بالبر  
وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ) . وإنى أرد عليهم بأن الشيطان  
بوسعه أن يقتبس ويستشهد بما شاء من الكتاب المقدس لاثبات حجته !  
ثم انى لسائلهم : ألم يسمعوا فى حياتهم تلك الآية الكريمة ( قل من حرم



زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ) ؟ ثم انى لسائلهم  
ومفحمهم : اليس أتيق النيساب والمسكن والمركب والمأكّل والمشرب من  
الطيبات من الرزق ؟ ثم يكفينى أن اذكر أن هذه الاموال التى ننفقها على  
انفسنا ليست من اموال الشعب كما يدعون ، وبالتالى فانه ليس لأحد من  
ابناء رعيّتنا فيها نصيب . فهى من الاموال التى يرسلها اليّنا شخصيا بعض  
الأكابر الفضلاء من بعض دول الخليج ، كى نستعين بها فى حياتنا  
التي كرسناها لنشر تعاليم الاسلام واعلاء صوته ومكانته فى الدنيا بأسرها .  
وهى ليست كاموال هؤلاء الطاعنين فينا والمؤلبين علينا مما توافيهم بها  
، وسكو الملحة ، اموال كرسست لهدم الاسلام كما كرسست اموال دول الخليج  
لخدمته . ( وما يانيهم من نبى الا كانوا به يستهزئون . فاهلكنا اشد منهم  
بطشاً ومضى مثل الاولين ) .

ويدعى هؤلاء الماركسيون الشيوعيون والاشتراكيون والناصريون أن  
مذهبنا نحن ، لا مذهبهم هم ، هو الهدام الضال . وقالوا اننا هدمنا نظم  
التعليم ، ومنعنا تدريس اللغات الأجنبية ، وقتلنا السياحة الى بلادنا ،  
واحرقنا الكتب ، وقضينا على حقوق القبط ودفعنا المثقفين الى الهجرة من  
ديارنا ، واهدنا آدمية المرأة ، الى آخر افراءهم واكاذيبهم وضلالاتهم .  
( يريدون أن يطلعوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره  
الكافرون ) صدق الله العظيم .

وانى لمجيبهم : اجل هدمنا نظم تعليم الجاهلية التى كانت تنفث  
سمومها وبرهاها فى عقول ابنائنا ، وتلقنهم نظريات دارون وكوبرنيكوس  
وجايليو ونيوتن واينشتاين ، مما يخالف ما أتى به القرآن ، ويشغل  
العقول بعلوم لا يرضى عنها الرسول ، واقمنا نظم تعليم تحل فيها مكان  
الصدارة كتب القسطلانى ومولى الشمرراوى ، وابن تيمية وعمر

عبد الرحمن ، وابن حزم وعبد الحميد كشك . . . أجل منعنا تدريس اللغات الأجنبية واستيراد كتب الفرنجة ، وأحرقنا الآلاف المؤلفات من المجلدات . غير أننا إنما فعلنا ذلك وقاية وحفظا لعقول أبناء هذه الأمة من أباطيل خصوم الاسلام . فان كان نظامنا قد أبعد السياح الأجانب عنا ، فانما ذلك فضل من الله ورحمة ، اذ وقانا شر أجانب لا حياء لديهم ولا خلق لهم ، يسرون بالشورت فى طرقاتنا ، وتكشف نساؤهم عوراتهن على شواطئنا ، ويتعاطى جميعهم المنكر جهرة وعيانا ، فيفسدون بذلك من أخلاق شبابنا ، ويطاون بأقدامهم تقاليدنا ومقدساتنا . فان كنا قد حرمتنا بابتعادهم من دخل تأتى به السياحة ، فليست الايرادات وزيادة الدخل القومي بالغرض من هذه الحياة الدنيا الفانية . ( وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ) . وانما غرض الحياة وهدفها طاعة الرحمن ، لا السير فى طريق الغواية والشيطان . ولسنا بآية حال من الأحوال ، ومهما عانينا من الفقر وتدهور الاقتصاد وانخفاض الدخل ، بهاجرى ديننا من أجل حفنة من الدولارات ! ( ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون ) .

فأما عن القبط وشكواهم من إعادة فرض الجزية عليهم ، وحرمانهم من حق الدفاع عن الوطن ، ومنعهم من تولي المناصب الرئاسية فى أى من الميادين ، ومن بناء الكنائس الجديدة وترميم القديم منها ، فأمر بها الدين ولا نملك الا الانصياع لها وان كره الكافرون . ( ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ) . صدق الله العظيم . كذلك فقد أمر المرأة بأن تقر فى بيتها . فان كره البعض قرارنا بحرمان النساء من الحقوق السياسية ومن حق العمل ، وقال ان

- ٣٠١ -

نصف أفراد المجتمع قد أخرجوا بذلك من ميادين الانتاج ، قلنا ان هذا هو تفسيرنا لمعنى الآية الكريمة ، وليس بوسعنا ان نسمح بغير تفسيرنا مما يريد السفهاء الأخذ به . . . ( ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ) وأضيف الى ذلك أنه وان كان نصف أفراد المجتمع قد أبعدوا بقرارنا هذا عن ميادين الانتاج ، فقد أبعد أيضا عن وسائل المواصلات العامة والشوارع ، حيث كانت النسوة يزاحمن الرجال ، وكلكم لمس ما طرأ من وقتها على هذه المواصلات من سهولة ويسر ، وقلة عدد المسارة فى الطرق ، وهو ما سبق أن ذكرته أنه من أهم انجازات الثورة .

وأما عن قولهم ان الآلاف المؤلفة من المثقفين قد اختارت الهجرة من البلاد ، وأن العمل بالادارات الحكومية وغير الحكومية قد تأثر بهجرة «العقول» والكفاءات وتدهورت نوعيته ، فانى ذاكر أنه لا رغبة لدينا فى أن يبقى بين طهرانيين وفى هذه الأمة المسلمة هؤلاء العلمانيون الملحدون المعارضون المدعوون بالمثقفين . ويكفينى هنا أيها الأخوة المؤمنون أن أشير الى أنه ما من دين واحد من بين كافة الأديان السماوية قد وعد بالجنة المثقفين ، أو أورد كتابه المنزل ذكرهم . وانما ذكرت الكتب السماوية المثقفين لا المثقفين ، ووعدتهم بجنات النعيم . وعلى أى فائنا نحن أحوج الى أهل الثقة منا الى أهل الخبرة . وعلى الله توكلنا وهو خير الحافظين ونعم الوكيل . فان شاء المزيد منهم الهجرة فهنيئا لهم بها ، وبالعيش فى مجتمعات الشياطين وأمم الجاهلين . وليصحبوا معهم من شاء من أهل الذمة ، والنساء الفواجر ، والموسيقين والممثلين ، وكتاب المسرح والروائيين ، والرسامين والنحاتين ، وكل من ساءه تطبيق أحكام الشريعة الغراء وتوقيع الحدود . غير أنى محذرهم من أننا متى علمنا أنهم يستغلون اقامتهم فى دول المهجر للاساءة الى سمعتنا ، والتنديد بنظامنا ، والافتراء على شخصنا ، فان لله جنودا

- ٣٠٢ -

بمقدورهم أن يصلوا اليهم ، وأن يريحوا الاسلام منهم ، ولو كانوا فى اقصى الأرض أو فى بروج مشيدة • وعلى أى حال فاننا لا نقيم وزنا ولا نلقى بالا لما قيل ويقال وسيقال عنا خارج قطرنا • وقد استنكروا فى الشرق والغرب بالفعل قطعنا ليد السارق والسارقة ، وشنق العلمائين والملاحدة ، ووصفوا نظامنا بالهمجية ، ورجاله بالوحشية • وانا والله لا نعبأ بما ينعنوننا به من صفات ، ولا نقيم اعتبارا لغير رضا الله وطاعته • ( ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ) صدق الله العظيم •

ويشكو البعض من أن أواصر الحياة العائلية فى قطرنا وفى ظل نظامنا قد بدأت تتفكك وتضعف اذ نكرر وصيئتنا لشباب حزب الله أن يبادروا بإبلاغ المباحث العامة عما يحاك فى محيط أسرهم من مؤامرات ضد الدين ، وعمن يهجر الفروض كالصوم والصلاة من الآباء والأمهات ، والاخوة والأخوات ، وأبناء الأعمام والأخوال والعمات والحالات • وقالوا ان الشك قد بات يداخل كل فرد من العائلة فى بقية أفرادها ، وأنا بتنا نرى الكثير من الزوجات يطابن الطلاق بدعوى أن أزواجهن ، لكفرهم ، ليسوا حلا لهن ، والكثير من الأبناء يخاصمون آباءهم وأمهاتهم لاصرارهم على اقتناء الصور فى المنازل ، أو لتكاسلهم عن أداء الصلاة ، أو لتناولهم نظامنا بالتهكم والسخرية ، أو لرفضهم التبرع لبناء المساجد • وأجيب على كل هذا بأننا كنا دائما نتوقع هذا ونشجع عليه ، تدعيما للاسلام ، وحماية للنظام ، وتحقيقا ومصادقا لما بشرنا به الله تعالى جلّت قدرته فى القرآن ، اذ يقول فى سورة عبس ( يوم يفر المرء من أخيه • وأمه وأبيه • وصاحبته وبنيه • لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه ) •

على أى حال فانى مذكر اياكم بما تعاهدنا عليه وقت قيام ثورتنا الاسلامية المباركة ، وهو أن نقف جميعا صفا كأننا بنيان مرصوص ،

محيطين بأعداء الثورة ، متنبهين لمؤامراتهم ودسائسهم والأعيهم (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ) .  
وعلينا أن نسمي دوما الى تعزيز ايماننا الذي هو وحده زادنا وطريقنا الى الله . فان كنا نشكو هنا من ازمان طاحنة ، وضنك وكرب ، فقد وعدنا الله في اليوم الآخر جنة عرضها السماوات والأرض ، نسكن فيها القصور الفسيحة ، قطوفها دانية ، لا تسمع فيها لآغية ، فيها عين جارية ، وأنهار من عسل مصفى ، وأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، ( يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ) .  
والمؤمن منكم من زادته آلامه قوة ، ومعاناته تصميما واردة . ( وأصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ) . . . فالصبر الصبر أيها الاخوة والأخوات ، ولا تقنطوا من رحمة الله . فوالذى نفسى بيده ، ان الصبر لمفتاح الفرج . ولا أسمع من الآن فصاعدا أحدكم يشكو من تدهور الأوضاع . ( فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ) . صدق الله العظيم . ولا أسمع أحدا يشكو من استمرار طفح المجارى ، أو انفجار مواسير الغاز ، أو تكرار انقطاع الماء والكهرباء ، أو ارتفاع الأسعار والتضخم ، أو انهيار المباني على ساكنيها أو أشياء من هذا القبيل .  
( أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ) .  
فهى أمور وان كنا استنكرناها وانتقدناها وقت العهد البائد ، فقد ثبت لنا الآن بعد دراستها أنها من المتاعب الشائعة فى كل الدول ، ومن المشكلات العادية التى لا راد لها ، وقدر من الله عز وجل ، لحكمة يراها قد لا يكون بوسعنا سبر غورها ، ومعرفة كنهها . وكلكم قد قرأ مؤخرا فى الصحف عن انهيار فندق فى ستغافورة ، وطفح المجارى فى كلكتا ، بل وانقطاع التيار الكهربائى عن نيويورك نفسها . ولندكر دائما أنه ما من آية واحدة فى القرآن الكريم ، ولا حديث شريف واحد ، قد أمر المسلمون فيها

أو فيه باصلاح المجارى ، أو ضمان استمرار تدفق المياه ، وسريان الكهرباء .  
 بقيت كلمة قصيرة خاصة بالعلاقات الخارجية لجمهوريتنا الاسلامية .  
 واصارحكم يا اخوانى باننى حين توليت السلطة فى هذا البلد ، لم تكن  
 عندى فكرى كبيرة أو صغيرة عن الأهداف التى ينبغى أن تتوخاها السياسة  
 الخارجية لنظام حكم اسلامى ، اذ كنت مشغولا قبل ذلك بتدبير الانقلاب .  
 غير انى كنت أدرك امرا واحدا أساسيا ، قرأته فى كتب المرحوم سيد قطب ،  
 ألا وهو ان العالم ينقسم الى قسمين : دار سلم ودار حرب : دار سلم  
 يسكنها حزب الله ، وهو حزبنا نحن ، ودار حرب يسكنها حزب الشيطان ،  
 وهو سائر الأمم غيرنا ، وان الدين يقضى علينا بان نوسع من حدود دار  
 السلم عن طريق الجهاد والغزوات واشهار الحرب على الكفرة ، حتى  
 يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

وقد رأيت بعد استلام الحكم أنه قد يكون من المصلحة ناجيل الجهاد  
 والغزوات بعض الوقت لعدد من الاعتبارات العملية :

اولها : أن الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسسة تدعى صندوق النقد  
 الدولى فى سبيلهما الى أن تزودانا بقرض لتجديد وترميم استراحات رئيس  
 الدولة فى القناطر والهرم والغيوم واسوان .

وثانيها : أنه قد تبين لنا من تقارير مخابراتنا فى الخارج أن بعض  
 الدول الداخلة فى حزب الشيطان لديها أسلحة شيطانية ، كالقنابل  
 المسماة بالذرية والنووية ، نجعل من الحكمة التروى الى حين أن يمدنا الله  
 من لدنه بأسلحة الهية .

وثالثها : أن التقارير تاتينا ساعة بعد ساعة ، بل لحظة بعد لحظة ،  
 عن انتشار الاسلام بين رعايا دول كافرة كهولندا وزامبيا وبوتسوانا ،

- ٣٠٥ -

مما يبشر بدخولها في مستقبل الأيام في حزبنا حين يشكل المسلمون الأغلبية فيها ، وبذا يكون الله قد أراحنا وكفى المؤمنين شر القتال .

فأما عن قرارنا بالدخول مع الولايات المتحدة الأمريكية في حلف دفاعي لمدة تسعة وتسعين سنة ، فقد اتخذناه بعد اقتناعنا بشدة حاجة الأمريكيين الى الاستعانة بقواتنا وبالقواعد العسكرية في أرضنا على مقاومة الزحف الشيوعي الأحادي في كل اتجاه ، وخطر الثورة الإيرانية الشيعية الكافرة على أصدقائنا من دول الخليج ، وهي مقاومة لا شك عندي أو عندكم في أن غرضها الأوحده هو حماية الدين من مؤامرات الفاسقين المارقين . . . قد يذهب بعضكم ، وعن حق ، الى أن الولايات المتحدة هي الأخرى في حزب الشيطان . نعم . غير أنها تمثل الجناح المعتدل منه ، والأقرب الى مراعاة مصالح المسلمين من الاتحاد السوفيتي الذي نصب حربا لا هوادة فيها ضد كل العقائد الدينية . وكلكم يعلم ما يعانيه اخواننا في الجمهوريات الاسلامية السوفيتية من تعذيب وتنكيل . وكلكم استمع الى حديث الرئيس الأمريكي في الكونجرس مؤخرا الذي تحدث فيه بكلمات طيبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن المذهب السنن الذي نعتنقه . وكلها أمور تبشر بالخير ، وتدعو الى الراحة والاطمئنان الى النوايا الأمريكية . وعلى أي حال فانه باستطاعتنا ، ومن حقنا ، أن نعيد النظر في موقفنا من هذا الحلف الدفاعي بعد انقضاء مدة سريانه ، وهي تسع وتسعون سنة كما ذكرت ، متى رأيناه قد حاد عن أهدافه ، أو بات لا يتفق مع مصالح الاسلام .

ثم كلمة « على الماشي » كما يقال ، بخصوص قضية فلسطين :  
تعلمون يا اخواني أن لهذه القضية بالذات موقعا خاصا في قلوبنا ، ومركز الصدارة في سياستنا ومخططاتنا . فتحريز هذه الأرض المقدسة من مغتصبها ، واعادتها الى اصحابها الشرعيين ، هما الهدف الذي سيظل

- ٣٠٦ -

دوما نصب أعيننا ، والشغل الشاغل لنا ، ولن نحيد عنه قيد أنملة ، كما سبق أن ذكرنا في كافة منشوراتنا وبياناتنا وكتبنا قبل قيام ثورتنا الرشيدة .

غير أن اجماع أمتنا التي لا تجتمع على باطل ، يقضى الآن بتعليق شروعنا في تنفيذ هذا الهدف الاسمي على شروط ثلاثة :

**الشرط الاول :** أن تتعهد كل منظمات التحرير الفلسطينية سلفا ، ومن الآن ، بأن يكون النظام الذي سنتقيمه بعد تحرير الارض نظاما اسلاميا . اذ لا معنى ولا حكمة في أن نحرر لهؤلاء الفلسطينيين ارضهم ثم يقيمون فيها نظاما جاهليا علمانيا أو اشتراكيا أو صديقا للاتحاد السوفيتي ، فاذا فلسطين التي حررناها بدمائنا الطاهرة وقد أضحت من حزب الشيطان! ولا يكفيننا في الواقع مجرد التعهد من جانبهم ، بل ينبغي أن يثبت لدينا بوضوح ، من مراقبة سلوكهم ، أن هذا هو عزمهم الصادق ونيتهم الاكيدة .

**الشرط الثاني :** أن تتحرر كافة دول العالم الاسلامي الأخرى من أنظمتها الجاهلية ، وأن تقوم عقب ذلك الوحدة الاسلامية الكبرى فيما بين هذه الدول ، من أجل ضمان نجاح غزونا لفلسطين .

**والشرط الثالث :** أن يتم تحرير فلسطين بأسلحة من انتاج الدولة الاسلامية الكبرى بعد تأسيسها . أسلحة اسلامية لا شرقية ولا غربية . ف شراء الأسلحة من دول الكتلة الشرقية يا اخواني سيعنى تسلل النفوذ الشيوعي الى دولتنا في أعقاب ابرام صفقات السلاح ، وهو ما نأباه ونرفضه . كما أنه لا يعقل أصلا أن تبيعنا الولايات المتحدة الامريكية أو دول أوروبا الغربية ، ( رغم ما يربط بيننا وبينهم من علاقات ودية ) ، أسلحة في مقدورها القضاء على صديقتها العزيزة اسرائيل . غير أنه بالنظر



- ٣٠٧ -

الى أن اسرائيل المزعومة تتلقى أفضل صنوف السلاح من دول الغرب وأكثرها تقدما ، فان قدرة دولتنا الاسلامية الكبرى على انتاج ما يوازيها أو يفوقها سيس تغرق لا محالة بضع عشرات من السنين . وهى فترة سنكون قد تمكنا خلالها من تربية جيل جديد لم يتلوث بجاهلية العهد البائد ، وتشبع بمبادئ الاسلام وروحه منذ نعومة أظفاره ، فنسلم اليه القيادة ، ونلقى على عاتقه القوى مهمة تحرير فلسطين .

والى أن يتم هذا كله ، وتحقق هذه الشروط جميعها ( وهو كما ذكرت ، ما قد يستغرق قرابة نصف قرن ) ، ورغبة منا فى تجنب عواقب أن تكون اسرائيل هى البادئة بالهجوم والعدوان قبل أن نكون قد أعددنا أنفسنا الاعداد اللازم للمعركة المقدسة ، فقد قررنا أن تستمر قائمة بيننا وبينهم ، وبصفة مؤقتة ، معاهدة السلام التى أبرمها معهم السادات الخائن ، عميل الامبريالية والصهيونية .

★ ★ ★

أيها الاخوة والأخوات ،

هذا بعض ما عن لنا اليوم بصدد الظروف الراهنة ، وعدد بسيط من الانجازات المجيدة لثورتنا الرشيدة . وسألتقى بكم مرة أخرى بأذن الله تعالى هذا المساء ، لتسمعوا منى البيان الحادى عشر لقيادة الثورة الاسلامية عن المزيد من انجازاتنا .

( ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ) .  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



مشهد من الحياة فى ظل الحكومة الدينية :

## بيت القاضى

[ يدخل المؤلف من أمام الستار فى بطنه متأملا الجمهور يمنة ويسرة ]

المؤلف :

على شمالى التجمع	والوفد على اليمين
وامامى الحزب الوطنى	وورايا لا حزيين
د يمجده زغلول باشا	وده بياله لينين
والتالت عنده مبارك	ده حبيب المصريين
والرابع عبد الناصر	والخامس زفت الطين
داخلين فى خناقة وعركة	ومهاترة وسب الدين
والكل يقول عالتانى	خونة وانتهازين
ولا حدش منهم شايف	الخطر الاكبر مين
وحش متربص بيهم	حاياكلهم اجمعين
ونهار ما حايجصل حكم الـ ١٠٠	اخوان المسلمين
حانكون فى السجن جميعا :	والى وسراج الدين
وفرج فودة وشنودة	وخالد محيى الدين
وساعتها نقول يا جماعة	يا اخوانا يا بنى آدمين !
ضيعتكم مصر ازاي ؟	سسلمتوا بلادنا لمن ؟
موش كان احسن لو كنتم	من بدرى متحدين

- ٣١٠ -

ضد الخطر الى بلعكم واكلكم اجمعين ؟

\*\*\*

حاشوف مع بعضنا مشهد	من حكم رجال الدين
لا حبال ولا حاتجنى	وحاكون عالحق أمين
وان كنتم بعد ما تخلص	عن سياستهم راضيين
مبروك ان شا الله عليكم	دولتهم . قولوا آمين !
دولة ريان وشريف	والسعد أبو الملايين
بس أنا موش قاعد فيها	وحاروح ان شا الله الصين
وحاييجى مؤكد يوم	حاتكونوا فيه نادمين
وتقولوا صدق والله	حسين أحمد أمين

[ يخرج ]

\*\*\*

[ يرفع الستار عن فؤاد وفوزية على وشك الانتهاء من وجبة العشاء . .  
الابن ، محسن ، ( ١٤ سنة ) يجلس فى أحد أركان الغرفة يقرأ فى  
صحيفة ] .

**فوزية :** انت موش طبيعى النهاردة !

**فؤاد :** لا النهاردة ولا أى يوم تانى . . لو كنت طبيعى كنت

انتحرت .

**فوزية :** أعوذ بالله يا شيخ ! قابلت وزير العدل ؟

**فؤاد :** [ متنهدا ] قابلته !

**فوزية :** قال لك ايه ؟

**فؤاد :** قلت له يا سيادة الوزير القضية واضحة وضوح الشمس ،

ويمكن لطالب فى سنة أولى حقوق انه يفصل فيها . . . وزير الداخلية فى

المعهد السابق خارج من بينه ، ييجوا ثلاث شبان ، أعضاء فى منظمة شباب محمد ، يطلقوا النار عليه فى عز الضهر ، وأكثر من عشرين شاهد فى الشارع شافوهم واتعرفوا عليهم ، واتمسكوا بعد كده ومعاهم الأسلحة الى اطلقوا النار منها ٠٠٠ عايزين ايه أكثر من كده ؟ قال لى ده شأنك انت وأنا بلغتك تعليمات جاية من فوق ٠٠٠ قلت له لو كان القاضى بيتلقى تعليمات جاية من فوق ، يبقى صنعته ايه ؟ فيه حاجة اسمها عدالة ولا مفيش ؟ قال لى العدالة هى ان القاضى يحكم بما يخدم النظام القائم والشرعية . قلت له الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه سلم لقريش راجل مسلم قتل واحد من المشركين بعد صاح الحديبية ، يبقى احنا ما نعاقبش مسلم حاول يقتل مسلم ؟

**فوزية :** هم عندهم ان وزير الداخلية ده ماهواش مسلم .  
**فؤاد :** وهم كانوا ربنا عشان يحكموا على واحد بانه مسلم او موش مسلم ؟ النبى ما قلش لاسامة بن زيد لما قتل واحد نطق بالشهادة « قتلنه بعد ما قال لا اله الا الله ؟ هلا شققت عن قلبه لتنظر اصادق هو أم كاذب ؟ » القرآن ما قلش ( ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا ) ٠٠٩ الى مجننى ان كل يوم فى المحكمة دلوقت القى اربعين خمسين واحد بالجلاليب والدقون جاينين يحضروا القضية عشان يرهبونى واحكم بالبراءة « لعدم توافر الأدلة » ٠٠٠ عدم توافر الأدلة !!

**فوزية :** وانت تابع نفسك ليه ؟ ما دام قال لك دى تعليمات جاية من فوق ، يبقى انت ما لكش ذنب .  
**فؤاد :** واحكم بالبراءة ؟  
**فوزية :** ليه لا ؟ تفكر حا يسيبوك فى وظيفتك اذا انت أدنت ناس من تنظيماهم ؟

- ٣١٢ -

**فؤاد :** طبعاً لا ٠٠ [ صمت ] وما تقعشى القضية المهبية دى الا فى ايدى أنا ؟ ده ايه النحس ده ! [ يتنهد ] حد سأل على ؟

**فوزية :** مختار الشتيوى اتصل بالتليفون •

**فؤاد :** وحياتك اذا اتصل تانى أنا موش موجود •

**فوزية :** دى على فكرة رابع مرة يسأل عنك فيها وانت ماتكلموش •

أكيد حايغهم •

**فؤاد :** يفهم زى ما هو عايز •

**فوزية :** ايه الى خلاك تنقلب عليه كده مرة واحدة ؟

**فؤاد :** قعدته بقت مملة •

**فوزية :** ماكنتش بتلاقىها مملة ٠٠ زمان كنت بتقول عليه انه أكبر مثقف قابله فى حياتك •

**فؤاد :** وحياة أبوكى ماتفضليش كل شوية تقولى لى زمان ٠٠

زمان حاجة ودلوقت حاجة •

**فوزية :** خليك صريح ٠٠ مع نفسك عالاقل ٠٠ من ساعة ما جريدة « الهدى النبوى » ابتدت تشتتمه وتقول عليه علمانى وملحد ، وانت بقيت تنهرب منه •

**فؤاد :** [ فى حدة ] قصدك تقول انى جبان ؟ [ صمت ] عايزانى أعمل ايه ؟ انتى عارفة انهم ممكن يقبضوا عليه فى أى لحظة ويقدموه للمحاكمة بتهمة نشر الالحاد ؟ فى الحالة دى يبقى موقفى أنا ايه اذا اتعرف ان أنا لغاية آخر لحظة كنت بزوره وبيزورنى واننا أصحاب ؟ لا يا ستى ! أنا موش ناقص مشاكل • [ صمت • يتنهد مرة أخرى ] حتى الصحاب الواحد دلوقت ما بقاش له انه يختارهم ٠٠ ما بقيتس عيشة دى ا دى بلد دى ولا سجن ؟

- ٣١٣ -

**فوزية :** [ تحدج به بنظرة ذات معنى ] ما تكرشى الكلام ده كثير  
وحياتك .

**فؤاد :** انا اتكلم زى مانا عايز فى بيتى علاقل .. عايزانى انكتم  
حتى وانا فى بيتى ؟ عايزانى انا .....  
[ تدخل الخادمة تحمل طبقا من الفاكهة .. يصمتان حتى تضعه على  
المائدة وتنصرف ] .

**فؤاد :** وما تلاقيش لنا شغالة الا بنت أخو عضو فى منظمة  
الجهاد ؟  
**فوزية :** انت يا راجل موش كنت بتقول من كام يوم ان كون عمها  
عضو فى منظمة الجهاد له ميزة ؟

[ تدخل الخادمة مرة أخرى تحمل صينية القهوة ]  
**فوزية :** خلاص يا اعتماد تقدرى تروحي دلوقت .. انا حابقى أشطب  
الغناجين بعدين .

**الخادمة :** تصبحوا على خير .  
**فوزية :** وانتى من أهله . [ تنصرف الخادمة ] .  
**فؤاد :** [ يلتفت الى ولده ] عامل ايه فى المدرسة يا محسن ؟  
محسن : كويس .

**فؤاد :** وزعوا عليكم الكتب ولا لسه ؟  
محسن : لسه .. بيقولوا يمكن كمان أسبوعين .  
**فؤاد :** شهر من ساعة ابتداء الدراسة من غير كتب ؟ [ لفوزية ]  
امبارح قابلت مدرس التاريخ بتاعهم .. تعرفى قال لى ايه ؟ بيقول الكتب  
لغاية النهارده ما توزعتش ، والواحد مش عارف يقول ايه فى الحصّة  
وما يقولش ايه .. اشتهم فى محمد على ولا أمده فيه ؟ أمده فى سعد  
زغلول ووطنيته ولا أقول عليه علمانى ومحابى للأقباط ؟ ما أقدرشى أدرس

الآن تيجي الكتب وأشوف مكتوب فيها ايه « !! قلت له ما تسأل الناظر .  
قال : « سألته . قال ما اعرفشى وقول رايك لغاية ما الكتب تتوزع . بس  
انا موش عيبط ويحصل لى الى حصل لمدرس الجغرافيا الى قال للتلامذة من  
مخه ان الأرض هى الى بتدور حوالين الشمس والشمس واقفة ، فاترقد تانى  
يوم لان كلامه بيقولوا مخالف للقرآن ! » وكل الى بيعمله دلوقت انه بيتكلم  
كلام عايم ما حدش يقدر ياخذ عليه حاجة لحسد ما الكتب توصل . . حاجة  
تقرف !

**فوزية :** كل شوية دلوقت تقول حاجة تقرف . . زمان ما كنتش  
كده .

**هؤاد :** رجعتا تانى نتكلم عن زمان . . قلت لك ألف مرة ماتجيبيليش  
سيرة زمان . . زمان كانوا بيشتوهوا عقول عيالنا بالطريقة الى بيعملوها  
دلوقت ؟ [ صمت ] تعرفى أنا بافكر فى ايه ؟  
**فوزية :** خير .

**هؤاد :** موش امبارح كنت باحكى لك ازاى رجال الصناعة الكبار فى  
المانيا بعد الحرب الأولى ، كروب وبكشتاين وغيرهم ، هم الى جابوا هتلر  
الحكم ولعوه . عشان ألمانيا تعمل حرب ، وتكسب أسواق جديدة لبضائعهم ،  
ومستعمرات فيها المواد الخام الى محتاجين لها ؟ النهاردة الصبح فكرت وأنا  
رايح المحكمة : طيب ايه الى خلاهم فى نفس الوقت ينقلبوا على اليهود ،  
وينيروا حملة كراهية شسبية ضدهم ؟ . . . هل ده كان لازم لتحقيق  
أغراضهم ؟ . . . لقيت ان أيوه كان لازم . . . لانهم كانوا خايفين موت من  
الصراع الطبقي فى ألمانيا ، ومن الشيوعيين والاشتراكيين والعمال ، ولقوها  
طريقة كويسة يلها بيها الشعب الألمانى عن الصراع الطبقي الى بيهدد  
مصالحهم وجيوبهم ، بأنهم يوجودوا له كبش فدا تكون الطبقات كلها متحدة  
فى كراهيته ، ونفكر انه هو المسئول عن كل الى بتعانيه . . .



- ٣١٥ -

**محسن :** قريت يا بابا الى ٠٠٠

**فؤاد :** استنى لحظة ما تقاطعنيش ٠٠٠ وبعدين فكرت : مين الى كان ورا الجماعات الدينية فى مصر وسهل لها الوصول للحكم ؟ ٠٠ قصدى مين الجهة الحقيقية الى دبرت الانقلاب ؟ موش هم جماعة من اصحاب الملايين الى برضه خايفين من الصراع الطبقي فى مصر ، وعلى مصالحهم وجيوبهم ، ويكرهوا الاشتراكية عمو ، فربوا دقونهم وعملوا نفسهم اسلاميين ، واستمالوا ناس من كل الطبقات عشان يلهوهم بفكرة « ضرورة تطبيق الشريعة ، واقامة حكم يرضاه الله » وصوروا العهد الماضى بأنه عدو الاسلام ، عشان الشعب يتلهى عن الى ماصص دمه وواكل لقمته ؟ ٠٠ ايه رأيك ؟ كلام معقول ، ولا موش معقول ؟ ٠٠٠٠ [ يلتفت الى ابنه ] كنت عايز تقول ايه ؟

**محسن :** قريت الى كاتبينه عن فرج فودة ؟

**فؤاد :** انت بتقرا ايه ؟

**محسن :** « راية الاسلام » . شفت كاتبين ايه عن فرج فودة والعلمانيين ؟

**فؤاد :** [ يخطف منه الجريدة ] أنا موش عايزك تقرا الجريدة دى

٠ تانى

**محسن :** مدرس العربى فى المدرسة بيقول لنا لازم نقراها كل يوم لان موضوعات التعبير حاتجيلنا دايمنا من المقالات المكتوبة فيها .

**فؤاد :** مدرس العربى مالوش دعوة بالجرايد الى لازم نقراها ٠٠

احنا الى نقرر نقرا ايه وما نقراش ايه .

**فوزية :** محسن ! خد الخمسة وعشرين قرش دول وانزل اشترى لك

٠ حاجة

- ٣١٦ -

محسن : موش دلوقت عشان بتمطر • [ يتجه الى النافذة يتطلع منها الى الخارج ] •

فؤاد : نازلين على العلمانيين يلفقوا لهم بلاوى ويلطخوا سمعتهم •  
الجريدة دى ما تدخلش بيتنا تانى •  
فوزية : ما كل الجرايد بقت زى بعض •

فؤاد : اذا كانوا كلهم قذرين زى بعض يبقى موش عايزين جرايد خالص •• قال يعنى الواحد بيطلع منها بحاجة وبنفهم الى بيحصل فى الدنيا !! [ يفتح الجريدة ويقرأ منها : ] « حكم الشرع فى قص شعر المرأة ••• حقيقة اسلام الجن ••• فتوى الشيخ المحلاوى فى موضوع من تزوج بالجن المتشكل بالانس وما ينشأ عن هذا الزواج من حقوق عائلية ••• جمهوريتنا الاسلامية حماها الله من مكائد العلمانيين بقلم جلال كشك » ••  
تعرفى جلال كشك ده ؟

فوزية : لا •

فؤاد : ما تسمعيش عن المفكر الاسلامى الخطير جلال كشك مؤلف كتاب « عظمة الحل السعودى » ، وكتاب « روعة الحل السعودى » ، و « عودة الحل السعودى » و « انتقام الحل السعودى » ! كل كتاب منهم أقوى من « سوراخ » وأعظم من « سنجام » ؟ •• [ يعود الى النظر فى الجريدة ]  
« لا للعلمانيين الملحدون بقلم أحمد بهجت » •

فوزية : ده عارفاه •

فؤاد : ده الى كان كاتب فى « الأهرام » سنة ٨٥ يقول ان الى ابتدا المكارثية فى أمريكا هو الجنرال مكارثر بتاع حرب كوريا !! دول يا ستى الى بيشكلوا الراى العام وعقول أبناءنا والى بتيجى من مقالاتهم موضوعات التعبير فى المدارس ! [ يلقي بالصحيفة جانبا ] هل يجوز تلطيخ سمعة

- ٣١٧ -

العلمانيين وتقويم الناس عليهم بالشكل ده ؟

فؤاذة : على العموم احنا ما لناش دعوة ٠٠ الحمد لله لا احنا علمانيين ولا ملحدين .

فؤاذ : يعنى هم ما شاء الله الى سمعتهم برلنت ؟ ده انا حكوا لى حكايات عنهم وعن نسوانهم واللى بيحصل فى معسكراتهم الاسلامية وزواج المتعة بينهم حاجات تشيب .

فؤاذة : على كل ما تقدرشى تنكر ان فيه صحوة اسلامية .

فؤاذ : صحوة اسلامية ؟ لو كانت الصحوة الاسلامية بالشكل ده انا افضل اكون نايم !

فؤاذة : [ تتنبه ] هو محسن فين ؟

فؤاذ : [ يلتفت ] موش عارف .

فؤاذة : انت شفتته خرج ؟

فؤاذ : لا .

فؤاذة : [ تنادى ] محسن ! محسن ! [ تتجه الى باب غرفة ابنها

وتفتحه ] محسن ا راح فين دلوقت الولد ده ؟

فؤاذ : لازم خرج يشتري حاجة .

فؤاذة : الدنيا بتمطر ٠٠ ممكن يكون راح فين ؟

فؤاذ : ومالك عصبية كده ان الولد خرج ؟

فؤاذة : انت فاكرك كويس انت كنت بتتكلم عن ايه دلوقت ؟

فؤاذ : وده دخله ايه بان الولد خرج ؟

فؤاذة : لا يا فؤاذ ، انت الايام دى ما بقتش تاخذ بالك من الكلام

الى بتقوله قدام محسن .

- ٣١٨ -

**فؤاد :** ايه الى انتى بتقوليه ده ؟ كلامى الى بقوله دخله ايه بان الولد خرج ؟

**فوزية :** انت عارف كويس قوى انه بيقعد يسمع وياخد باله من الى احنا بنقوله .

**فؤاد :** وبعدين ؟

**فوزية :** وبعدين ممكن يخرج يقول لده او ده عن الى احنا بنقوله فى البيت ، والنتيجة تبقى موش كويسة . . . وانت دلوقت دايمًا بتشتتم قدامه وتترى على منظمة الجهاد ، وعارف انهم هناك يشجعوا العيال انهم ينقلوا لهم كل الى قرايبهم بيقلوه فى البيت عن نظام الحكم . . . حاجة غريبة الطريقة الى اتسحب بيها من الأودة !

**فؤاد :** بس بلاش كلام فارغ .

**فوزية :** انت ما شفتوش وهو خارج ؟

**فؤاد :** لا . . . كان آخر حاجة واقف هنا جنب الشباك .

**فوزية :** يا ترى سمع ايه وما سمعش ايه من الكلام الى قلته ؟

**فؤاد :** [ فى حدة ] بس هو عارف كويس ايه الى بيحصل لى بيتبلغ عنه .

**فوزية :** ورايك ايه فى الولد الى كان عبد الخالق بيحكى لنا عنه ؟ بلغ عن أبوه ولسه أبوه معتقل لغاية النهارده . . . يا ترى خرج قبل ما تتكلم عن جلال كشك ولا بعدها ؟

**فؤاد :** وحياتك نبطل الكلام ده . . . [ يهرع فجأة الى باب غرفة ] وينادى [ محسن ]

**فوزية :** ويخرج كده من غير ما يقول ولا كلمة او هو رايح ؟

**فؤاد :** موش ممكن يكون راح لحد من صحابه ؟

**فوزية :** يبقى عند مصطفى . . . حاكم ام مصطفى فى الـ يسون [ ترفع سماعة التليفون وتطلب رقما ]

- ٣١٩ -

**فؤاد :** ما تكبريش المسألة اعملى معروف !

**فوزية :** [ فى التيليفون ] آلو ! مدام عبد الغفار ؟ أنا فوزية يا رجاء .  
 الله يسلمك . . يا ترى محسن ابنى عندك مع مصطفى ؟ لا ؟ أمال راح فىن  
 الولد ده ؟ طيب وحياتك يا رجاء ، ما تعرفيش اذا كان مكتب منظمة الجهاد  
 بيبقى فاتح يوم الخميس بالليل ولا لا ؟ فاتح ؟ يادى المصيبة ! . . قصدى . .  
 قصدى حاسألهم دلوقت . . مع السلامة .

[ تضع السماعة . . فترة صمت طويلة ]

**فؤاد :** تفكرى سمع ايه ؟

**فوزية :** كنت الأول بتتكلم عن فكرتك المهينة بتاعة الصراع الطبقي .  
 وبعدين عن « راية الاسلام » . . ما كانش حقا تقول الى قلت عن زواج  
 المتعة والى بيعملوه فى المعسكرات الاسلامية . انت عارف انه حساس قوى  
 بالنسبة للموضوع ده .

**فؤاد :** وانا قلت ايه عنهم ؟

**فوزية :** انت عارف كويس . . . ان سمعتهم ماهياش برلنت وانهم  
 بيعملوا اعمال تشيب .

**فؤاد :** أنا ماقلتش كده ! أنا قلت ان ناس حكاوا لي عنهم حاجات  
 تشيب . ويمكن الحكايات دى تكون موش صحيحة . . وبعدين كونى قلت  
 ماهياش برلنت ده موش انتقاد . . مين الى سمعته زى البرلنت ؟ كل واحد  
 فيه عيوب . . والشيوخ الطراييشى نفسه فى خطبته الشهر الى فات قال ان  
 المعسكرات الاسلامية فيها عيوب لازم نتخلص منها . . قلت أنا ايه أكثر من  
 الى قاله الشيخ الطراييشى ؟ . . . وكونى قلت ان ناس « حكاوا لي » موش  
 معناه ان أنا مصدق كلامهم . . . وبعدين أنا أعرف مين هم بيعملوا ايه فى  
 المعسكرات بتاعتهم أو الى بتعمله نسوانهم ؟ أعرف مين أنا ؟ لا عمري

- ٣٢٠ -

دخلت معسكر ولا كلمت فى حياتى واحدة منقبة ٠٠٠ وبعدين كلنا بشر  
وبنخطىء ، ودول بشر زينا وموش معصومين ٠٠ يبقى ممكن أؤاخذ على كلامى  
ازاى ؟ أنا فاضى وعارف كويس ايه الكلام الى يؤاخذ عليه والى ما يؤاخذش  
عليه ٠٠ والشيخ الطرابيشى نفسه بينتقدهم ساعات وبكلام أقوى مين الى  
أنا قلته .

**فوزية :** [ فى ذهول ] ايه يا فؤاد اسم الله عليك ؟ انت بتتكلم معاى  
موش فى القسم !

**فؤاد :** والله الواحد ما بقى عارف هو بيتكلم مع مراته وعياله ولا فى  
القسم ! حد عارف انتى مع صحابك بتدردشى تقولى ايه عن كلامى معاكى ٠٠  
ما يمكن بنقوليلهم كل الى باقولهلوك ٠٠

**فوزية :** اسع يا فؤاد ! أضبط أعصابك أرجوك ٠٠٠ [ لحظة صمت ]  
صلى على النبى ٠٠٠  
**فؤاد :** ؟ ؟

**فوزية :** باقول صلى على النبى ٠٠ يا أخى رد قول اللهم صلى عليه ،  
دا انت حاتودينا ان شاء الله فى ستين داهية !  
**فؤاد :** اللهم صلى عليه .

**فوزية :** دلوقت لما قلت ان العهد ده يقرف ٠٠٠  
**فؤاد :** [ فى حدة ] أنا ماقلتش العهد ده يقرف ٠٠ أنا قلت « حاجة  
تقرف » .

**فوزية :** ايه يا فؤاد انت فاكرنى البوليس ولا ايه ؟ أنا مجرد بافكر  
فى ايه الى ممكن الولد يكون سمعه .  
**فؤاد :** أنا ما قلتش العهد ده يقرف .

- ٣٢١ -

**فوزية :** وما قلتش كمان ان جرايدهم كلها كذب ، وانك تفضل النوم على الصحوة الاسلامية بالطريقة بتاعتهم ؟ ٠٠٠ طول النهار انت بتتسلم الكلام ده قدام الولد ٠٠ حرام عليك يا شيخ ٠٠ وأمير الجماعة بتاعتهم كل يوم يقول لهم « مستقبل الاسلام فى أيديكم ، وأنتم حماة الدين ضد الكفرة والزنادقة » ٠٠٠! الولد يعمل ايه ؟

**فؤاد :** [ ساهما ] تفتكرى صحيح انه ممكن يبلغ ؟

**فوزية :** [ تهز كتفها ] ٠

**فؤاد :** عن أبوه ؟

**فوزية :** أنا عارفه ؟

**فؤاد :** هو غضبان منى بقى له مدة ٠

**فوزية :** غضبان ليه ؟

**فؤاد :** عشان ما جبتلوش البسكتلة فى عيد ميلاده ٠

**فوزية :** بس دى بقى لها مدة ٠

**فؤاد :** لكن شايلها فى قلبه لغاية النهاردة ٠

**فوزية :** وبالذمة ماجبتلوش بسكلته ليه ؟

**فؤاد :** انتى موش شايفة الشوارع بقت ازاي والمرور شكله ايه ؟

أجيب له بسكلته تدهسه عربية تانى يوم ؟ ٠٠٠ وعالعموم أجيبها له مفيش مانع ٠

**فوزية :** بعد ايه ايس هو ما أثارشى الموضوع ده معاك تانى ٠

**فؤاد :** لا ٠٠ ولسه أول امبارح مديله خمسة جنيه يجيب قلم

حبر ٠٠ فيه حاجة تانية بيطلبها وياقول لا ؟

**فوزية :** حا يفتكر ان دى رشوة عشان ما يبلغش عنك ٠

**فؤاد :** قصدك ايه ؟

- ٣٢٢ -

**فوزية :** قصدى انه ابتدا يحس انك بتديله فلوس عشان تراضيه .

**فؤاد :** بتقول « يحس » ؟! يا دى المصيبة ! لما الأب يدى ابنه حاجة

تبقى رشوة ؟! [ صحت ]

**فوزية :** تفكر ممكن يعملوا فيك ايه لو حصل انه بلغ ؟

**فؤاد :** ممكن يعملوا فى أى حاجة . . يا رب يا لطيف !

**فوزية :** هل هم ماسكين عليك حاجة ؟

**فؤاد :** كل واحد ماسكين عليه حاجة . . كل واحد شكين فيه ومحل

شبهة .

**فوزية :** طيب هل ممكن انهم يقبلوا شهادة ولد عيل ؟ هل شهادة

العيال مقبولة فى الشريعة الاسلامية ؟

**فؤاد :** لا . . بس من امتى هم بيحتاجوا لشهود عشان يعتقلوا

واحد ؟

**فوزية :** ممكن الأب يكون ضرب ابنه عشان عمل حاجة والولد يشتكيه

ويقول عنه كلام كذب . . يقبلوا كلامه ازاي ؟ . . المهم . . أحسن حاجة

نفكر من دلوقت ايه الى ممكن ترد بيه لو حققوا معاك عشان تقنعهم ان الولد

فهم غلط .

**فؤاد :** موش فاكرك حتى أنا قلت ايه . . أنا قلت ايه ؟ أنا عمري

ما هاجمت الشيخ الطرابيشى ولا قلت عنه كلمة وحشة . . وبعدين أنا من

سنة ٨٣ وأنا بتنبا بأن النظام الاسلامى حاييجى مصر ، وأيدت الاخوان

فى انتخابات ٨٧ .

**فوزية :** اسمع . دلوقت ما بقاش فيه وقت للكلام ده . المهم نفكر

بسرعة قبل ما ييجوا ترد بايه لما يحققوا معاك .



- ٣٢٣ -

فؤاد : [ ساهما ] ما تهيا ليش ان محسن ممكن يعمل كده فى  
أبوه .

فوزية : نبتدى بنظريتك المهيبة بتاعة الصراع الطبقي .

فؤاد : دى مش حا يكون فهمها .

فوزية : طيب « راية الاسلام » . قلت انها مليانة قذارة وموش  
عايزها تخش بيتك تانى .

فؤاد : أنا ما قلتش انها مليانة قذارة .

فوزية : قلت .

فؤاد : ما قلتش .. أنا قلت حابطل اشتراكى فيها ، انما ما قلتش  
انها مليانة قذارة .

فوزية : القصد ... ممكن ترد ان كان قصدك ...

فؤاد : [ ثائرا ] لا يا ستى موش حارد وموش عايز أقول حاجة !

عايزانى أرد وانا فى قفص الاتهام وابنى جايينه شاهد اثبات ضدى ١٩

فوزية : اهدا يا فؤاد وحياتك . [ صمت ]

فؤاد : الغلطة انى فضلت مدة بعد الثورة أقابل مختار الشتيوى

فوزية : بس هو ما جرى لوش لسه حاجة .

فؤاد : لسه .. بس الكلام عليه كتر وأكيد حا يتمسك ..

[ صمت ] . تفتكرى البواب ممكن يكون زعلان مننا فى حاجة ؟

فوزية : قصدك لو استدعوه شاهد فى التحقيق ؟ ما اعتقدش ..

أنا لسه فى العيد الى فات بعتاله لحمه وعيدية خمسة جنيه .

فؤاد : بس محمود جارنا اداله عشرة جنيه فى العيد .

فوزية : ده عشان شيوعى وخايف يتمسك .. انما انت لا شيوعى

ولا يحزنون .

- ٣٢٤ -

**فؤاد :** امبارح البواب بيقول لى : « يعنى يا فؤاد بك ما شفناكشى  
فى الجامع فى صلاة الجمعة الى فانت » ! وبيقولها بطريقة معينة عشان يفهمنى  
انه ملاحظ ٠٠ تعرفى ؟ أنا قلبى حاسس انهم مسلطينه يقول لى كده من قبيل  
الضغط على فى قضية وزير الداخلية ٠

[ يدق جرس التيليفون ]

**فؤاد :** التيليفون !

**فوزية :** أرد ؟

**فؤاد :** [ واجما ] موش عارف ٠

**فوزية :** ممكن يكون مين ؟ [ يتوقف الجرس ]

**فؤاد :** لو دق تانى ردى ٠ [ ينتظران ٠٠٠ لا شئ ] اسمحى لى دى

ما بقتشى عيشة دى ! [ يهب واقفا فى هياج ]

**فوزية :** فؤاد !

**فؤاد :** ما بقتشى عيشة دى ! ابنى ! لحمى ودمى ! قاعد يطفح معانا

الأكل الى بنوكلهوله ، وهو قاعد يراقب بنقول ايه عشان يبلغ !!؟

**فوزية :** بس يا فؤاد وحياتك ٠٠ أرجوك ٠ [ صمت ٠ يعود الى

مقدمه ]

**فؤاد :** تفتكرى الواحد يحضر شنطته ولا يستنى اما ييجوا ياخدوه ؟

**فوزية :** هو حايجيبيهم معاه ولا حايجوا بعدين لوحدهم ؟

**فؤاد :** أعرف منين أنا ؟ [ صمت ] تفتكرى نزود ماهية الشغالة ؟

**فوزية :** أكثر من الى هى بتاخده ٠٠٠ زودها اذا حببت ٠٠٠

[ فجأة ] استنى ! انت كنت شلت صورة الشيخ الطرابيشى من الصالون

ورمينها فين ؟

**فؤاد :** فى الفراندة ورا الكنبه ٠

- ٣٢٥ -

- فوزية :** على فكرة الشفالة لاحظت يوم ماشلتها • [ تنهض ] أروح أجيبها واعلقها تانى قبل ما ييجوا ؟
- فؤاد :** [ مستسلما ] على كيفك ••• وجيبي معاكى سجادة الصلاة أفرشها هنا عشان لما ييجوا يلاقونى باصلى •
- فوزية :** طيب ولو محسن قال لهم انك كنت شلت الصورة ومارجعتهاش الا لما حسيت انه راح يبلغ عنك ؟
- فؤاد :** يبقى كلب ابن كلب •
- [ يسمع صوت الباب الخارجى وهو يفتح ]
- فؤاد :** [ هامسا ] الباب ؟
- فوزية :** [ هامسة ] أيوه •
- فؤاد :** [ هامسا ] فوزية !
- فوزية :** [ هامسة ] هدى نفسك يا حبيبي •
- فؤاد :** [ هامسا ] خشى بسرعة حضرى لى شوية حاجات فى الشنطة •• سجادة الصلاة فى ؟
- [ يدخل محسن وفى يده كيس - فوزية تمسك بيد زوجها فى قلق ••
- الاثنان يراقبان محسن فى وجوم اثناء دخوله ] •
- محسن :** [ يتوقف ] مالكم ؟ مالكم بتزغولى كده ؟
- فؤاد :** كنت فى ؟
- محسن :** [ يريهما الكيس ] نزلت اشتري شوكلاته •
- فوزية :** بس ؟ تشتري شوكلاته بس ؟
- محسن :** وعلبة لبان •
- فوزية :** وبعدين ؟
- محسن :** وبعدين جيت •• ايه ؟ جرى ايه ؟

- ٣٢٦ -

[ يدخل حجرته وهو يقضم قطعة من الشوكولاته - يظل والداه يراقبانه حتى يختفى ويغلق الباب ] \*

**فؤاد :** تفتكرى بيقول الحق ؟

**فوزية :** ان شا الله يا رب .. [ ثم فى حدة لزوجها ] بس وحياء ربنا اذا انت فتحت بك بكلمة بعد كده عن النظام ، ما انا قاعدة لك فى البيت !  
سامع ؟

**فؤاد :** خلاص يا ستى .. قسما بالله العظيم لا حاجيب سيرة النظام تانى ، ولا منظمة الجهاد ، ولا « راية الاسلام » ، ولا الصراع الطبقي ، ولا حتى جلال كشك .. وحاحكم فى القضية بان وزير الداخلية هو الى حاول الانتحار .. « حاول الانتحار وهو يهم بركوب سيارته » ...

ستار - يدخل المؤلف

المؤلف :

م الى حايجرى يا مساكين	دا مجرد مشهد واحد
على شرط تكونوا راضيين	وان كان فيه عمر حاواصل
من حكم الفاشيين	ربنا يحمى لنا بلادنا
تحكمنا باسم الدين	من شر عصاة غرضها
اهتفوا وياى آمين	ويرد لمصر صوابها

### كتب اخرى للمؤلف

الكتاب الحائز على جائزة احسن كتاب  
في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٤  
دليل المسلم الحزين  
( الطبعة الثالثة - مكتبة مدبولي )

قالوا عنه :

- من أخصب ما قرأت من كتب اسلامية ، كتاب يشحذ الذهن ، فى صياغة  
بلغة الرفعة والسلاسة .
- احمد بهاء الدين ( صحيفة الأهرام )
- يتجه مباشرة الى قلب المشكلة بوضوح وقوة .
- انيس منصور ( مجلة أكتوبر )
- هو أهم كتاب دينى قرأته خلال عام ١٩٨٣ .
- فتحي رضوان ( مجلة الهلال )
- كتاب خطير وهام ، يتكلم بدرجة عالية من الصدق والمعرفة .
- علاء الديب ( مجلة صباح الخير )
- صوت جاء فى مرحلة التدهور والتراجع والشتات ليقف على أرض ثابتة  
من التراث والمعرفة ، يتكلم بأكثر قدر ممكن من الموضوعية والعلم عن  
الاسلام المطلوب لزماننا هذا ، وليكمل المشوار الذى بدأه الشيخ  
محمد عبده .
- يوسف القعيد ( مجلة الهلال )

- كتاب جدير بالقراءة والاهتمام • خرج عن نطاق الكتابة الدينية التقليدية الى آفاق تحمل سمات الحداثة والاستنارة • وهو دراسة كبيرة مجتهدة ، شائقة ذكية مشكورة ، تستحق جائزة أحسن كتاب صدر في عام ١٩٨٣ التي حصل عليها من معرض القاهرة الدولي للكتاب •  
مصطفى بهجت بدوى ( مجلة عالم الكتاب )
- يكتب بلغة تهن السكون القاتل ، ويطرح أشياء جديدة لم نتعودها ، ويفتح باب الاجتهاد مرة أخرى •  
يسرى حسين ( صحيفة العرب اللندنية )
- يطرق عقولنا بمطرقة صلبة •  
محمد نور فرحات ( مجلة الاهرام الاقتصادي )
- أسلوب غير تقليدى ، وجهد كبير ، وبحث عميق ودقيق فى قضايا حيوية وأساسية من مفكر اسلامى كبير •  
السيد حجازى ( صحيفة الأنباء الكويتية )
- جرأة افتقدها الاسلام منذ عصر العجماء الأوائل • والتجريد الذى يضيفه حسين أمين على الأصول الدينية خالعا عنها كل الشوائب التى ألت بها منذ غابر الأزمان يجعله من تلاميذ أحسن مدرسة المصلحين الذين مروا فى فترات تاريخية متعاقبة بدءا بأحمد بن حنبل وابن تيمية ومرورا بمحمد بن عبد الوهاب وانتهاء بالشيخ محمد عبده •  
أحمد الدعيج ( كتاب « أين الطريق ؟ » )

## حول الدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية

( الطبعة الثانية - مكتبة مبدول )

### قالوا عنه :

- كتاب فذ للكاتب الثائر والمثير الأستاذ حسين أحمد أمين الذى أفزعت كتاباته قوما وأسعدت قوما وأهمت آخرين .. انه يضرب بمعول كبير يحمله ساعد شديد فى موروثة عزيزة على المسلمين والعرب ، غير ملق بالالما يبعثه من ألم ونحسرة هذا العمل الجرىء .

### فتحن رضوان

- وصلت الى اقتناع بأن حسين أمين هو خير ما فى مصر اليوم ، وضوح فكر ، وروعة قلم ، وشجاعة اتجاه .

### ب • فاتيكيوتيس

- التحليل الرائع والشجاعة الفائقة هما السمتان الغالبتان على كتابات حسين أمين ، وهما سمتان طالما أثارتا إعجابى .

### نورمان دانيل

- حسين أمين ظاهرة فكرية بكل المقاييس ، يملك قدرة نادرة على أن يخط لنفسه مساراً منفرداً ، ويعيد منحنى مدرسة التجديد الاسلامى للصعود مرة أخرى .

### صلاح عيسى

- رؤية عصرية متنورة لبعض القضايا الاسلامية • ومهما كانت درجة الاختلاف مع اجتهادات المؤلف فان شجاعته فى طرحها تجعل من صدور

- ٣٣٠ -

هذا الكتاب حدثا لا جدال حول أهميته ٠٠ انه يواصل سيره في الطريق  
الصعب الذى بدأ بكتابه المثير للجدل « دليل المسلم الحزين » ٠  
مجلة « العربى » الكويتية

● فرضت شخصية حسين أمين نفسها بسرعة عظيمة باعتباره أحد القادة  
المعاصرين للفكر الاسلامى المستنير ٠

**فيليب كاردينال**

● قراءته بشغف بالغ ، فزادتنى قراءته اعجابا بشجاعة مؤلفه وقوة قريحته ٠  
ايمانويل سيفان



● في بيت أحمد أمين ( دار الهلال )

« هو أهم كتاب صدر في عام ١٩٨٥ » .

د . سيد عويس

« يرسم صورة شخصية لنفسه ولطفولته باللغة الصريحة والعنف . وهو هنا يمارس صفة الأديب بعد أن أثبت في كتبه الأخرى صفته كباحث ومفكر ، وهي صفات اجتمعت عنده كما اجتمعت عند والده الكريم . وهو يقدم لنا في كتابه هذا نموذجا طيبا لأدب الاعتراف ، وعملا تربويا هاما يستطيع به أن يقف في صفوف المعلمين وغارسي القيم » .

علاء الديب

« قطعة أدبية صغيرة ممتعة » .

ب . فاتيكيوتيس

هذا الكتاب الخليق بالاعجاب لا يحيى الماضي فحسب ، بل وينقل الى القارئ كل نكهته ومذاقه » .

ايمانويل سيفان

« ان نجاح وجودة هذا الكتاب يدفعنا دفعا الى وضعه في مصاف كتاب « الأيام » لطفه حسين » .

فيليب كاردينال

● الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها ( مكتبة النهضة المصرية ) .

● ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الأول (دار الشروق)  
« جرعة ثقافية وممتعة ذهنية للقارئ . انها زهور من حديقة التراث

- ۳۳۲ -

العربی القديم • والحقیقة أن الكاتب أحسن اختیار أجمل القطوف  
والثمرات من أمهات الكتب » •

**محمود فوزی**

« کتاب قد یكون نسخة معاصرة ( مع الاحتفاظ بكل نكهة التراث ) عن  
کتاب « الأغاني » لأبي الفرج • یعکس کل الداخل العربی عبر قرون  
عديدة • ولو سلمت هذه الحکایات الى شخص آخر لما خرجت بالانتقاء  
والتنظیم والبراعة التي خرجت بها • فحسین أمين لا یزیح الغبار بل انه  
یجلو اللآلئ وینظمها بصورة فذة » •

**صحیفة « الوطن » الكويتیة**

● **الف حکایة وحکایة من الأدب العربی القديم - المجلد الثانی ( دار  
الشروق )**

● **فضل الاسلام على الحضارة الغربیة - مترجم عن مونتنجومری وات ( دار  
الشروق )**

« هو أفضل کتاب صدر بالعربیة فی بیروت خلال عام ۱۹۸۳ » •

**مجلة « الحوادث » اللبنانیة**

« کتاب هام وجدير بالقراءة » •

**مجلة أكتوبر**

● **معضلة الرجل الأبيض - مترجم عن لورد بوید اور ( سلسلة الالف  
کتاب )**

**کتاب بالاشتراك مع غيره :**

● **التسامح الدينى والتفاهم بین المعتقدات ( اتحاد المحامین العرب )**

- ٣٣٣ -

- التراث وتحديات العصر ( مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت )
- L'Islam en Questions ( دار برنار جراسيه - باريس )
- تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى ( المركز الاقليمى العربى للبحوث الاجتماعية - القاهرة )

#### تحت الطبع :

- ألف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم - المجلد الثالث ( دار الشروق )

#### كتب معدة للنشر :

- مسرحية « الامام »
- متنوعات
- مصابيح أقوال العرب
- حوليات العالم الاسلامى
- محمد

## الاسلام في عالم متغير

الصفحة	المحتويات
٥	١ - صدمة الغزو الفرنسي وبداية انفتاح مصر على الغرب
٧٥	٢ - انجلترا والألفى بك
٨٥	٣ - الأوروبيون في مصر في عصر محمد علي
١٠١	٤ - سير ريتشارد بيرتون في مصر
١١٧	٥ - التيارات الفكرية في مصر في القرن العشرين
١٦١	٦ - التيارات الاسلامية في مصر خلال السبعينات
١٦٧	٧ - عن « التسامح » الدينى
١٧٧	٨ - حسين ومرقص وكوهين
١٨٥	٩ - حول أزمة تعاملنا مع التراث العربى
١٩٣	١٠ - حلاوة زمان
٢١١	١١ - عن الحمينية والصهيونية
٢١٩	١٢ - قضاة الشرع
٢٢٧	١٣ - المسألة القانونية بين الشريعة الاسلامية والقانون الوضعى
٢٣٧	١٤ - من أطاع عصاك فقد عصاك
٢٤٣	١٥ - عن القضاة والطلبة واليسار والسلطة والحزب الحاكم
٢٥٣	١٦ - استنكار البدعة وكراهة الجديد ، موقف اسلامى أم جاهلى ؟
٣٦٣	١٧ - الاجتهاد ، حق هو أم واجب ؟
٢٧٣	١٨ - الاسلام في عالم متغير
٢٨٧	١٩ - البيان العاشر لقائد الثورة الاسلامية
٣٠٩	٢٠ - بيت القاضى

## المؤلف

- ولد فى القاهرة فى ١٩ يونيو ١٩٣٢ ، وهو نجل المؤرخ الاسلامى الكبير الدكتور أحمد أمين .
- تخرج فى كلية الحقوق ، جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ ، ثم درس الأدب الانجليزى بجامعة لندن .
- عمل محاميا ، فمذيعا بالاذاعة المصرية ، فمذيعا بالقسم العربى بهيئة الاذاعة البريطانية .
- التحق بالسلك الدبلوماسى المصرى وعمل ملحقا فسكرتيرا ثالثا بالسفارة فى أوتاوا ( كندا ) ، فسكرتيرا ثانيا بالسفارة فى موسكو ( الاتحاد السوفيتى ) . فمستشارا بالسفارة فى لاجوس ( نيجيريا ) ، فوزيرا مفوضا بالسفارة فى بون ( ألمانيا الاتحادية ) ، فمقنصلا عاما فى ريو دى جانيرو ( البرازيل ) ، وبقى الى درجة سفير عام ١٩٨٧ .
- يعمل حاليا سفيرا لمصر فى الجزائر .
- انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشارا فنيا لوزير الثقافة ، وأعيد للعمل نائبا لمدير مركز الأمم المتحدة للاعلام بالقاهرة .
- يجيد الانجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والبرتغالية .
- حصل كتابه « دليل المسلم الحزين الى مقتضى السلوك فى القرن العشرين » على جائزة « أحسن كتاب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب » عام ١٩٨٤ ، وترجم الى الفرنسية .
- كما أهدت له حكومة ألمانيا الاتحادية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣ .
- له العديد من المقالات والبحوث نشرت فى مجلات « الثقافة » و « الرسالة » و « المجلة » و « المسرح » و « روز اليوسف » و « صباح الخير » و « الأهرام الاقتصادى » و « أكتوبر » و « المصور » و « العربى » الكويتية و « الفيصل » السعودية و « الدوحة » القطرية ، وجرائد « المصرى » و « الأخبار » و « الجمهورية » و « الوطن » الكويتية . كما أذيعت له تمثيلات فى اذاعة الشرق الأدنى والاذاعتين المصرية ( البرنامج الثانى ) والبريطانية ( القسم العربى ) .
- متزوج وله ثلاث بنات .



رقم الايداع ١٩٨٨/١٧٠٠  
التزقيم الدولي ١ - ١٧٢ - ١٣٣ - ٩٧٧



